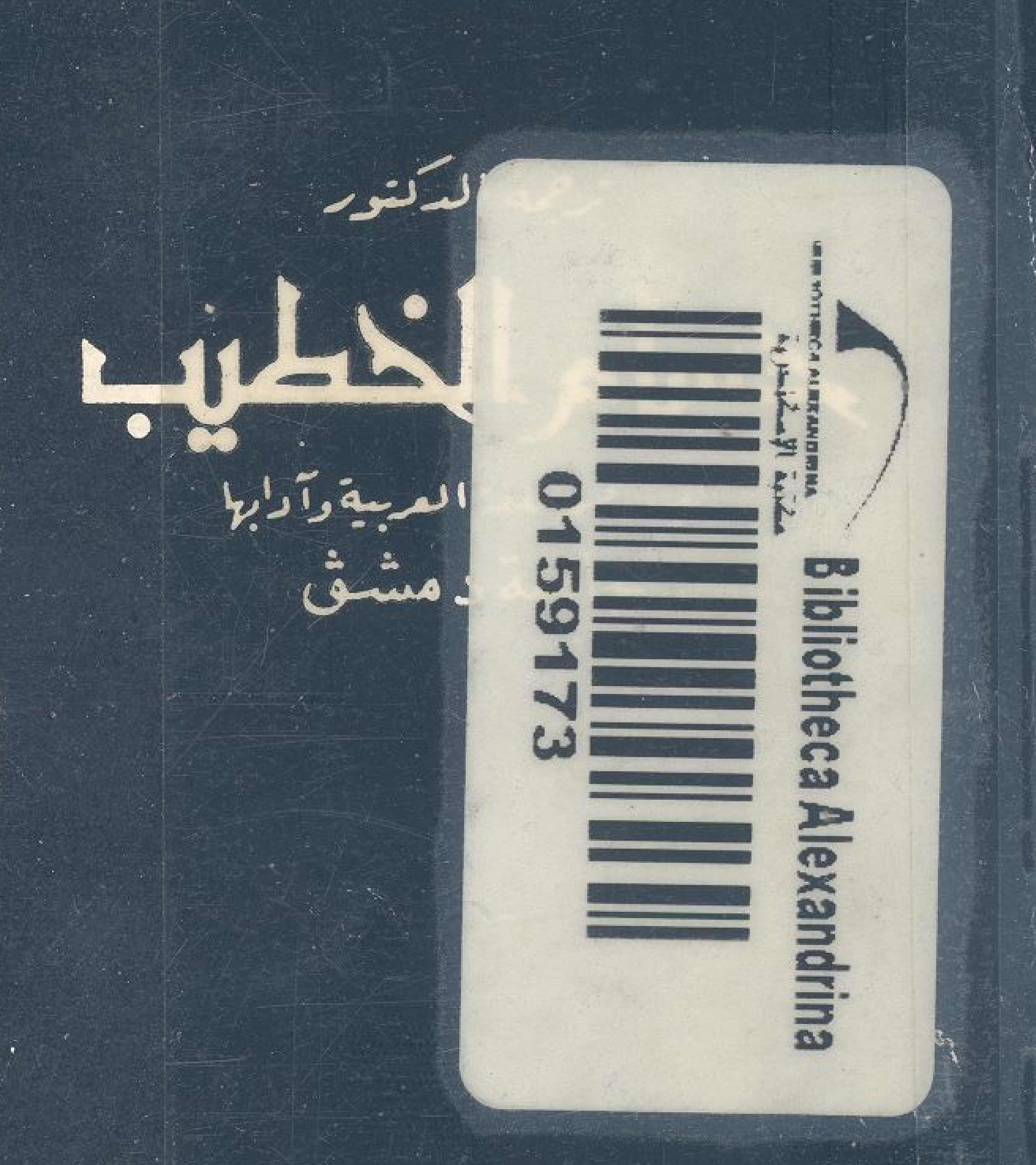


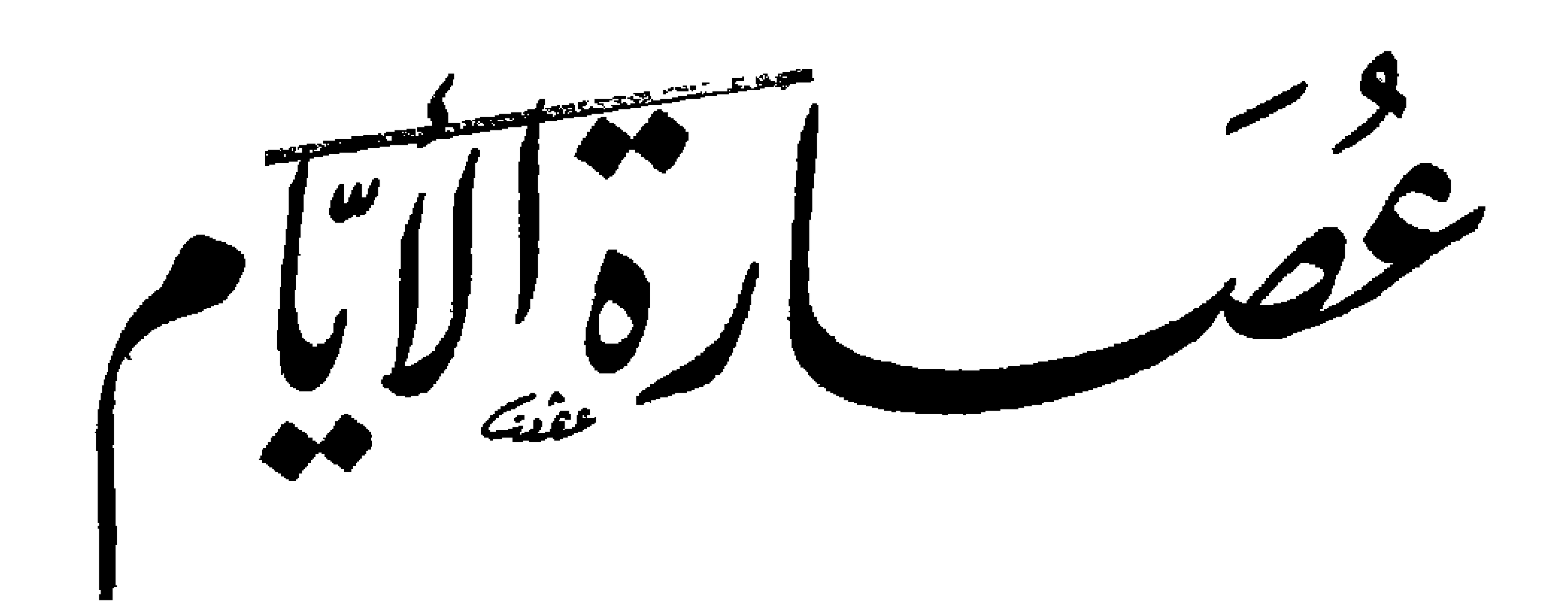
سومرست موم

عصارة الأيام

ترجمة الدكتور
... الخطيب
... العربية وآدابها
... دمشق



دار الفكر



تاليف

سمرست موم

ترجمة

الدكتور حسام الخطيب

دار الفكر

١٩٧٢

المقدمة

تبدأ مقدمات الكتب المترجمة عادة بالتعريف بشخصية المؤلف واتناجه ، ولكن مقدمة كتاب في السيرة الذاتية لابد من أن تكون شيئاً آخر مختلفاً مادام المؤلف يتولى الحديث عن نفسه وأحداث حياته وخاطرات أفكاره ، ولذلك أراني في حل من سرد أحداث الحياة المديدة الخصبة التي عاشها سمرست موم مؤلف هذا الكتاب ، وكل ماسأفعله في هذه السطور انما هو محاولة لإعطاء فكرة سريعة عن انتاجه الادبي ومراحل هذا الانتاج وقيمة كل مرحلة لأصل بعد ذلك الى عرض لمادة كتابه الممتع (عصارة الايام) آملاً أن يكون في هذه المقدمة مايعين القارىء على استيعاب الإشارات الكثيرة التي تضمنها الكتاب .

ألف سمرست موم كتابه الاول سنة ١٨٩٧ ثم تدفقت حياته الادبية فياضة معطاء خلال النصف الاول من القرن العشرين حتى كانت سنة ١٩٥٨ اذ نشر كتابه (وجهات نظر) وأعلن أنه خاتمة المطاف ، وإنه لمطاف طويل صعد فيه المؤلف سلم النضج الفني درجة درجة ، ففي مدى عشر سنوات (١٩٠٠ — ١٩١٠) قفز من كاتب مغمور الى أن أصبح أشهر مؤلف مسرحي في لندن ، ثم عكف على كتابة القصة خلال العقد الثالث من القرن العشرين ، وفي العقد الرابع سجل انتاجه نمواً رائعاً ونضجاً ووفرة اذ نشر أفضل رواية له ، وكتاباً في أدب الرحلات يعد أفضل ماكتب عن الاندلس ، ومجموعة من القصص القصيرة نالت حظاً عظيما من الاعجاب ، ثم عرض سيرته الذاتية بأسلوب أدبي عملي لايكاد يضاهيه أسلوب منذ (ترولوب) . وخلف هذه المؤلفات جميعاً يد كاتب صناع اعتاد أن يصرّح بأنه يكتب الانكليزية كما يغني البلبل

بطبع وسهولة ، وفي الوقت نفسه ما انفك يشتكي من صعوبة اللغة الانكليزية وقوة شكيمتها •

وفي هذا الكتاب بسط موم تجربته مع اللغة الانكليزية بوضوح ودقة وحلل طريقته في الكتابة وعالج العوائق الفنية التي تعترضها وذلك بأسلوب ممتع شيق لم يسبق له مثيل في الآداب العالمية •

ولعل سمرست موم ورث الخط الرئيسي في حياته عن العصر الفكتوري حيث كان الناس يصرون على وضع خطة للحياة يوجهون خطاهم على هديها ، كانوا يحبون الاشياء المرسومة المرتبة ويكرهون التشتت والسير على الهوى ، ومن هنا أصر موم منذ مطلع حياته على أن يضع لنفسه نمطاً في الحياة يحتذيه ، وأتت الصُّوى التي وضعها في الدرب تشير الى أنه سائر في طريق واحد الى هدفين متلازمين :

الاول : أن يكون كاتباً محترفاً يعيش للكتابة ومن الكتابة وهكذا أقدم في مطلع شبابه على ترك مهنة الطب المربحة الى سراب الكتابة المحترفة ومشاقها ، وكانت مجازفة غير معروفة النتائج لايقدم عليها الا فدائي تؤرقه الغاية وتنسيه أهوال الطريق •

والثاني : أن يدرس المناخ الانساني وأن يبث ماوصل اليه من دراسة في مؤلفاته المختلفة • ولعل هذا الهدف يفسر مارأيناه عند موم من قلق بالنسبة للفنون الادبية وتقلب بين القصة والرواية والمسرحية بأنواعها والسيرة والذكريات ، اذ كان دائم البحث عن النوع الادبي الذي يمكن أن يستوعب المناخ الانساني استيعاباً طبيعياً بعيداً عن التكلف والتقعر خالياً من أشواك الوعظ التي تخز القارىء وتنفره •

وفي سبيل الهدف الاول هجر موم مهنة الطب حين بدأت تعطيه أكلها ، وفي سبيل الهدف الثاني تخلى عن المسرح الذي أوصله الى الاوج شهرة وثروة ليكتب روايته (في الرباط الإنساني) ، ولست أعرف كاتباً غيره

أوتي مثل هذا الوضوح في الهدف والايمان به في المجالين الفني والحياتي ومع ذلك نجت كتابته من بوادر الجفاف والقسر •

وقد انغمس موم ، على نحو ما فعل أبناء عصره ، في مشكلة القوة في المجتمعات الانسانية وأثناء شبابه حين كان طالباً في مدرسة الطب قضى احدى اجازاته في فلورنسة وعكف على قراءة كتابات مكيافللي التي ظهر طابعها في بعض مؤلفاته بعد ذلك • ويعد سبينوزا كذلك من المفكرين الذين تأثر بهم موم وانحصر تأثره بصورة رئيسية بأبحاث سبينوزا الاخلاقية ومعالجته لمفهوم الخير ، وكانت قراءة الفلسفة عنده عادة متأصلة بل تمريناً صباحيا لابد منه : (وكان من عادتي أن أبدأ يومي بمطالعة بضع صفحات من المؤلفات الميتافيزيائية، وهوتمرين يفيدالروح صحياً كما يفيدالجسم الحمام الصباحي)•

واهتم صاحبنا بالرسم كذلك وتظهر كتاباته عن الرسامين ما يتجاوز حدود معرفة الهواة العاديين ، على أن الأدب كان حقل اهتمامه الرئيسي ، وقد تعلم في شبابه الفرنسية والالمانية والاسبانية والايطالية واطلع علـى آداب هذه اللغات وأحسن الاستفادة منها •

وهذه الاهتمامات والمعارف انصبت جميعاً في غاية واحدة هي رواية القصص على اختلاف أشكاله ، والنمط الذي اختاره موم لحياته لم يكن الا تصميما مناسباً لحياة تعتمد على الكتابة الأصيلة الخلاقة وقد انطوى صدره على ايمان عميق بأن الكتابة الخلاقة هي وحدها المهمة وان الفنان المبدع هو الذي يضفي الأهمية على العالم ، ولكنه في الوقت نفسه كان يحرص على مناقشة مسألة خلود الكاتب وسوف يرى قارىء هذا الكتاب كيف عالج الكاتب هذه الناحية باستخفاف وكاد يحصر أهمية الكاتب بمقدار مايقبل معاصروه على قراءته ولعل ذلك رد طبيعي لما أتهم به موم من ايثاره الجانب التجاري في الكتابة •

واليوم اذ نستعرض انتاج هذا الكاتبالمبدع نجدأنه أشبع نهم معاصريه

الى معرفة العالم بطريقة ممتعة ، وقد أقبلت عليه جماهير القراء وفاق في ذلك كل الكتاب الانكليز المعاصرين ، وما زالت مؤلفاته تبعث البهجة والسرور في أبناء جيلنا ، وهذا دليل على أنه استطاع أن يحقق الحسنيين في آن واحد فأرضى أبناء عصره من جهة وضمن الخلود والاستمرار لانتاجه الادبي بفضل المضمون الانساني الذي ينطوي عليه .

ويجمع النقاد على أن عصارة الايام The Summing up هو أمتع ماكتبه موم ، وحين شرع في كتابته كان قد أوفي على الستين ورمى فيه الى عرض آرائه المتعلقة بالموضوعات التي حظيت باهتمامه الرئيسي خلال سني حياته ، ولم تكن حياته مجرد حياة أديب محترف وكفى : (لقد أردت أن أضع مخططاً لحياتي تحتل فيه الكتابة المكانة الرئيسية ولكنه يحوي كل أنواع النشاط الأخرى التي تليق بالرجل) ... وقد أتى كتابه (عصارة الايام) حافلا بجميع السمات – الرئيسية في هذا المخطط ، فالفصول الاولى تعرض طفولة الكاتب وطبيعة الحياة من حوله ، ويلي ذلك الحديث عن مهنة الطب التي كان مقدراً له أن يحترفها لولا أنه نفذ المخطط الذي وضعه لنفسه دون أن يبالي بالعواقب ، ثم يصف رحلاته الى هيدلبرغ وجنوب فرنسا وفلورنسة وكابري واسبانيا ، ويخلص من ذلـك الى عرض تجربته في كتابة القصة والمسرحية ويخصص فصلا للحديث عن مطالعاته ولاسيما في ميدان الفلسفة ثم يشرح آراءه في كثير من القضايا التي تؤرق النفس الانسانية كالحق والخير والجمال والدين متابعاً خـلال ذلك سرد أحـداث حياته الحافلة بالمفاجآت والتجديد .

وقد أصر موم على أن كتابه هذا ليس سيرة ذاتية ولا سلسلة يوميات، إنه خلاصة لكل مامر به في حياته من تجارب في المجال الأدبي وفي المجال العملي ، والكاتب يعرض هذه التجارب دون نظاممعين، انه يختار زبدة ماوقع له من أحداث في الحياة محاولا أن يفصل الكلام على أهمية كل حـادث ومغزاه بالنسبة لفهم الحياة ، نافراً كل النفور من أية لهجة وعظية لأنه ظل

طوال حياته متأكداً من شيء واحد فقط هو أنه غير متأكد من شيء البته ، وعدم التأكد هذا أفاده كثيراً اذ جعله دائم الحرص على تفحص الاشياء بعين الناقد المتشكك في غير تزمت ، وكلما عرض له رأي جديد يخالف المألوف سبقته الابتسامة وأطلت روحه الساخرة تضفي على أصالة الرأي جاذبية المرح ولطف الأداء ، من ذلك مثلا تعليقاته الجميلة على صحبة الحكام وعلية القوم فقد وجد أمرهم عجيباً ، حديثهم أبعد مايكون عن العذوبة وذكاؤهم قلّما يكون متوقداً ومعلوماتهم العامة وثقافتهم دون الوسط بكثير، فما الذي أهّلهم لأن يقودوا الناس؟ لعله نوع من الاختصاص والتفهم لأساليب الحكم والسياسة ، ولكنهم هنا أيضا يتعثرون ومعظمهم لايدركون أبعاد القضايا التي يفترض فيهم أن يعالجوها ، اذاً ليس هناك سوى حل واحد هو أن المقدرة على الحكم لاتتطلب ذكاء نافذاً أو ثقافة واسعة بل تتأتى من موهبة خاصة لها شروط نوعية معينة كثيراً ماتتوفر في الجهلة والأغبياء .

وأجمل مافي الكتاب صراحته البسيطة غير المتكلفة ، انه يبدو أليفاً جداً حتى لتحس به الى جانبك يفضي اليك بأسراره وهو واثق من أنك البئر العميق الذي يعب الاسرار فلا تفشو بعد ذلك أبداً ، وما كانت الألفة أبداً نزوة عابرة عند سمرست موم ، انها قيمة رئيسية وغاية منشودة وهي من بين الاسباب التي زينت له أن يعزف عن شهرة المسرح وأمجاده ، ذلك أن ضجيج المسرح أشعره بأن الألفة مفقودة بينه وبين المشاهد فآثر أن يكتب القصص التي يصطحبها القاريء في منعزل عن الناس ويفتق أسرارها في خلوته الهادئة فاذا هو والمؤلف روحان تخطران على صعيد من التفاهم والمؤانسة ، ولشد ما كان يشعر بالحرج حين يضطر الى خوض موضوعات قد تسبب الضيق للقاريء أو لاتستهوي حب الاستطلاع عنده ، ولما اقتضته الضرورة في نهاية كتابه (عصارة الايام) أن يسجل ما انتهى اليه بشأن القيم الكبرى في الحياة بادر الى الاعتذار الى القاريء بلهجته المحببة وبذل قصارى جهده ليأتي عرضه النظري لقضايا الدين والفلسفة والحق والخير

والجمال واضحاً رشيقاً بعيداً عن الغموض والالتواء •

على أن الآراء التي توصل اليها سمرست موم لاتعد فتحاً جديدا في عالم الفكر ولاتحمل مقومات النظرية الفلسفية ، وما كان له أن يدعي ذلك رغم أنه ظميء في مطلع حياته الى العثور على كتاب فصل يحسم الرأي في جميع القيم التي مازال المفكرون يناقشونها ويختصمون بشأنها منذ عهد أرسطو وقبل ذلك ، ولما أخفق في العثور على هذا الكتاب المنشود عقد العزم على تأليفه وخاض غمار أسفار الفلسفة وطفق يجمع مواد الكتاب فاذا بها تتعقد وتتشعب وتطغى حتى تضطره الى أن يرفع يديه مستسلماً •

واذاً قيمة الكتاب ليست فيما يقدمه من حلول للقضايا الكبرى في حياة الانسان بل هي في الطريقة الأصيلة التي يعرض بها الكاتب أحداث حياته وتجاريبه وآراءه ، في الجمل القصيرة المتقطعة التي تحمل حرارة المحادثة وحيويتها ، في الصراحة الجريئة التي تزيد من احترامك للكاتب وتحببه الى نفسك في آن واحد ، في الروح المرحة المرنة التي يتسع مداها فيلف الآفاق الانسانية كلها في ابتسامة ساخرة ، في التجربة الغنية لحياة مديدة عريضة خصبة تقدم اليك في طبق متواضع تعبق فيه أبخرة الكفاح الحياتي وتحمل اليك نكهة حب صميمي للحياة (الغرض من الحياة هو ممارسة الحياة وكفى ••) ••

تلك هي مقومات السيرة الذاتية الناجحة ولكنها ليست كل مقومات هذا الكتاب الشيق •

ان الفصول التي تتحدث عن تجربة الكاتب في فن الكتابة ليس لها مثيل في كل ماكتب في هذا الموضوع ، وما أجدرنا نحن الكتاب العرب أن نقرأها بامعان وتفهم ، ان الدعامة الأولى للكتابة الناجحة هي الوضوح ولايحق للكاتب مطلقاً أن يتجاوز هذه الدعامة ، ان أعقد موضوع في الفلسفة أو العلم يمكن أن يكتب بوضوح ولايجوز أبداً التماس العذر لأية كتابة

غامضة لأن الغموض أحد أمرين إما غموض متعمد ناشيء عن رغبة الكاتب في اضفاء هالة كبرى حول أفكاره الهزيلة وإما غير متعمد وهو يكشف اذ ذاك عن اضطراب المادة الفكرية في ذهن المؤلف . والـدعامة الثانية هي البساطة، والبساطة ليست موهبة غير مصقولة، انها تحتاج الى جهد وكدوصبر ونظام، انها امتحان لقدرة الكاتب على اخفاء الجهد الذي يريقه في عملية الكتابة.

أما الدعامة الأخيرة فهي الجرس ، فالنثر له موسيقاه الخاصة وبدون هــذه الموسيقى لايكون الأداء كـاملا ، على أن الافراط في توفير القيم الموسيقية له من الضرر ما لإهمال هذه القيم .

وبعــد ، فما أغناني عن التنويه بآراء سمرست موم مادام القــاريء سيجدها في هذا الكتاب مبسوطة باوضح عبارة وأمتع أداء ، اذاً لابد من ختام ، وليكن العبارة نفسها التي ختم بها براندر كتابه عن سمرست موم : (ان موم كاتب مبدع ، وقصارى القول أننا بالمثل والقدوة لا بالنظريات ، نتعلم منه كيف نسوس لغتنا الصعبة أفضل سياسة) .

المعرب

— ١ —

لست أرمي الى تدوين سيرة حياتي في هذه الاوراق أو الى تسطير ذكرياتي ، فقد عملت بطرق مختلفة على أن أورد في مؤلفاتي ماجرى لي في خضم هذه الحياة ، وفي بعض الأحيان جعلت من احدى التجارب التي خضتها موضوعاً للكتابة واخترعت سلسلة من الاحداث لإيضاحها ، وفي أغلب الاحيان كنت أصطفي أشخاصاً من الذين جمعتني بهم معرفة وثيقة أو طفيفة وأجعلهم أساساً لشخصيات من اختراع بنات أفكاري ، وهكذا تداخلت الحقيقة والخيال في كتاباتي حتى أنني اذ أعيد النظر فيها الآن لاأكاد أستطيع أن أميز أحدهما من الآخر • وليس يعنيني أن أسجل الوقائع التي سبق أن استفدت منها فائدة أوفى حتى لو استطعت تذكرها بل لعلها اذ ذاك تبدو مملة جداً • لقد قضيت حياة ملونة بل ممتعة ولكنها لم تكن حياة مخاطر ؛ ولي ، فضلا عن ذلك ، ذاكرة ضعيفة لاتسعفني في تذكر القصة الجيدة الا اذا أعيدت على مسامعي ولكنني سرعان ما أنساها قبل أن تتاح لي فرصة روايتها لشخص آخر ، بل انني أعجز عن رواية طرفي مما أضطرني الى الاستمرار في تأليف طرف جديدة ، وهذا العجز ، في اعتقادي ، جعل صحبتي أقل جاذبية مما ينبغي أن تكون عليه •

كما انني لم أسجل يوميات حياتي والآن أتمنى لو كنت أقدمت على ذلك خلال السنة التي تلت نجاحي ككاتب مسرحي لأنني قابلت حينذاك عدداً من الاشخاص ذوي الشأن مما قد يجعل من هذه اليوميات وثيقة ممتعة • وفي تلك الفترة كانت ثقة الناس بالارستقراطيين والاقطاعيين قد تزعزعت بسبب سوء تصريفهم للامور في جنوب أفريقيا ، ولكن هؤلاء لم يدركوا الامر وظلوا على اعتقادهم القديم بأنفسهم ، وفي البيوتات السياسية

التي ترددت عليها كانوا يتكلمون كما لو أن تسيير الامور في الامبراطورية البريطانية عمل خاص بهم ، وطالما شعرت باحساس غريب حين كنت أسمعهم يتناقشون وهم على أبواب انتخابات عامة ، في وجوب تعيين توم وزيراً للداخلية أو اكتفاء ديك بايرلندة ، وأحسب أنه مامن أحد يقرأ اليوم روايات السيدة (همفري وارد Humphry Ward) ، ولكن بعض هذه الروايات – على مافي قراءتها من ملل – يعطي صورة حية لحالة الطبقة الحاكمة في تلك الفترة ، وكان الروائيون يهتمون بحياة هذه الطبقة ، وحتى الكتاب الذين لم يسبق لهم أن عرفوا لورداً كانوا يعتقدون بضرورة الكتابة عن ذوي الرتب ، وقد يدهش أي امرىء يلقي نظرة على قوائم الشخصيات المسرحية في تلك الايام أن يرى ذلك العدد الضخم من الشخصيات التي تحمل ألقاباً.. كان المديرون يظنون أنها تجذب الجمهور والممثلون يحبون أن يشخصوها . ولكن اهتمام الجمهور بها تضاءل بتضاؤل دور الارستقراطية السياسي ، وبدأ رواد المسارح آنئذ يظهرون استعداداً لمشاهدة أدوار أناس من طبقاتهم كالتجار الميسورين وأهل الحرف العليا الذين أخذوا يديرون شؤون البلاد، ثم درجت العادة على أن لايقدم الكاتب أشخاصاً من ذوي الرتب والالقاب الا اذا كان ذلك ضرورياً لموضوعه . على أنه بدا من المستحيل أيضا حمل الجمهور على الشغف بشخصيات من الطبقات الدنيا لأن القصص والمسرحيات التي عالجت شؤونها اعتبرت منحطة . ويلذ للمرء أن يتساءل ، بعد أن اكتسبت هذه الطبقات النفوذ السياسي ، هل يظهر الجمهور من الشغف بشخصياتها ماسبق أن أظهره لمدة طويلة بحياة ذوي الالقاب ، ولمدة محدودة بحياة البرجوازية المثرية ؟

وخلال هذه الفترة قابلت أناساً ربما اعتقدوا اعتقاداً جازماً بسبب طبقتهم أو شهرتهم أو مركزهم ، أنهم خلقوا ليكونوا شخصيات تاريخية ، ولكنني لم أجدهم لامعين على نحو ما صوّر لي خيالي . إن الانكليز أمة سياسية وكثيراً مادعيت الى منازل كانت السياسة شغلها الشاغل ولم أستطع أن

اكتشف في الساسة البارزين الذين قابلتهم أية مقدرة مرموقة واستنتجت يومذاك ، وربما بشيء من التسرع ، أن حكم الامة لايحتاج الى درجة عظيمة من الذكاء • ومنذ ذلك الحين تعرفت في بلاد مختلفة بعدد كبير من السياسيين الذين تقلدوا مناصب رفيعة وزادت حيرتي بشأن توسط ذكائهم (عـادية عقولهم) ووجدتهم مشوهي المعلومات عن أمور الحياة العادية ولم اكتشف أية ألمعية في عقولهم أو حيوية في خيالهم ، وخطر لي أحياناً أنهم بلغوا مراتبهم ببراعتهم في الكلام ، اذ يكاد يكون مستحيلا وصول المرء الى السلطة في مجتمع ديمقراطي اذا لم يكن في مقدوره الاستيلاء على آذان الجماهير ، وموهبة الكلام ــ كما نعلم ــ ليست مصحوبة على الاغلب بقوة التفكير ، ولكن مادمت قد رأيت رجال دولة بدوا لي أنهم ليسوا أذكياء جداً يسيّرون الشؤون العامة بنجاح معقول لا أستطيع الا ان أرجح أنني كنت مخطئاً في حكمي عليهم ، ولعل تأويل الامر أن قيادة الامة تحتاج الى موهبة من نوع خاص قد تتأتى للمرء دون أن تتوفر فيه الكفاية العامة ، وعلى نفس المنوال عرفت رجالا ذوي شأن جمعوا ثروات كبيرة وقادوا مشروعات واسعة في طريق النجاح ولكنهم في كل مالايختص بعملهم بدوا كأنهم مفتقرون حتى الى المنطق السليم •

ولم يكن ماسمعته من أحاديث في تلك الفترة ذكياً كما توقعت ، وندر أن سمعت مايبعث المرء على إعمال فكره ، وكانت معظم الاحاديث سهلة ــ وهو حكم غير مطرد ــ مرحة محببة سطحية ، وتجنب الناس الموضوعـات الجدية بسبب شعورهم بأن مناقشة مثل هذه الموضوعات في المجتمعات العامة تسبب الضيق ، وكان الناس يخشون أن يتهموا بالتحدث عن أعمالهم ، وهي أكثر ما يهمهم !! وبوجه عام كانت المحادثة عبارة عن نوع لطيف من المهاترة وما أندر ماسمعت من لطائف تستحق أن تروى حتى خُيـِّل إليّ أن الفائدة الوحيدة من الثقافة هي تمكين المرء من التحدث بالسخافات بطريقة مميزة ، ولعل أمتع شخص وأحسن متحدث عرفته هو (إدموند غوس Edmund Gosse)

وكان قارئاً مكثراً رغم ان قراءته لم تكن دقيقة على مايبدو ، وكانت أحاديثه ذكية جداً ، وقد أوتي ذاكرة هائلة واحساساً حاداً بالمرح وبالحقد ، وعرف (سوينبرن Swinburne) معرفة وثيقة وتحدث عنه بطريقة استعراضية ، غير أنه كان يستطيع التحدث عن (شلي) أيضاً ــ كما لو كان صديقه الحميم ــ واحسب انه لم يكن بوسعه أن يعرفه ، واتصل بعدد من الشخصيات البارزة لأمد طويل ، وأظنه كان رجلا مغروراً تقبل سخافات هؤلاء الاشخاص عن رضى ، وأنا واثق انه أثار في الناس شغفاً بهم يفوق ماكانوا يستحقون •

- ٢ -

كنت أعجب دائماً للحماسة التي يبديها الناس من أجل مقابلة المشهورين، وفي رأيي أن الميزة التي تكتسبها بكونك قادراً على إخبار رفاقك أنك تعرف رجالاً مشهورين تثبت فقط أنك انسان ذو قيمة ضئيلة • وللمشاهير أساليب متقنة يعاملون بها الاشخاص الذين يتصلون بهم ، فهم يظهرون للعالم من خلال الأقنعة التي تكون غالباً مؤثرة ، لكنهم يحرصون على اخفاء حقيقة نفوسهم ويلعبون الدور المنتظر من أمثالهم ويتقنون أداءه مع المران ، ولكنك تكون غبياً اذا اعتقدت أن هذا العرض العام الجهري يتفق وطبيعة الانسان الذي يعيش في داخل ذلك القناع •

ولقد كانت صلتي وثيقة ووثيقة جداً بأناس قليلين ، ولكنني كنت أهتم بالناس عامة بسبب مقتضيات عملي لا لأسباب تتعلق بهم أنفسهم ، ولم أعتبر كل شخص غاية في نفسه، كما كان يفعل كانت(Kant) باصرار ، ولكن مادة قد تكون مفيدة لي باعتباري كاتباً ، وكان اعتنائي بالمغمورين أكثر من اعتنائي بالمشهورين ، لان المغمورين غالباً ما يظهرون على حقيقتهم وليس بهم من حاجة الى خلق شخصية تحميهم من العالم أو تمارس تأثيراً فيه ، وصفاتهم المميّزة أتيح لها حظ أكبر لتنمو ضمن حلقة محدودة من فعاليتهم ، وماداموا لم يتعرضوا لعيون الجماهير فليس يخطر لهم أنّ هناك ماينبغي أن يخفوه ، وهم يكشفون تصرفاتهم الشاذة لأنه لم يخطر لهم يوماً أنهم شاذون • وعلى أي حال ينبغي لنا معشر الكتاب أن نعالج شخصيات من عامة الناس ، فالملوك والمستبدون والتجار المهرة لا يسدون حاجتنا • على أن الكتابة عنهم مخاطرة طالما أغرت الكتاب ولكن الاخفاق الذي منيت به هذه المحاولة يدل على أن هذه المخلوقات فريدة لدرجة أنها لا تصلح قاعدة للعمل الفني لأنه يستحيل

اضفاء صفة الواقعية عليها ، فالعادي هو ميدان الكاتب الاخصب يمده بمادة لا تنضب بسبب مافيه من جدة وتفرد وتنوع لا حدّ له . ان الرجل العظيم لسوء الحظ غالباً ما يكون قطعة واحدة أما الرجل ضئيل الشأن فهو حزمة من العناصر المتناقضة ، انه معين لا ينفد ولا تنتهي أبداً المفاجآت المختزنة في ذاته ... وعندي أن قضاء شهر في جزيرة مهجورة مع طبيب بيطري أفضل بكثير من قضائه مع رئيس وزارة .

- ٣ -

وفي هذا الكتاب سأحاول أن أعرض آرائي في الموضوعات التي حظيت بالنصيب الأوفر من اهتمامي خلال سني حياتي ، ولكن النتائج التي توصلت اليها كانت مبعثرة في دماغي كحطام سفينة مفككة في بحر لا يستقر موجه ، وبدا لي أنني لو رتبت هذه الافكار على نحوٍ ما استطعت أن أدرك قيمتها الحقيقية وأتوصل الى نوع من الربط بينها •

ولطالما فكرت بالقيام بمثل هذه المحاولة وصممت أكثر من مرة على أن أبدأ العمل وذلك كلما قمت برحلة يفترض فيها أن تستغرق عدة شهور ، وكانت الفرصة تبدو مثالية ، ولكنني أجد نفسي دوماً مغموراً بعدد كبير من الانطباعات اذ كنت أرى الغزير من الاشياء الغريبة وأقابل عدداً ضخماً من الناس الذين اختلبوا لـبّي حتى لم يعد لديّ وقت للتفكير ، اذ كانت لذة تلك اللحظات من الحيوية بحيث لم تترك لعقلي مجال الاستبطان والتأمل•

وأعاقني أيضا شعوري بالضيق من تسجيل آرائي باسمي الشخصي فمع أنه سبق لي ان كتبت الكثير في هذا الشأن الا أنني كتبته بوصفي روائياً مما ساعدني على أن أعد نفسي شخصية من شخصيات الرواية على نحو ما • والعادة الطويلة جعلتني أستشعر ارتياحاً اكثر اذا تحدثت من خلال المخلوقات التي اخترعها ، اذ انني أكثر استعداداً لان احكم على ما يكون لها من آراء من أن احكم على نفسي • وكان الحكم على شخصياتي متعة لي وأما الحكم على نفسي فكان عملا شاقاً آثرت أن أؤجله عن طيبة خاطر ، ولكنني الآن لم أعد قادراً على الاستمرار في هذا التأجيل ، ففي الشباب تمتد السنوات أمام العين متطاولة حتى يصعب على الشاب ان يدرك أنها ستنقضي يوماً ما ، وحتى في منتصف العمر يكون من السهل اختلاق المعاذير لتأجيل الاعمال التـــي

ينبغي أن نقوم بها ونحن لا نرغب فيها ، لأن أملنا في حياة مديدة أمر طبيعي في تلك الايام ، ولكن لا بد من أن يأتي يوم تحسب فيه للموت حسابا اذ يتساقط معاصرونا هنا وهناك ، ونحن نعرف أن كل الناس ميتون (سقراط كان إنساناً ••• وهكذا دواليك) ولكن هذا الامر يظل عندنا أقرب الى المحاكمة المنطقية حتى نضطر الى الاعتراف ، خلال المجرى الطبيعي للاشياء ، ان نهايتها لن تكون بعيدة • ونظرة عرضية على عمود الوفيات في جريدة (التايمز) أوحت إلي أن الستين سن غير صحيحة الى درجة بعيدة •

وقد اعتقدت منذ زمن انه سيحزنني لو مت قبل أن أنجز هذا الكتاب ولذلك اقتنعت أنه من الأفضل البدء به تواً حتى اذا ما أنجزته استطعت أن أواجه القدر مطمئنا لأنني أكون حينذاك قد ختمت العمل المتعلق بحياتي • ولم يعد في استطاعتي ان أقنع نفسي أنني غير قادر على كتابته اذ ما دمت لم أتخذ حتى الآن قراراً بشأن الاشياء ذات الاهمية بالنسبة لي فهناك احتمال ضئيل في ان أستطيع تقرير ذلك أبداً ، وانني سعيد أخيرا لجمع كل هذه الافكار التي كانت على المدى تطفو عرضاً على المستويات المختلفة لوعيي ، وحين أنجز كتابتها أكون قد تخلصت منها وسوف يكون عقلي حراً في استيعاب أشياء أخرى لأنني آمل أن لا يكون هذا الكتاب آخر كتاب أكتبه، فالمرء لا يموت بمجرد أن ينجز وصيته ، والوصية ليست الا نوعاً من الحيطة، وانجاز المرء لاعماله هو اعداد جيد لقضاء بقية العمر بدون قلق على المستقبل• وحين أنهي هذا الكتاب سوف أعرف أين أقف وسوف استطيع أن أفعل ما أشاء في السنوات المتبقية من عمري •

من المحتم أنني سأقول هنا أشياء كثيرة سبق لي أن قلتها قبلا ، ولهذا السبب أسميت الكتاب (الخلاصة)[1] فحين يلخص القاضي قضية ما ، يجمل الادلة التي عرضت أمام المحلفين ويعلق على المرافعات دون أن يقدم أدلة جديدة ، ومادمت قد ضمنت مؤلفاتي حياتي كلها فان كثيراً مما ينبغي علي أن أقوله ورد في هذه المؤلفات ، ويندر أن تجد موضوعاً من الموضوعات التي أثارت اهتمامي غير معالج في كتبي معالجة جدية أو سطحية وكل ما أستطيع فعله الآن هو أن أعطي صورة متماسكة لمشاعري وآرائي ، وأن أعرض بين الحين والآخر بجهد عظيم بعض الافكار التي لم تسمح لي حدود فني القصة والمسرحية ــ كما أعتقدت يومذاك ــ بأكثر من الاشارة اليها باللمح .

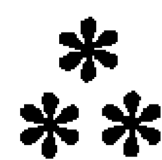
لابد لهذا الكتاب من أن يكون متركزاً حول الذات ، فهو يدور حول تلك الموضوعات التي تهمني ، وهو بالتالي يدور حول نفسي ، لانني لاأستطيع أن أعالج تلك الموضوعات الا بقدر ماتركته في نفسي من أثر ، ولكنه لايتعلق باعمالي الخاصة ، ولست أرغب في أن أفتح قلبي على مصراعيه للقارىء فأنا أضع حدوداً معينة للالفة التي أحب أن تسود بيني وبين القارىء ، شؤون كثيرة أرغب في أن تظل خاصة بي ، وما من أحد يستطيع أن يقول الحقيقة كاملة فيما يتعلق بنفسه ، وليس الغرور وحده هو الذي منع أولئك الذين حاولوا كشف أنفسهم للناس من قول الحقيقة كاملة ، ولكنه نوع اهتمامهم أيضا . ان خيبتهم تجاه أنفسهم ، ودهشتهم من انهم قادرون على فعل أشياء تبدو لهم بالغة الشذوذ لما يجعلهم يؤكدون ، بشدة ، على

---

(١) وهي الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب : The Summing up
(المعرب)

بعض المصادفات ، التي هي في الواقع أكثر انتشارا مما يظنون • لقد جاء روسو في كتاب « الاعترافات » على ذكر مصادفات هزت مشاعر الجنس البشري ومن حيث أسهب في وصفها ، بصراحة تامة ، فقد زيف بذلك قيمه الخاصة ، واعطى لتلك المصادفات في كتابه ، أهمية لم تكن لها في حياته •

ومن بين أحداث حياته الحافلة كانت هناك حوادث فاصلة أو على الاقل محايدة حذفها لانها بدت له عادية لاتستحق أن تسجل ، وهناك نوع من الناس لاتظفر أعماله الطيبة بنصيب من اهتمامه ولكن أعماله السيئة تعذبه دوما ، وهذا هو الصنف الذي يكتب عن نفسه في الأغلب ، انه يطرح صفاته الصالحة فيبدو بذلك ضعيفاً ، فاسدا ، وغير مبدئي ••



انني أضع هذا الكتاب لاخلص نفسي من عبء أفكار معينة طالما شغلتها ، ولست أهدف الى اقناع أي انسان ، فأنا مجرد من الغريزة التعليمية ، وحين اهتدي الى شيء لا أصبو أبداً الى الإفضاء به للآخرين ولا يعنيني كثيراً أن يوافقني الناس على آرائي • طبيعي أنني أظن الصواب في نفسي ، والا لما كان ينبغي أن أفكر مثل هذا التفكير ، وطبيعي أيضا أنني أظن الخطأ في الآخرين ، ولكن ، لايضيرني أنهم لابد مخطئون ، ولايزعجني كثيراً ان حكمي على الأشياء يختلف عن حكم الاغلبية،فلي ثقة مؤكدة في غريزتي، وعلي أن أكتب كما لو كنت رجلا ذا شأن ، وأنا كذلك عند نفسي فأنا عند نفسي أهم الناس قاطبة مع أنني لا أنسى انني انسان غير ذي خطر أبدا وهو حكم لايمليه علي مفهوم ضخم كالمطلق بل ان المنطق السليم يكفي لاثباته ، وما كان للعالم أن يصيبه تغير كبير لو أنني لم أوجد ومع أنني أكتب أحياناً ، وكأن مغزى خطيراً لابد أن يكون ملتصقاً ببعض مؤلفاتي بالذات، فان ماأعنيه حقاً هو انها مهمة عندي بالنسبة لاي نقاش قد يصادف أن يستدعي ذكرها وأعتقد ان هناك كتابا قلائل جادين — ولا أعني كتاب الموضوعات الجدية فقط — يمكن أن لايكترثوا بالمصير الذي سيحيق بمؤلفاتهم بعد وفاتهم • ويحلو للانسان أن يتصور أن بضعة أجيال من بعده سوف تتمتع بقراءة كتبه ، وانه سيحتل مكانة مهما تكن صغيرة في التاريخ الادبي لامته مع أنني أنظر الى هذا الاحتمال المتواضع نظرة متشككة فيما يخص انتاجي واما الخلود فلست أطمع فيه •• ان الخلود بالنسبة للانتاج الادبي لا يتجاوز في أية حال بضع مئات من السنوات ولايزيد بعد ذلك الا نادراً عن كونه خلوداً في حجرة الدرس ، لقد رأيت في حياتي كتابا يقعون فريسة للنسيان وقد

كان لهم دوي في عالم الادب يفوق بكثير ما اتيح لي ان احرزه ، وفي حداثتي كان يبدو مؤكداً ان (جورج مريدث) و (توماس هاردي) لن يموتا أدبياً ، ولكنهما لم يعودا يعنيان كثيراً عند شباب اليوم ، ولا شك أنهما سيجدان ناقداً من وقت لآخر يبحث عن موضوع مقالة يكتبها عنهما ، مما قد يدفع بعض القراء هنا أو هناك الى طلب بعض مؤلفاتهما من المكتبة ، ولكنني أعتقد انه مامن واحد منهما كتب ماسينال حظاً من القراءة مثل (رحلات جليفر) أو (ترسترام شاندي) أو (توم جونز) • وقد أبدو في الصفحات القادمة جازماً في طريقة التعبير عن آرائي ، وما ذلك الا لانني أجد من الصعب ان أكمل كل عبارة بكلمة (أظن) ، أو (في رأيي) •• وكل ماسأقوله هو رأيي الخاص ، وللقاريء ان يأخذ به أو يطرحه • واذا كان يمتلك من الجلد ما يسعفه على قراءة الفصول التالية فانه سيرى انني متأكد من أمر واحد فقط ، هو ان الامور التي يمكن أن يتأكد منها الانسان قليلة جداً •

***

— ٦ —

عندما بدأت الكتابة ، أقدمت عليها كما لو كانت أمراً طبيعياً لامثيل له على وجه الارض ، لقد أقبلت عليها كما تقبل البطة على الماء ، ولم تنقطع قط دهشتي من انني أصبحت كاتباً ، وليس يبدو لي أي سبب لكوني أصبحت كاتباً سوى الميل الذي لايقاوم ، ولست أرى لماذا تملكني مثل هذا الميل ، فأسرتي منذ أكثر من مئة سنة مارست القانون ، واستناداً الى (معجم السيرة القومية) فقد كان جدي أحد اثنين أسسا (الجمعية الحقوقية المؤتلفة) وفي فهرس مكتبة المتحف البريطاني قائمة طويلة بمؤلفاته القضائية ، ولقد كتب كتابا واحداً فقد لاشأن له بالحقوق ، وهو مجموعة مقالات كتبها أصلا للمجلات الجافة في تلك الأيام ونشرها بغير توقيع استجابة لدواعي اللياقة. وقد أتيح لي مرة أن أتناول هذا الكتاب وكان أنيقاً مجلدا بجلد العجل ، ولكنني لم أقرأه ولم أستطع الحصول على نسخة منه بعد ذلك ، وكم كنت أود لو استطعت ذلك اذاً لعرفت أي نوع من الرجال كان . لقد عاش ردحاً من الزمن في (تشانسري لين) لانه أصبح أمين سر للجمعية التي أسسها ، وحين اعتزل الخدمة الى بيت في (كنسنغتون جور) مشرف على (البارك)، تلقى هدية مؤلفة من طبق ، وعدة شاي وقهوة ، وآنية لزينة المائدة ، جميعها من الفضة المزخرفة ذات الجرم الثقيل ، حتى لقد غدت عبئاً على أسلافه من بعد ...

وقد أخبرني محام قديم كنت أعرفه في طفولتي أنه دعي مرة الى العشاء مع جدي باعتباره كاتباً مصنفاً .. وفي تلك الدعوة اقتطع جدي لنفسه قطعة من اللحم ثم ناوله خادم طبقاً من البطاطا المشوية بقشرها ، وما أقل الأشياء التي تفوق البطاطا المشوية في جودتها للأكل اذ تضاف اليها كمية من الملح

والبهار والزبدة ، ولكن جدي لم يكن في الظاهر من أصحاب هذا الرأي فقد نهض من مقعده في صدر الطاولة وتناول حبات البطاطا من الطبق واحدة واحدة وأخذ يرمي بها الصور المعلقة على الجدران ، وبدون أن ينطق بكلمة عاد الى جلسته واستأنف طعامه ، وقد سألت محدثي عن أثر هذا العمل في المدعوين فقال انهم جميعاً لم يأبهوا له . وكذلك أخبرني ان جدي كـان أقبح قزم رآه بين الرجال . وقد ذهبت مرة الى (الجمعية الحقوقية) فـي (تشانسري لين) لأتحقق من تهمة القبح هذه ومداها لان صورته كـانت موجودة هناك ، واذا كان ماقاله المحامي القديم صحيحاً فان المصور لا بد قد تملق جدي تملقاً شديداً ، حيث جعل له عينين قاتمتين جميلتين جـداً تحت حاجبين أسودين ، فيهما تعريجة ساخرة خفيفة .. كما جعل له فكاً قوياً وأنفاً مستقيما وشفتين حمراوين بارزتين وكان شعره الاسود منبسطاً مع تجعد خفيف لا يقل أناقة عن شعر الآنسة (أنيتا لوسي) وكان في اللوحة يمسك بريشة وبجانبه رزمة من الكتب – التي هي كتبه بلا شك . وبصرف النظر عن معطفه الاسود فانه لم يبد محترماً بالشكل الذي كان ينبغي أن أتوقعه فيه ، بل لعله كان بائساً نوعاً ما .. ومنذ سنوات خلت ، أثناء ماكنت أتلف أوراق أحد أبنائه ، وهو عم لي ميت ، عثرت على المفكرة التي كتبها حين كان شاباً في مطلع القرن التاسع عشر وقام بما كانوا يسمونه عـلى ما أعتقد (الجولة الصغيرة) في فرنسا والمانيا وسويسرا واتذكر انه حـين وصف مسقط المياه في (الراين) عند (شافهاوزن) – وهو مشهد غير مؤثر كثيراً – شكر الإله العظيم لانه بخلقه (هذا الشلال المدهش) أعطى (عباده البائسين فرصة لادراك ضآلة شأنهم إزاء ما أبدعه من عظمة هائلة) .

مات أبواي في حداثتي وكنت في الثامنة حين توفيت أمي وفي العاشرة حين توفي أبي ولذلك لا أعرف عنهما الا قليلا مما سمعته ، وقد غادر أبي موطنه الى باريس وعمل وكيلا حقوقياً للسفارة البريطانية هناك ولست أدري ما الذي دفعه الى ذلك ولعله كان مدفوعاً بنفس ذلك التشوف للمجهول الذي استعبد ابنه من بعده • وكان يستعمل « ملحقاً » في مواجهة السفارة تماماً، في (الفوبورج سان اونوريه) ولكن سكناه كانت فيما سُمِّي آنذاك بشارع (آنتين) وهو شارع عريض يتصل (بالروند بوينت) ويحف بـه شجر الكستناء ، وكان أبي رحالة عظيما بمقياس تلك الايام،فقد زار تركيا واليونان وآسيا الصغرى وتجول في مراكش حتى (فاس) التي كانت قليلة الرواد في ذلك الحين • وكان يقتني مكتبه قيمة من كتب الرحلات • وكانت داره في شارع (آنتين) تغص بالاشياء التي جمعها أثناء أسفاره : تماثيل مـن (تناجرا) ، وخزف من (رودس) ، وخناجر من تركيا لها أغماد من الفضة بالغة الزينة • وقد تزوج أمي في الاربعين من عمره وهي التي تصغره بأكثر من عشرين عاماً ، وكانت امرأة جميلة جداً على حين كان هو بالغ القبح ، وقد علمت أنهما كان يشتهران في باريس بلقب (الجمال والوحش) ، وكان أبوها يعمل في الجيش وعندما مات في الهند استقرت زوجته (جدتي) في فرنسا بعد أن ضمنت ثروة معتبرة واعتمدت على موردها التقاعدي ، واظنها كانت امرأة ذات شخصية ، بل ذات موهبة ، لانها كتبت روايات بالفرنسية (للشابات) ، وألفت ألحاناً لاغاني الصالونات ، ويحلو لي أن اعتقد انرواياتها كانت تقرأ وأغانيها كانت تغنى من قبل بطلات (أوكتاف فوييه) ذوات الحسب الرفيع ، ولدي صورة صغيرة لها : امرأة متوسطة العمر في ثوب

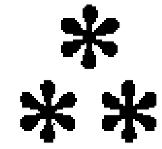
مخروطي الشكل ذات عينين لطيفتين ونظرة تدل على عزم يُخفي وراءه مزاجاً طيباً • أما والدتي فقد كانت ضئيلة الحجم بعينين بنيتين كبيرتين وشعر ذهبي يغلب عليه الاحمرار ، وملامح بديعة ، وبشرة ناعمة ، وكانت مثار اعجاب شديد ، ومن بين صديقاتها (الليدي أنكلزي) وهي امرأة أمريكية مـاتت عن عمر طويل منذ مدة غير بعيدة وأخبرتني انها قالت مرة لامي : (أنت جميلة جداً ومحبوك كثيرون ، فلماذا تخلصين لذلك الرجل القبيح الذي تزوجت منه ؟) فأجابت أمي : (انه لا يجرح مشاعري أبداً) •

والرسالة الوحيدة التي عثرت عليها بخط أمي هي تلك التي صادفتهـا حين كنت أقلب أوراق عمي بعد وفاته ، وكان عمي قساً ، وقد طلبت اليه أن يكون أباً روحياً لأحد أبنائها وعبرت ببساطة وتقوى عن أملها في أن تؤدي هذه الصلة المقدسة بين العم والابن ، الى التأثير في المولود الصغير ، فينمو صالحاً متقياً ربه • ثم انها كانت قارئة روايات نهمة ، وفي غرفة البليارد في شقة شارع (آنتين) كانت هناك حقيبتا كتب ضخمتان مملوءتان بمطبوعات « توشنتز » ••• ، وكانت أمي تعاني من السل الرئوي وانني لاتذكر قافلة الحمير التي كانت تقف في بابنا لتمدها بلبن الحمير الذي ساد الاعتقاد في ذلك الوقت أنه يصلح لمجابهة هذا المرض • وقد اعتدنا أن نأخذ في الصيف منزلا في (دوفيل) التي لم تكن حينئذ مطروقة بل قرية لصيد الاسمـاك قابعة تحت بلدة (ترفيل) الاخاذة •• وفي أخريات أيام أمي أخذنا نقضي الشتاء في (بو) •

وذات يوم بينما كانت طريحة الفراش بتأثير النزيف ، على ما أظن ، ولادراكها بأنها لن تعيش طويلا بعد ، فقد خطر لها أن أولادها لن يعرفوا في المستقبل كيف بدت في ساعات احتضارها ، فاستدعت وصيفتها وارتدت ملاءة من الساتـان الابيض وذهبت الى المصور •• لقد مـاتت في الثامنة والثلاثين أثناء الوضع ، بعد أن أنجبت ستة أولاد ، وكان أطباء تلك الفترة يعتقدون أن انجاب الاطفال مفيد للنسوة اللاتي يعانين من السل • وبعد

وفاتها أصبحت خادمتها مربية لي ، وكنت في ذلك الحين في رعاية مربيات فرنسيات واذهب الى مدارس فرنسية ولابد أن معرفتي بالانكليزيــة كانت ضئيلة حينذاك ، وقد قيل لي من بعد ، انني رأيت مرة من نافذة القطار حصاناً فصحت : Regardez, Maman, Voilà un orse [1] .

ويخيل الي أن أبي كان ذا عقلية رومانتيـّة ، وحلا له أن يبتني داراً يقضي فيها أيام الصيف ، فاشترى قطعة من الارض في قمة جبل (سورين) وكان منظر السهل من هناك رائعاً وعلى مد البصر كانت تبدو باريس ، ومن أعلى جبل تنحدر طريق الى النهر الذي تقوم على ضفته قرية صغيرة . وكان البيت أشبه بدارةٍ على البوسفور ، وقد أحيط الطبق الاعلى بشرفات ضخمة . واعتدت أن أذهب مع أبي كل أحد على قارب عبر السين لنتفقد سير العمل في البناء ، وحين رفع السقف بدأ أبي تجهيز البيت بشراء زوج من المواقد الحديدية القديمة ، وأوصى على كمية ضخمة من الزجاج حفر عليها علامة ضد (العين الشريرة) تعلمها من مراكش ويرى القارىء صورتها على غــلاف الكتاب .. لقد كان البيت أبيض ، والستائر حمراء ، وسويت أرض الحديقة، وجهزت حجراته بالاثاث .. وبعد ذلك مات أبي ..



---

(۱) كلمة ôrce هي horse الانكليزية منطوقاً بها على الطريقة الفرنسية (المعرب)

— ٨ —

نقلت من المدرسة الفرنسية وتابعت دروسي كل يوم في جناح القس الانكليزي الملحق بالسفارة البريطانية .. كان منهجه في تعليمي يقوم على تعويدي على القراءة الجهرية لاخبار الشرطة والمحاكم في جريدة (الستاندرد) ومازلت أذكر الرعب الذي انتابني حين قرأت التفصيلات المريعة لجريمة في القطار بين (باريس) و (كاليه) ، ولابد انني كنت في التاسعة اذ ذاك . وبقيت غير متأكد من لفظ الكلمات الانكليزية مدة طويلة وان أنس لا أنس الضحك الصاخب الذي صبغ وجهي بحمرة الخجل حين قرأت في المدرسة التحضيرية عبارة « Unstable as water » فنطقت كلمة (آنستابِل Unstable على وزن كلمة (دَنستَبِل Dunstable) .

لم أتلق أكثر من درسين في اللغة الانكليزية طول حياتي ، فمع انني كنت أكتب المقالات في المدرسة الا انني لم أتلق أي توجيه يتعلق بكيفية ربط الجمل ، والدرسان اللذان تلقيتهما أعطيا لي في فترة متأخرة جداً من حياتي حتى لاخشى الآن انني غير قادر على الافادة منهما كما ينبغي ، اما الاول فتم منذ سنوات قليلة اذ كنت أقضي بضعة أسابيع في لندن وقد اخترت مؤقتاً سكرتيرة شابة وكانت خجولا ذات حسن وغارقة في قضية حب مع رجل متزوج . وكنت قد وضعت كتاباً اسمه (كعك وَجَعَه Cakes and Ale) ، ووصلتني مسودة الطبع في صباح السبت فطلبت اليها أن تتلطف فتأخذه الى البيت وتصححه خلال عطلة الاسبوع ، وقد قصدت أن تسجل الاغلاط الاملائية التي ربما أخطأها عامل المطبعة وان تشير الى الاغلاط التي قد تنجم عن خطي الذي لم يكن دوماً من السهل تمييز رموزه. ولكنها كانت شابة حية الضمير وفهمت كلامي فهماً حرفياً لم أعنه ، وحين

أتت بالكتاب في صبيحة الاثنين كان مصحوباً بصحائف أربع طويلة مملوءة بالتصويبات • وينبغي أن أعترف انني تضايقت للوهلة الاولى ثم خطر لي ان اضاعة فرصة الاستفادة من هذا الجهد ضرب من الحمق ، وهكذا جلست لاتفحص ماكتبت • واستطيع أن افترض ان الشابة قد تلقت دورة في مدرسة للسكرتيرين ولذلك أخذت روايتي بنفس الطريقة المنهجية التي كان يسلكها أساتذتها حين يراجعون مقالاتها • والملاحظات التي ملأت الصحائف الاربع كانت حادة قاسية ، ولم استطع الا ان أتخيل ان استاذ الانكليزية فيمدرسة السكرتيرين لم يجزيء الامور بل اتخذ لنفسه خطاً واضحاً بغير شك ولم يكن ليسمح بوجود رأيين حول أي موضوع وكانت تلميذته الكفء تضيق ذرعاً بحرف الجر في آخر الجملة ووسمت إحدى العبارات العامية بعلامة التعجب دلالة استنكارها •• ووقر في نفسها أنه لايجوز تكرار الكلمة الواحدة في الصحيفة ، وأبدلت كل كلمة مكررة بمرادف من عندها ، واذ تجدني أمتع نفسي في رخاء جملة من عشرة أسطر كانت تكتب : (أوضح ذلك • ويحسن بك أن تقسمها الى جملتين أو أكثر) • وحين تجدني قد مكنت نفسي من استراحة مرضية بواسطة الفاصلة المنقوطة كانت تقترح بدلا منها ، وحين أخاطر باستعمال النقطتين كانت تعلق بجفاء (باطلة الاستعمال) •• ولكن أخشن ضربة من ضرباتها هي تعليقها على ما اعتقدت أنه نكتة لطيفة : (هل أنت واثق مما تورده من حقائق ؟) •• ومن مجمل ذلك كله انتهي الى القول بأن أستاذها ماكان ليعطيني علامة عالية جداً •

والدرس الثاني الذي تلقيته كان على يد استاذ جامعي ذكي جذاب اتفق أنه كان يقيم معي حين كنت أصحح مسودة كتاب آخر ، وكان من اللطف بحيث عرض علي أن يقرأه ترددت لأنني كنت أعرف أنه يحكم على الاشياء من خلال مستوى للابداع يصعب عليّ بلوغه ، ومع انني كنت أشعر انه يمتلك معرفة عميقة بالادب الأليزابيثي الا انني تشككت في قدرته على تمييز الانتاج الادبي الحديث بسبب اعجابه الشديد بـ (أستر ووترز) ،

الذي لا يعطيه مثل هذا التقدير العظيم من اطلع اطلاعاً كافياً على الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر ، ولكنني كنت حريصاً على اخراج كتابي في أجود حالة ممكنة ، وأملت أن أستفيد من ملاحظاته النقدية التي كانت، في الحق ، لينة واستمتعت بها بوجه خاص لانني قدرت انها الطريقة التي يعامل بها وظائف الانشاء المدرسية ، وكان له ، على ما أعتقد ، موهبة لغوية طبيعية ، وكان عمله ينصب على تنمية هذه الموهبة ، وبدا لي وكأن ذوقه لا يخطيء ، ودهشت كثيراً لاصراره على قوة الكلمات الذاتية ، وتفضيله الكلمة القوية على الكلمة الموسيقية .

فمثلا ، كنت قد كتبت أن هناك تمثالا سيوضع في ميدان معين ،فاقترح ان أكتب : ان التمثال سينهض .. ولم آخذ برأيه لأن سمعي يتأذى من سجع أوائل الكلمات في العبارة[1] ، ولاحظت أيضا ان لديه شعورا بأنه لاينبغي استعمال الكلمات من أجل موازنة الجملة وحسب ، ولكن ، من أجل موازنة الفكرة ، وهذا حق لان الفكرة قد يضيع تأثيرها اذا وردت بطريقة فجة ، ولكن المسألة مسألة حسن تصرف لان الامر قد يؤدي الى اللفظية ، وهنا قد تكون معرفة طبيعة الحوار في المسرح مفيدة ، ورب ممثل يقول لمؤلف:- (أما كان بمقدورك أن تزيد كلمة أخرى أو كلمتين على هذا النص ؟ أخشى ان افقد كل طابعي اذا وقفت عند هذا الحد) .

وحين كنت أصغي الى ملاحظات أستاذي لم أجد مندوحة عن التفكير في ان كتابتي كان يمكن ان تغدو أفضل بكثير مما هي عليه لو أن الظروف أتاحت لي ان استفيد قبلا من هذه النصيحة اللطيفة التي تدل على عقل سليم وأفق واسع .

---

(١) وهذا يدعي بالانكليزية Alliteration ، وهو من المحسنات البديعية ، والعبارة المقصودة هنا هي : The statue will stand. (المعرب) .

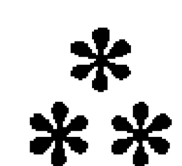
وهكذا كان عليّ أن أقوم بتعليم نفسي •• لقد تصفحت القصص التي كتبتها في سن الحداثة لارى أية ملكة طبيعية كانت لدي ، وأي رأسمال أصلي ، من قبل أن أطورهما بالاكتساب الفكري ، فوجدت في أسلوبها سخافة قد يكون لها عذر في حداثة سني ، وكذلك حدة ناجمة عن نقص في الطبيعة ، ولكنني الآن أتحدث عن الطريقة التي عبرت بها عن نفسي فقط •• ويبدو لي انني وهبت قدرة طبيعية على الوضوح ، وحذقاً في كتابة الحوار السهل •

وحين قرأ (هنري آرثر جونز) الكاتب المسرحي المشهور حينذاك روايتي الاولى ، أخبر أحد أصدقائه انني سأصير مع الأيام من أفضل الكتاب المسرحيين الناجحين • وأحسب انه رأى في كتابتي قصداً وأسلوباً مؤثراً في تقديم المشهد مما يتفق وطبيعة المسرح • وكانت لغتي عادية ، ومفرداتي محدودة ، وعباراتي مبتذلة ، ونحوي مهزوزاً • ولكن الكتابة كانت عندي غريزة طبيعية كالتنفس ولم أكن لأتوقف لاعرف قيمة ما اكتبه • ولم يخطر لي ، الا منذ سنوات قليلة ، ان الكتابة فن لطيف يكتسب بعرق الجبين • وما قادني الى الاعتراف باهمية الجهد في الكتابة الا الصعوبة التي جابهتها عند محاولة تسجيل أفكاري على الورق •• كنت أكتب الحوار بطلاقة ، ولكن سرعان ما أجد نفسي غارقاً في مختلف صنوف الحيرة حين أهم بكتابة صحيفة من الوصف ، ولربما أضعت ساعتين على جملتين أو ثلاث لم أستطع ان أنسقها تنسيقاً مرضياً • وقد عقدت العزم على ان أعلم نفسي كيف اكتب ، ولسوء الحظ لم أجد من يساعدني ووقعت في كثير من الخطأ ، ولو قدر لي ان اجد مرشداً كالاستاذ الذي تحدثت عنه قبل قليل ، لوفرت وقتا

طويلا ، فقد كان انسان كهذا خليقاً بأن يخبرني ان المواهب التي امتاز بها تتركز في اتجاه واحد ، وينبغي أن تتمّى في ذلك الاتجاه ، وكان من العقم أن أنهمك في شأن لست مؤهلا للخوض فيه ، وفي تلك الايام السالفة أعجب الناس بالنثر المنمق وتوخى الكتاب غنى الديباجة بالعبارة المجوهرة والجمل المحشوة بالصفات المجتلبة ، وكانت الديباجة المثلى هي المثقلة بالتطريزالذهبي حتى لتنهض وحدها ، وقد أقبل الاذكياء على قراءة كتابات (ولتر باتر) بحماسة ، ولكن ذوقي اوحى لي ان هذه الكتابات وامثالها تعاني من فقر الدم ، ولمحت خلف تلك الجمل الانيقة المتكلفة شخصية مرهقة شاحبة • وكنت شاباً قوياً نشيطاً تواقاً الى الهواء النقي والاحداث والعنف ، وشق علي أن أتنفس في ذلك الجو المضمّخ الميت وان اجلس في تلك الغرف الحبيسة الاصوات ، حيث يعد رفع الصوت بما يتجاوز الهمس خرقاً لمبادىء اللياقة ، وما كنت لاستمع لنداء ذوقي ، وأقنعت نفسي بان هذا الجو هو قمة الثقافة وأشحت هزءاً بالعالم الخارجي حيث يصرخ الناس ويغلظون الايمان ويتفكهون ويزنون ويعاقرون الخمر • وقرأت يومذاك (المقاصد Intentions) و (صورة دوريان جراي The Picture of Dorian Gray) وقد أخذت بما رايته من تلوين وابداع في الكلمات الرائعة التي تعج بها صفحات (سالومي) • واذ صدمت بفقري في المفردات سارعت الى المتحف البريطاني مع أوراقي وقلمي وأخذت أسجل أسماء الجواهر العجيبة ، والاصباغ البيزنطية التي كانت تستعمل في الطلاء ، والمفردات الدالة على الانسجة والشعور الحسي بها ، وألفت جملا متكلفة تعمدت هذه المفردات فيها ، ولحسن حظي لم تتح لي فرصة استخدامها ، وما زالت حتى اليوم مطروحة في دفتر قديم ، وفي متناول أي انسان تزين له نفسه أن يكتب السخافات •• في زمني كان معظم الناس يعتقدون أن (النسخة الرسمية للتوراة) أعظم مؤلف نثري في اللغة الانكليزية ، وقد قرأتها جاهدا ، ولاسيما مزامير داوود واخترت منها نخبة من العبارات التي خلبت لبي ، وسجلت

قـوائم من المفردات الجميلـة أو الغريبـة على أمل أن أستعملهـا في المستقبل ، وكذلك درست النَزْع المقدس (Holy Dying) لجرمي تايلور (Geremy Taylor) ونسخت مقاطع منه ، ثم حاولت ان اعيد كتابتها من الذاكرة رغبة في تمثيل اسلوبه •

وكانت الثمرة الأولى لهذا الجهد كتاباً صغيراً عن الأندلس بعنوان (أرض العذراء المباركة) • وقد أتيح لي أن أقرأ بعض مقاطعه فيما بعد وإني لأعرف الأندلس الآن معرفة تفضل كثيراً معرفتي بها من قبل ، وقد غيرت رأيي في كثير مما كتبته ، على انني هممت بمراجعة هذا الكتاب وتنقيحه لمّا رأيت بعض الاقبال عليه في أمريكا ، وسرعان ما وجدت أن الأمر مستحيل لأن المؤلف كان إنساناً آخر نسيته تماماً •• وقد حيرني هـذا الكتاب وشتت أفكاري ، ومايهمني منه الآن هو لغته التي اعتبرها تمريناً في الاسلوب •• وانه لكتاب مرهق ، بلاغي ، دقيق الصنعة ، لا قضية له ، ولا شخصية •• وإنما تفوح منه روائح نباتات المنازل الدافئة ، وعشاءات الأحد ، كالهواء في مستنبت مسقوف ملحق بغرفة الطعام من دار كبيرة في (بيزووتر) •• في الكتاب نعوت غنائية جمة ، ومفرداته عاطفية • انه أشبه بقماش للستائر من تصميم (بيرنجولز) وانتاج (موريس) لا بنسيج ايطالي مثقل بزخرفة من الذهب •



لست أدري ما الـذي جعلني أرتـد الى كتاب (العصر الأوغسطي Augustan Period) . أهو حدس لاشعوري بأن هـذا النوع من الكتابة يتناقض مع ميلي أم انعطاف منهجي طبيعي في التفكير ؟ لقد أغواني نثر (سويفت) ووقر في نفسي ان طريقته في الكتابة هي الطريقة المثلى وشرعت أدرسـه على نحو مـادرست (جرمي تايلور) واخترت (حكايـة طبق The tale of a tub) ، ويقال ان العميد حين أعاد قراءة هذا الكتاب أخريات أيامه صاح : (أي عبقري كنت !) . وفي رأيي أن عبقريته تتجلى في مؤلفات أخرى غير هذا لأنه موعظة مملة والتهكم فيه ظاهر، ولكن أسلوبه معجب ، ويخيل الي أن الانكليزية لايمكن أن تكتب بصورة أجمل ، فهو خال من الجمل المنمقة والتراكيب المصنعة والصور المجتلبة ، انه نثر" متحضّر طبيعي فيه حدة ومهارة وليس فيه أية محاولة للادلال بقوة المفردات، وكأن (سويفت) كان يتناول أول كلمة تخطر له ، على أنها كانت دوماً الكلمة الصحيحةموضوعة في مكانها الملائم وذلك بفضل ذهنه المنطقي الحاد ، وأما عبارته القوية المتزنة فهي بنت ذوقه البديع ، وحين اتبعت طريقتي المعروفة في نقل المقاطع ، ثم كتابتها من الذاكرة ، وجدتني عاجزاً عن تغيير أية كلمة من كلماته او التلاعب في ترتيبها ، فكأن طريقته في التعبير هي الطريقة الوحيدة الممكنة وليس من سبيل الى الطعن فيها .

ولكن الكمال فيه ناحية ضعف خطيرة ، وهي قابليته لأن يكون بليداً ، إن نثر (سويفت) شبيه بقناة فرنسية محاطة بالحور تنساب في أرض أنيقة متماوجة ، وسحرها الهادىء يملأ النفس رضى ، ولكنه لا يثير الانفعال ، ولا يحفز الخيال ، وانك لتسير على ضفتها ، فما تلبث أن تشعر بشيء من

الضجر • ومهما أعجبت باشراق عبارة (سويفت) وأسلوبه المباشر واعتماده على الطبع ، لا على التكلف ، فلا بد أن يشرد انتباهك عنه بعد فترة ، أللهم الا اذا كان لك اهتمام خاص بالموضوع الذي تقرؤه •

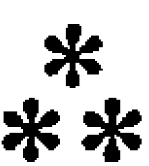
ولو قدر لي أن امتلك زمام الوقت ثانية لتناولت نثر (درايدن) بالدراسة الدقيقة مثلما فعلت بنثر (سويفت) ، لكنني لم أطلع على نثر (درايدن) الا بعد أن فقدت القدرة على مثل هذا العمل ، ان نثره سائغ وليس له كمال (سويفت) ولا أناقة (أديسون) السهلة ، ولكن له من بهجة الربيع وسهولة المحادثة والبداهة الطروب ما يجعله ساحراً • كان (درايدن) شاعراً ، ولست أشير بذلك الى ما ينسب اليه عادة من موهبة غنائية ، بل أحس أن الشاعرية هي الشيء الذي يغني في نثره المتلألىء ، ولم يكتب النثر قبله بمثل هذه الروعة ، ونادراً ماتم ذلك بعده •• لقد أينع (درايدن) في لحظة هانئة ، وكانت تسري في عظامه الجمَل ُ الجهيرة ، والصنعة الهائلة ، من لغة العصر اليعقوبي ولكنه بفضل النعومة الراقية المرهفة التي ورثها عن الفرنسيين ، أحال اللغة الى أداة لا تلائم التعبير عن الموضوعات الجدية فحسب ، بل تستطيع أن تسجل الخواطر الخفيفة العابرة ، وبذلك كان رائد فن الأسلوب الموشّى (rococo) ، واذا ذكرنا (سويفت) بقناة فرنسية فان (درايدن) أشبه بنهر انكليزي يتلوى في طريقه حول التلال وبين القرى الوادعة وعبر المدن المنهمكة في العمل ، وهو مغرق في الصمت عندما ينبسط مجراه ، ومسرع في تدفقه حين توعر طريقه ، انه حي غني تلعب به الرياح وتشتم من أنسامه عبير الهواء الطلق المنعش الذي تمتاز به إنكلترا •

وأثمر الجهد الذي بذلته ، وبدأت كتابتي تتحسن ، ولكنني لم أبدع كتابة جيدة بل كتابة جامدة هيابة •• وحاولت ان اسبغ على جملتي طابعاً ما، غير أنه لم يبدُ واضح السمة ، وبذلت عناية قصوى في تنسيق كلماتي ، ولم أدرك أن النهج الذي كان طبيعياً في مطلع القرن الثامن عشر أصبح مستهجناً جداً في أيامنا • وحال تقليدي لطريقة (سويفت) دون أن أحرز

القدرة على التأثير عن طريق الدقة المتناهية في استخدام المفردات ، وهي الصفة التي أُعجبت بها كثيراً عنده • ثم عمدتُ الى كتابة المسرحيات ، ولم يعد يشغلني شيء غير الاهتمام بالحوار ، فلما انقضت على ذلك خمس سنوات ، وجدتني أشرع ثانية في تأليف قصة جديدة ، الا أنني في هذه القصة فقدت الطموح في أن أُصبح أسلوبياً ، وعقدت العزم على أن أكتب بطريقة عارية عن الزخارف بعيدة عن كل صنعة ، وصار همي الأول تدوين الحقائق، وكان لدي منها وفرة وافرة لاتسمح لي باهدار كلمة سدى ، ووضعت نصب عيني هدفاً يستحيل تحقيقه ، وهو الامتناع عن استعمال الصفات امتناعاً تاماً وقرّ في ذهني أنّ استخدام المصطلح المناسب يغني عن النعت ، ثم أيقنت أن (كتابة القصة) ستبدو مثل برقية مطولة مسهبة حذفت منها ، رغبة في التوفير ، كل كلمة لا يؤثر حذفها في وضوح المعنى ، ولم يقدر لي أن أقرأ الكتاب منذ أن صححت المسودات ولست أدري الى أي مدى استطعت أن أحقق ما رميت اليه ••• غير أنني أحسب أنه كتب بطريقة أقرب الى الطبع من كل ماكتبته قبلا وأنا أثق انه يعج بالهنات وبالاغلاط النحوية الكثيرة •

ومنذ ذلك الحين ألفت كتباً أخرى كثيرة ومضيت في محاولتي لتحسين كتابتي غير باخل بأي جهد ، بالرغم من أنني انقطعت عن الدراسة المنهجية للأئمة الاوائل مكرهاً بسبب ضغط الظروف • واكتشفت نقائصي ورأيت أن التدبير الوحيد المعقول لمواجهتها هو أن أوجه جهدي لتنمية النواحي التي أستطيع أن أبدع فيها ضمن هذه النقائص • وأدركتُ أنني خلو من الموهبة الغنائية ، وكانت مفرداتي محدودة ، ولم تسعفني الجهود التي بذلتها من أجل توسيع نطاقها • ولم أرزق الا ذخيرة قليلة من المجاز ونادراً ما تأتّى لي التشبيه الاصيل المبتكر الجذاب • وأحسست بالعجز عن السبحات الخيالية والتعليقات الشعرية ، على أنني كنت أتذوق هذه الصفات في كلام غيري من الادباء كما كنت أعجب بالصور البعيدة المنال ، وباللغة الموجبة التي تختال بها الافكار ، ولكن ملكتي لم تهبني يوماً ما مثل هذه المحسنات ، ولم أطق

صبراً على محاولة اجتلاب ما لا يتأتى لي بسهولة ••• ومن جهة أخرى كانت لي قدرة على الملاحظة الثاقبة ، وخيل الي أنني أرى ما لا يراه كثير من الناس ، وكنت أستطيع أن أصب ما رأيته في لفظ دقيق واضح ، ورزقني الله منطقاً سليماً ومقدرة على التذوق الحي للنغم ، إن لم أقل احساساً عميقاً بغنى الكلمات وتفردها ، وقد عرفت أنني لن أكتب ما يرضي رغائبي ، واقتنعت بأنني أستطيع بعد لأي أن أتوصل الى أسلم مستوى من الكتابة تسمح به نقائصي الطبيعية ، وانتهيت بعد التفكير الى أنني ينبغي أن أهدف الى توفير الوضوح والبساطة والجرس ، وقد رتبتها عمداً على هذا النحو وفق أهميتها عندي •



لم أطق الصبر يوماً على أولئك الكتاب الذين يطلبون من القارىء أن يبذل جهداً ليفهم معانيهم • وما عليك إلا أن تتجه الى كبار الفلاسفة لترى أنه من الممكن التعبير بوضوح عن أعمق التأملات ، وقد تجد فهم أفكار (هيوم) صعباً واذا لم يكن لديك تمرس بالفلسفة فان مقاصده ستفوتك بغير شك ، ولكن أي انسان مهما تكن ثقافته لا يعجز عن فهم معنى كل جملة على حدة • وقليل من الناس مَنْ استطاع أن يكتب برشاقة أكثر من (بيركلي) •

والغموض الذي نجده عند الكتّاب نوعان :

أولهما يرجع الى الاهمال والآخر يكون عن عَمْد • وفي أغلب الأحوال يكتب الناس بغموض لأنهم لم يكلفوا أنفسهم قط مشقة تعلّم الكتابة بوضوح ، وهذا النوع نجده غالباً عند الفلاسفة المحدثين ، وعند رجال العلم وحتى عند نقاد الأدب • وهو أمر غريب حقاً فان المرء ليخيل اليه أن الكتّاب الذين قضوا حياتهم في دراسة أعظم الآثار الأدبية ، ينبغي أن يكون لديهم من الاحساس بجمال اللغة مايؤهلهم لأن يكتبوا كتابة جميلة أو على الأقل كتابة واضحة • ومع ذلك فلا بد أن نجد في مؤلفاتهم بين الفينة والفينة جُمَلاً نضطر لقراءتها مرتين لنفهم معناها ، وغالباً ما نضطر الى التخمين لأن الكتّاب ، فيما يبدو ، لم يوفقوا في الافصاح عن مقاصدهم •

والسبب الآخر للغموض هو كون الكاتب نفسه غير متأكد من معناه وفي ذهنه انطباع لم يرسخ رسوخاً كافياً إما بسبب نقص في مقدرته الذهنية أو بسبب الكسل • ومن الطبيعي تماماً أن لايجد تعبيراً دقيقاً لفكرة مشوشة،

ويرجع هذا بالدرجة الاولى الى أن كثيراً من الكتاب يفكرون في أثناء عملية الكتابة لا قبلها ، والقلم عندهم هو الذي يبدع الفكرة ، وعيب هذه الطريقة ـــ وهو في الحق خطر ينبغي أن يظل المؤلف على حذر منه ـــ هو أن هناك نوعاً من السحر في الكلمة المكتوبة • ان الفكرة تتجسد بأن تتخذ لنفسها طبيعة مرئية • وبهذا تحول بين نفسها وبين أن تكون واضحة •

ولكن هذا النوع من الغموض يختلط بسهولة بالنوع الآخر الناتج عن القصد • وبعض الكتّاب الذين لا يفكرون بوضوح يميلون الى أن يفترضوا أن آراءهم فيها أهمية أعظم مما يبدو للوهلة الأولى ويحلو لهؤلاء الكتّاب أن يعتقدوا أنهم أعمق من أن يعبروا عن أفكارهم بدرجة من الوضوح يدركها كل قارىء • ومن الطبيعي أنه لا يخطر لمثل هؤلاء الكتّاب أنّ الخطأ قائم في عقولهم التي لم ترزق ملكة التفكير الدقيق • وهنا يقع سحر الكلمة المكتوبة ، فمن السهل جداً أن تقنع المرء بأنّ العبارة التي لم يفهمها تماماً يمكن أن تعني أشياء أبعد مما استطاع ادراكه • ومن هنا يسهل على نفس الكاتب أن تنزع الى الوقوع في اعادة تسجيل انطباعاتها وهي على حالتها الاصلية من الغموض • والحمقى وحدهم هم الذين يكتشفون معاني مخبأة في مثل هذه الانطباعات •

وهناك صورة أخرى من الغموض المتعمد الذي يتخذ له قناعاً من أرستقراطية اللمح فالكاتب يلفع معانيه بالغموض لكي لاتستطيع العامةالمشاركة فيها • ان روحه لحديقة سرية لا تستطيع النخبة أن تلجها إلا بعد أن تتخطى عدداً من العقبات الخطيرة ولكن هذا النوع من الغموض لا ينتج عن الادعاء فقط ، بل عن قصر النظر ، إذ أن الزمن لا بد أن يلعب لعبته ، فاذا كان المعنى هزيلا مسخ الى لفظ غير ذي معنى لا يفكر أحد بأن يُقْبل على قراءته • وهذا هو المصير الذي حل بالكتابات المتكلفة لأولئك الكتّاب الفرنسيين الذين أضلتهم طريقة (غيوم أبولينير) ، وفي بعض الاحيان يلقي الزمن ضوءاً كاشفاً على

ماظهر يوماً ما أنه عميق ، وبذلك يكشف عن حقيقة تلك الالتواءات اللغوية التي أخفت أفكاراً مبتذلة جداً • فقليل من قصائد (مالارميه) الآن غـير واضح ، ولايعجز الانسان أن يلاحظ أن تفكير هذا الشاعر كان يفتقر الى الأصالة افتقاراً رئيسياً • وكانت بعض عباراته جميلة أما مادة شعره فكانت تفاهة الشعر في عصره •

*
**

والبساطة ليس من القيمة الفنيـــة ما للوضوح . لقد تَعمدتُ الكتابة ببساطة لأنني لا أملك موهبة الغنى في الكتابة . وانني لأعجب بالغنى عند الآخرين الى حد ما ، مع أنني أجد صعوبة في هضم هذه الوفرة في الكم . وأستطيع أن أقرأ صفحة (لرسكن) بمتعة ، ولكنني لا أقرأ عشرين صفحة الا بتعب شديد . ان العبارة الموقعة والصفة الفخمة والاسم الغني بالارتباطات الشعرية ، والجمل التوابع التي تعطي الجملة الرئيسية وزناً وعظمة ، والأبهة التي تشبه هدير الموج يَتْلُو بعضه بعضاً في الخضم الواسع ، كل أولئك لابد أن يكون ناتجاً عن الهام معين بلا ريب ، والكلمات المنضدة على هــذا النحو لها في الأذن وقع الموسيقى والاستجابة لها حسية أكثر مما هي عقلية ، وجمال الجرس يقودنا بسهولة لأن نستنتج انه لامجال للبحث عن المعـاني . ولكن الكلمات لها طغيانها فهي توجد من أجل معانيها ، واذا نحن لم نلق بالا الى المعاني فكأننا لم نلق بالا الى شيء اطلاقاً ، وهو أمر محير ، فهــذا النوع من الكتابة يتطلب موضوعاً يليق به ، ومن المؤكد أن الكتابــة عن الأمور التافهة بأسلوب فخم وضع" للأمور في غير نصابها ولم يكتب أحــد على هذا النحو بانجح مما كتب السير (توماس براون) ولكن ، حتى هو نفسه ، لم ينج من الهوة دائماً . ففي الفصل الأخير من كتابه (هايدروتافيا) نجد الموضوع ، وهــو مصير الانسان ، ملائماً جــداً للغة الفخمــة المنمقة وبذلك انتج هذا الطبيب النرويجي قطعة من النثر ليس ثمة مايفوقها في أدبنا ، ولكنه حين يصف العثور على قارووراته الاثرية بالطريقة المفخمة نفسها ، يصبح تأثير اسلوبه أقل امتاعا في ذوقي الخاص على الاقل . وحين يعمد كاتب محدث الى اخبارنا باسلوبه المتفاصح ما اذا كان يليق بمومس

ان تضاجع شابا مبتذلا ، يحق لنا عند ذاك أن نشعر بالاشمئزاز •

واذا كان الغنى في الكتابة موهبة لاتتاح لكل انسان ، فان البساطة لا يمكن أن تجيء بالفطرة اطلاقاً ، ولكي نبلغ البساطة نحتاج الى نظام قاس ، وعلى قدر معرفتي ، أحسب أن لغتنا هي الوحيدة التي كان ضرورياً فيها اعطاء اسم للقطعة النثريةالتي لاتزيد حجما عن (مزقة ارجوان Purple patch) وما كان ذلك ضرورياً إلا لأنها لغة مميزة ، إن النثر الانكليزي هو ابن الجهد لا البساطة ، إلا أنه لم يكن هكذا دائماً إذ ليس هناك نثر مباشر حي ذو شخصية يستطيع أن يجاري نثر شكسبير • وينبغي أن نذكر أنّ هذا النثر حوار كتب ليكون مادة للحديث ولسنا ندري على أي نحو كان شكسبير يكتب لو أنه ألّف مقدمات لمسرحياته مثلما فعل (كورني) ، وربما أتى نثره في مثل فخامة رسائل الملكة اليزابت • ولكن النثر في الأيام السالفة كنثر (السير توماس مور) لم يكن مثقلا ولا منمقاً ولا خطابياً ، وهو يعبّر عن البيئة الانكليزية • وفي رأيي أن توراة الملك جيمس تركت آثاراً ضارة في النثر الانكليزي • ولست من الغباء بحيث أنكر جمالها العظيم — إنها رائعة ، ولكنها كتاب شرقي وصورها الغريبة ليس لها شأن بنا — هذه المجازات الشديدة الحلاوة وتلك المبالغات غريبة عن عبقريتنا •

وليس لي إلا أنْ أعتقد أنه من بين المساويء التي سببها الانفصال عن روما في حقل حياتنا الروحية كون هذا الكتاب (توراة الملك جيمس) قد أصبح لفترة طويلة جداً يقرأ يومياً بل يُقرأ وحده دون غيره من قبل أبناء شعبنا وصارت ايقاعاته ، ومفرداته القوية وتلك الخدلقة فيه جزءاً لايتجزأ من ذوقنا القومي • وبهذا أصبح الكلام الانكليزي الصادق البسيط مثقلا بالزخارف ، وأخذ الانكليزي العادي يلوى لسانه ليتكلم كانبياء العبرانيين• ولقد كان في طبيعة المزاح الانكليزي مايتفق وهذا الاسلوب المتكلف ، ولعله نقص في الدقة الفكرية عند الانكليز ، أو لعله تحسس لجمال اللفظة في حد

ذاتها ، أو لعله تفرد فطري وجب للتنميق ، لست أدري ولكن الحقيقةالواقعة هي أنّ النثر الانكليزي منذ ذلك الحين ، كان عليه أن يحارب الميل الى الترف الاسلوبي ، ومن حين لآخر ، كانت روح اللغة تؤكد نفسها كما فعلت عند (درايدن) وكتّاب عصر الملكة (آن) ، ولكن ذلك أدى مرة أخرى الى انغمار اللغة في أساليب (جيبون) و (دكتور جونسن) المفخمة وعندما استعاد النثر الانكليزي بساطته على يد (هازلت) و (شلي) في رسائله و (شارلز لامب) في أحسن ماكتب ، عاد ففقد هذه البساطة على يد (دو كوينسي) و (كارليل) و (مردث) و (ولتر باتر) من الواضح أنّ الأسلوب الفخم أشد اختلاباً من الأسلوب السهل • والواقع أن كثيراً من الناس يعتقدون أن الأسلوب الذي لا يلفت النظر ليس أسلوباً ، وهم يعجبون بكتابات (ولتر باتر) ولكنهم يقرؤون مقالة (لماثيو آرنولد) بدون أن يعيروا أي انتباه الى الأناقة والوضوح والاتزان ، هذه الصفات الثلاث التي يكتب بها ما يريد أن يعبر عنه •

والقول ان الاسلوب هو الرجل معروف كل المعرفة وهو واحد من تلك التعريفات السائرة التي تقول أكثر مما يلزم لتعني الشيء الكثير ، وأين الرجل في أسلوب (غوته) ؟ أفي قصائده الوجدانية التي تشبه تغريد الطيور أم في نثره القبيح ؟ وأين (هازلت) في أسلوبه ولكنني أفترض أن الرجل اذا كان ذا عقل مضطرب فانه يكتب بطريقة مضطربة ، واذا كان ذا مزاج متقلب الاهواء يكون نثره خياليا غير متزن • واذا كان ذا فكر نافذ ذكي يتذكر مئات من الاشياء بوحي من الموضوع الذي يبحث فيه ، فانه سيثقل صفحاته بانواع المجاز والتشبيه مالم يتصف بضبط للنفس شديد • وهناك فرق كبير بين تفاصح كتّاب العصر اليعقوبي الذين خدرتهم الثروة الجديدة التي أدخلت مؤخراً الى اللغة الانكليزية وبين بلاغة (جيبون) و (دكتور جونسن) اللذين كانا ضحية نظريات سيئة ، انني أتمتع بقراءة كل كلمة كتبها (دكتور جونسن) لأنه كان يتمتع بذوق جيد وبيان ساحر وذكاء حاد ،

وماكان لأحد أن يكتب خيراً منه لولا أنه حمل نفسه عمداً على الكتابة باسلوب فخم ، وكان دكتور جونسن يعرف الاسلوب الجيد حالما يقع عليه بصره ، وما من ناقد استطاع أن يظهر محاسن نثر (درايدن) بمثل مقدرتـه وقد قال عن (درايدن) إنه فيما يبدو ـ لم يكن لديه من فن سوى التعبير بوضوح عن أفكاره القوية • وقد أنهى إحدى سيره[1] بالكلمات التالية :

كل مَنْ ينشد أسلوباً انكليزياً مألوفاً ولكنه غير خشن ، وأنيقاً ولكنه غير متكلف ينبغي أن يكرّس أيامه ولياليه لمجلدات (اديسون) •

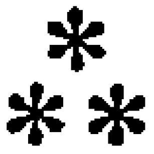
ولكن دكتور جونسن حين أقبل على الكتابة أقبل عليها بهدف آخر مختلف ، وقد فهم الاسلوب الرفيع فهما خاطئاً فظنه الاسلوب المتكلف ، ولم يكن لديه النشأة الجيدة التي تهديه إلى أنّ البساطة والطبع هما أصدق سمات التميز •

وإذاً فان كتابة النثر الجيد مسألة تتعلق بالتهذيب الرفيع • لأنّ النثر ، خلافاً للشعر ، فن متحضر أما الشعر فهو فن خام (Baroque) والفن الخام أَمْيَلَ إلى المأساة والضخامة والغموض وهو يعني بالجوهر ويتطلب العمق ونفاذ الفكرة ، ولا أستطيع إلا أن أشعر أن كتّاب النثر في عهد الأسلوب الخام ، كمؤلفي توراة الملك جيمس (سير توماس برلون وجانفيل) ، كانوا شعراء ضلوا طريقهم • إنّ النثر هو فن الوشي (Rococo) وهو يحتاج الى الذوق أكثر من القوة ، وإلى الزينة أكثر من الالهام وإلى الوفرة أكثر من العظمة • والشكل بمثابة اللجام الذي لا تجري العربة بدونه • وليس من قبيل المصادفة أن يكون أحسن النثر قد كُتِب حين بلغ فن الوشي باناقته واعتداله ذروة إبداعه عنـد بدء نشأته ، لأن الأسلوب الموشى ساء بعد أن أصبح العالم متعباً من الأساليب الفضفاضة وأخذ يصبو الى شيء من الضبط ، فكان فن الوشي تعبيرا طبيعياً

---

(1) اشارة الى كتاب سير الشعراء Lives of the Poets لدكتور جونسن (المعرب)

عند الاشخاص الذين قدروا قيمة الحياة الحضرية • ان المرح وقوة الاحتمال وخشونة المشاعر ، هذه الأمور المستجدة ، قد جعلت القضايا المأساوية (Tragic) الكبرى التي سبق أَنْ شغلت الناس في القرن السابع عشر تبدو مبالغا فيها • وقد أصبح العالم مكانا للعيش أكثر راحة ، وربما للمرة الاولى خلال القرون أصبحت الطبقات المثقفة تستطيع أن تستريح وتستمتع بفراغها• وقد قِيْل أن النثر الجيد ينبغي أن يشبه حديث الناس ذوي التربية الحسنة ، وهدا الحديث لا. يتأتى إلا إذا كانت عقول هؤلاء الناس خالية من المشاغل المرهقة ، وينبغي ان تتوافر لحياتهم ضمانات معقولة وان لا يوجهوا كل جهودهم لأنفسهم ، وعليهم أن يدركوا أهمية الرقي الحضاري وأن يقدروا اللياقة وان يلقوا بالا الى شخصياتهم ، (أو لم يبلغنا ان النثر الجيد ينبغي أن يكون كلباس الرجل الانيق مناسباً ولكن غير متكلف) • وينبغي أيضاً أن يظلوا في خشية من أن يثقلوا على الآخرين ، وعليهم أن لا يكونوا مستخفين ولا متزمتين ، بل أكفاء دوماً ، وعليهم أن يرموا الحماسة بنظرة ناقدة • ومثل هذه التربة مناسبة جداً للنثر • وليس عجيباً أنها أتاحت فرصة ملائمة لظهور أعظم كاتب في النثر عرفه عالمنا الحديث وهو (فولتير) ••
إن كتّاب اللغة الانكليزية نادراً ما استطاعوا أن يبلغوا الذروة التي يبدو أنّ فولتير بلغها بطبعه ، وربما كان ذلك راجعاً الى طبيعة لغتهم الشعرية ، ولقد استحق الكتّاب الانكليز من الاعجاب بقدر ما استطاعوا الاقتراب من صفات السهولة والاتزان والدقة التي بلغها الكتّاب الفرنسيون العظام •



وثالثة مميزات الاسلوب عندي هي الجرس ، ويتوقف ماتعزوه مـن أهمية للجرس على مدى حساسية أذنك . إن هناك عدداً كبيراً من القراء ومن كتّابهم المفضلين ، لا يملكون هذه الحساسية ونحن نعلم أنّ الشعراء اعتمدوا دائماً على فن الجناس وقد استقر في أذهانهم أن تكرار الصوت يعطي أثراً من الجمال . ولست أعتقد ان هـذا الامر وارد في النثر ، ويبـدو لي أن السجع[1] ينبغي أن لا يستعمل إلا لسبب خاص ، وإذا ما استعمل مصادفة يكون وقعه على الأذن غير مستحب . على أن استعماله العرضي قد شاع حتى أن المرء لا يستطيع إلا أنْ يفترض أنّ وقعه لا يخلف أثراً مؤذياً في آذان الجميع . وكثيرون من الكتاب ، دون ان يشعروا بأي ضيق ، يربطون كلمتين بقافية واحدة أو يصلون صفة طويلة هائلة مع اسم طويل هائل او يضعون بين نهاية كلمة وبداءة أخرى حرف عطف من الأحرف الساكنة يكاد يكسر الفك . وهذه شواهد تافهة وواضحة وما ذكرتها إلا لأثبت أن الكتّاب المتأنقين يقعون في مثل هذه العيوب لأنهم لم يوهبوا الأذن المرهفة ، فالكلمات لهـا وزنها وصوتها ومظهرها ولن تستطيع أنْ تكتب جملة جذابة المظهر حلوة النغمة إلا بمراعاة هذه الأمور الثلاثـة .

ولقد قرأت كثيراً من الكتب عن النثر الانكليزي وكدت ألا أجد فائدة فيها لأنها في معظمها كانت غامضة ونظرية أكثر مما ينبغي ومولعة دوماً بالتأنيب . ولكن هذا لاينطبق على معجم فاولر Fowler للانكليزية الحديثة . إنه عمل قيّم ، ولا أعتقد أن في الناس مَن بلغ في إتقان الكتابة حداً يغنيه

(١) Alliteration

عن هذا الكتاب الحي ، ولقد أحب (فاولر) البساطة والاسلوب المباشر والفهم السليم • ولم يكن ليطيق الادعاء وكان يحس إحساساً سليماً بأن الاصطلاح هو دعامة اللغة وكان نصير العبارة ذات الوقع • ولم يكن من عبيد المنطق ، وتوخّى أن تظل اللغة المستعملة ضمن نطاق القواعدالنحوية ، والنحو الانكليزي صعب وما أقل الكتاب الذين نجوا من ارتكاب الخطأ النحوي • فكاتب متأنق مثل (هنري جيمس) كتب في احدى المناسبات مثلا باسلوب مخالف للنحو الى حد كفيل بأن يثير غضبة أي مدرس يرى مثل هذه الأغلاط في مقالة تلميذ • ومن الضروري أن يتعلم الكاتب النحو ومن الافضل أن يراعي قواعده على أن يتذكر دوماً ان النحو صيغة الكلام العادي والاستعمال هو المحك الوحيد ، وانني أفضل الجملة السهلة غير المتكلفة على الجملة النحوية• ومن الفروق بين الانكليزية والفرنسية انك في الفرنسية تستطيع ان تكتب كتابة طبيعية مراعياً قواعد النحو ولكن الامر غير مطرد في الانكليزية ،وكذلك من الصعوبات في الكتابة الانكليزية كون صوت الحرف يؤثر في شكل الكلمة المطبوعة • ولقد أعطيت مسألة الاسلوب كثيراً من جهدي واهتمامي وهناك صفحات قليلة مما كتبت لا تحتاج الى تحسين ولكن أكثر ما كتبت لم يحظ بكل رضاي لأنني على جهدي لم أستطع أن أكتب أفضل من ذلك ولست بقائل عن نفسي ما قاله جونسون عن بوب : (لم يغض عن غلطة قط ولم ينفض يده يأساً من اصلاحها) • إنني لا أكتب ما أريده انني أكتب ما أستطيعه•

ولكن (فاولر) لم يكن ذا أذن مرهفة ، ولم يلحظ أن البساطة في كثير من الأحيان قد تؤدي الى الجرس الموسيقي ، ولست أعتقد أن البساطة الغريبة أو الحوشية او حتى المتكلفة تكون في غير محلها حين تعطي وقعاً أفضل من الكلمة الواضحة العادية أو حين توفر للجملة توازناً أفضل • ولكنني اسرع فأضيف أن الكاتب لا يجوز قطعاً أن يأتي بما قد يلفع معانيه بالغموض • بالرغم من اعتقادي بأن المرء يستطيع أن يحقق الجرس الموسيقي دون ارتكاب هذا الخطأ •

واي كتابة ، مهما تكن ، هي أفضل من الكتابة الغامضة ، ان الوضوح شرط أساسي للكتابة لا يحتمل أية مناقشة •

ليس ثمة مايمكن أن يؤخذ على البساطة الا احتمال الجفـاف وهي مخاطرة تستحق أن يجازف بها المرء ، أليس الصلع أفضل بكثير من الشعر المستعار ؟ واما بالنسبة للجرس فهناك خطر له شأنه وهو احتمال الرتابة • فحين بدأ (جورج مور) بالكتابة كان اسلوبه فقيراً وكان يخيل لقارئه انه يكتب على ورق اللف بقلم غير مبري ، ولكن ، بالتدريج استطاع أن يغني موسيقى كتابته • وتعلّم كيف يكتب جملا تقع على الأذن كالهمس الخفي ، وقد أغرِم بهذه الموسيقى حتى أنه لم يرو منها قط • ولم يستطع أن يتجنب الرتابة ، كانت اصداء كتابته أشبه بصوت الماء ينكسر على احضان شاطىء حصوي •• نعومة متناهية يكاد المرء يفقد احساسه بوجودها • انها شديدة الحلاوة لدرجة أنك تشتهي أحياناً شيئاً من الخشونة أو نشازاً مفاجئاً يقطع الانسياب الحريري ، ولست أدري كيف يستطيع المرء أن يحتاط لهـذا المحذور ، وافترض أن الفرصة الوحيدة للكاتب هي أن يكون مزاجه أرهف من مزاج قرائه بحيث يشعر بالضيق قبل ان يشعروا به • وعلى المرء أن يظل يقظاً تجاه الاساليب الآلية ، فاذا ما وردت في كتابته ايقاعات معينة ، بسهولة ، فعليه ان يتساءل عن نصيبها من الآلية • ومن الصعب ان يكتشف الكاتب النقطة الدقيقة التي يكون فيها الاصطلاح الذي صاغه ليعبّر عن نفسه قد فقد نكهته • وكما قال دكتور جونسن : (إنّ من راض نفسه مرة على صياغة الاسلوب بجهد يندر أن يكتب بسهولة تامة فيما بعد) • وإنني لأذكر باعجاب أن أسلوب (ماثيو آرنولد) كان ملائماً لمقاصده الخاصة ، ولكن عليّ أن أعترف بأن تَصنّعَه غالباً ما يسبب الضيق •• لقد كان أسلوبه أداة أكملت صياغتها للمرة الاولى والاخيرة ولكنها ليست كيد الانسان التي تستطيع أن تقوم بأنواع مختلفة من الاعمال •

ومتى استطعت أن تكتب بوضوح وبساطة وجرس موسيقي ، وأن تطبع كتابتك بطابع من الحيوية ، فانك تكتب خير مايكتب الناس ، أي على نحو مايكتب (فولتير) • ومع ذلك فلست أنكر مافي الركض وراء الحيوية من أخطار بليغة ، فد ينتج عنها مثلا ما كتبه (مردث) من بهلوانيات مملة • وكان (كارليل) و (ماكولي) أخاذين كل على طريقته الخاصة ، ولكنهما دفعا مقابل ذلك ثمناً غالياً هو العفوية • وكان يشتتان ذهن القارىء بخواطرهما وصورهما البراقة مما أفسد قوة الاقناع في كتابتهما ، ولن يقتنع أحد بعزم امرىء على حراثة ثلم في الحقل اذا كان يحمل طوقاً ويقفز داخله بين كل خطوة وأخرى وكذلك كان شأنهما • إن الاسلوب الجيد ينبغي أن لا يبدو عليه أي أثر للتكلف ، والكتابة الجيدة ينبغي ان تبدو كأنها بنت مصادفة سعيدة ، ولا أظن أحداً يكتب اليوم في فرنسا بأروع مما تكتب (كوليت) فهي تسوق عباراتها بسهولة توهم المرء أنها لم تبذل ادنى جهد في الكتابة ، وقد ترامى إليّ أن هناك نفراً من عازفي (البيانو) لهم قدرة فطرية على العزف بطريقة معينة لا يستطيع غيرهم من العازفين اداءها الا بالدأب المتواصل، وانا اميل الى اقرار وجود مثل هؤلاء بين الكتاب ، وقد وددت لو أضع (كوليت) في قائمة هؤلاء الكتّاب ، وخطر لي مرة أن أستوضحها عن كتابتها ، وكم كانت دهشتي كبيرة حين اخبرتني انها تعيد ماتكتبه مرة بعد مرة ، وانها قد تقضي صباحاً كاملا في كتابة صحيفة واحدة ، وفي الحق ، ليست الطريقة التي تتم بها السهولة ذات شأن كبير • أما أنا فلا تتأتى لي السهولة – الا بالجهد المضني ، ونادراً ما يسعفني الطبع بالكلمة أو بالعبارة تأتيان في موضعهما دون أن تكونا عزيزتي المنال أو مبتذلين •

قرأت أن (أناتول فرانس) حاول أن يقتصر على استعمال التراكيب والمفردات التي تخص كتّاب القرن السابع عشر الذين أُعجبَ بهم إعجاباً شديداً، ولست أدري مدى صحة هذا الكلام ، واذا كان صحيحاً فانه يوضّح بعض مافي فرنسيته البسيطة الجميلة من افتقار الى الحيوية . ولكن البساطة تصبح زيفاً إذا أعرضت عن قول شيء ينبغي أن تقوله ، لأنك لم تستطع أن تقوله بطريقة معينة . وعلى المرء ان يكتب كما يكتب أهل عصره ، واللغة حيــة ومتغيرة تغيراً مستمراً ، ومحاولة الكتابة على نمط الأوائل لا ينجم عنها إلا التصنع . ولست أتردد في استخدام العبارات الشائعة في أيامنا هذه ، إذا توافرت فيها الحيوية والحركة رغم أنني أعرف أن شيوعها مؤقت أو أنها عامية وقد تمسي غير مفهومة بعد عشر سنوات . واذا كان الاسلوب تقليدياً ، فيمكن مــن خلاله أن نجد استعمالا حصيفاً لبعض التعابير المحلية المؤقتة ، وما أسرع ما أفضل الكاتب العامي على الكاتب المتصنع لأن الحياة نفسها عامية ، ولأن الحياة هي ضالة الكاتب .

وأعتقد أننا ، أيها الكتّاب الانكليز ، نستطيع أن نتعلم الكثير من زملائنا في الولايات المتحدة ، لان الكتاب الامريكيين نجوا من طغيان توراة (الملك جيمس) وهم أقل تأثراً بالائمة القدامى الذين تؤلف كتاباتهم جزءاً مــن ثقافتنا . وقد صاغ الامريكيون أساليبهم — وربما عن غير وعي منهم — على نمط الكلام الحي الذي يطرق الاسماع من حولهم ، وتمتاز هذه الاساليب ، عند اتقانها ، بالقصد والحيوية والقوة مما يكسب اسلوبنا الاميل الى التهذيب طابعاً من الترهل . ومن مزايا الكتّاب الامريكيين — وأكثرهم كان في وقت ما مراسلا — ان صحافتهم تكتب بانكليزية أشد مضاء وعصبية واقوى تصويراً من انكليزيتنا ، إذ اننا نقرأ اليوم الجريدة كما كان أجدادنا يقرؤون التوراة ،

ونحن الرابحون لأن الجريدة ، ولا سيما حين تكون من النوع الشعبي ، تمدنا بقسط من التجربة لانستطيع نحن الكتاب الاستغناء عنه ، انها المادة الخام ترد الينا مباشرة من سوق الخيل التالفة وما اغبانا اذا اشحنا عنها بانوفنا لأنها تعبق برائحة الدم والعرق . ولن نستطيع ، مهما استبدت بنا الرغبة ، ان نهرب من تأثير هذا النثر اليومي . ولكن صحافة فترة ما يكون لها اسلوب متشابه جداً كأنما كتبت كلها بيد واحدة . وهي غير شخصية ، ومن المستحسن تلافي تأثيرها بقراءة من نوع آخر ، ولا يتم ذلك الا بالاتصال المباشر المستمر بكتابة عصر غير بعيد جداً عن عصر الكاتب ، وهكذا يتوفر في حوزة المرء نفسه مستوى يقيس به أسلوبه ، ومثل يحتذيه على الطريقة العصرية . أما أنا فقد وجدت (هازلت) و (كاردينال نيومان) خير من يدرس من اجل تحقيق هذا الغرض . ولم أقدم على تقليد أي منهما ، (فهازلت) يمكن أن يكون بلاغياً في غير موضع البلاغة ، وأسلوبه يعج بالزينة أحياناً كالبناء الفكتوري، و (نيومان) قد يكون أميل الى التنميق ، ولكن كتابتهما الجيدة تستحق الإعجاب ، ولم تستطع يد الزمن أن تؤثر فيها إلا قليلا فكأنها كتابة معاصرة . إن نثر (هازلت) حيّ محكم نشيط يتمتع بالقوة والحيوية ، وفي عبارته تشعر بالإنسان ، الإنسان الكامن في رؤاه المثالية ، لا الإنسان الدنيء المحموم البغيض الذي بدا فيه هازلت للعالم الذي عرفه . (والإنسان الكامن في داخلنا لا يقل واقعية عن الإنسان المسكين المتردد الذي نظهره) ، وفي أسلوب (نيومان) رشاقة بديعة ، وموسيقى عابثة حيناً جادة حيناً آخر ، وجمال في العبارة كجمال الغابات ، وتأنق ونعومة . وكلاهما كتب بوضوح بالغ ، ولم يكن أحدهما يتمتع بالبساطة التي يصبو اليها الذوق المصفى ، وهنا اعتقد ان (ماثيو آرنولد) يتفوق عليهما ، وكلاهما كان رائعاً في توازن عباراته ، وعرف كيف يكتب جملا تسرُّ الناظرين . وكان يتمتع بأذن بالغة الحساسية .

واذا كان لاحد ان يجمع مزاياهما وفقاً لطريقة الكتابة في عصرنا ، فسوف يكتب خير ما يمكن أن يكتبه إنسان .

لقد تساءلت من حين لآخر : أكان من الممكن ان أصبح كاتباً أفضل لو انني كرست كل حياتي للادب ؟• منذ عهد الصبا ، ولا أذكر في أية سن تم ذلك ، عقدت النية على ممارسة الحياة بأقصى ما استطيع من حول ، مادمت لا امتلك الا حياة واحدة ، ولم أكن لاقنع بالكتابة فقط ، واحببت أن أضع تصميماً لحياتي تحتل فيه الكتابة المنزلة الرئيسية ، ولكنه يشمل كل الفعاليات الاخرى التي تليق بالرجل ، فما يطويه الموت الا منجزاً تاماً ، وما اكثر ماكان فيّ من مثبطات ، كنت ضئيل الحجم ، ضعيف القوة الجسديـة ، متلجلج اللسان ، خجولا ، منحرف الصحة ، ولم أستطع ان اطرق باب الالعاب وهي التي تأخذ من الحياة السوية للانكليزي جانباً على غاية الاهمية ، وربما لاي من هذه الاسباب ، او لطبع متأصل فيّ ، كنت أحس بنفور غريزي مـن زملائي وتصعب عليّ مخالطتهم • ولقد أحببت الأفراد ولم آلق بالا الى الجماهير ، ولم ارزق ذلك الاستعداد للالفة الذي يدفع المرء الى الاندماج مع الآخر عند أول لقاء ، وبالرغم من انني تعودت ، مع الايام ، على اظهار المودة القلبية كلما اضطررت ان احتك بشخص غريب ، الا انني لم استملح انساناً من النظرة الاولى على الاطلاق ، ولا أظن انني بدأت بمخاطبة أي شخص لا أعرفه سواء في القطـار أو على ظهر الباخرة ما لم يبدأني هو بالكلام • ثم ان ضعف بنيتي حرمني من التمتع بذلك النوع من التمازج بين الناس الذي ييسره شرب الكحول ، وما كان ابعدني عن بلوغ مرحلة السكر التي تحمل من هم أسعد تكويناً مني على أن يعتبروا جميع الناس اخوة لهم، إذ سرعان ما كانت معدتي تنقلب عليّ وأرتمي مريضاً كالكلب قبل أن يدركني السكر ، وهذه نقائص خطيرة سواء في الرجل او في الكاتب ، وقد عملت

على تلافيها ما استطعت •• واصررت على التصميم الذي وضعته لنفسي ، ولست ادعي انه كان كاملا ، ولكنني اعتقد انه افضل ما كنت اؤمله وانا على هذه الحال وضمن هذه القوى المحدودة التي منحتني اياها الطبيعة •

وقديماً قرر أرسطو أن وظيفة الانسان الخاصة ، هي الفعالية الروحية، نظراً لأنه يشترك مع النبات في خاصة النمو ، ومع الحيوان في الحس ، وهو وحده الذي يمتلك عنصر العقل • ومن ذلك استنتج أرسطو — خلافاً لما قد تحسبه معقولا — ان الانسان لا ينبغي أن يرعى الأشكال الثلاثة من الفعاليات التي عزاها له ، ولكن عليه أن يرعى تلك الفعالية الخاصة بـه ، والفلاسفة والأخلاقيون لم يحسنوا الظن بالجسد وأشاروا إلى سرعة اكتفائه ، ولكن اللذة ليست سوى اللذة ، لأن الاحساس بها لا يستمر الى الأبد •• انه يطيب لك أن تغطس في الماء البارد ذات يوم حار ، مع انها لحظة واحدة، ونفقد بعدها متعة الاحساس ببرودة الماء •• ولن يزيد البياض بياضاً لو استمر عاماً كاملا أو يوماً واحداً ، وهكذا فقد جعلت في مخططي نصيباً لمحاولـة التمرس بكل اللذات الحسية • ولم أخش الاسراف لأن الاسراف في حينه يبهج النفس ، ويمنع الاعتدال من اكتساب تأثير العادة المميت ، انه يناسب الجسم ويريح الاعصاب ، والروح في الاغلب تكون أكثر حرية حين يسكن الجسد الى اللذة ، والنجم يبدو ، بالفعل ، اشد التماعاً لعين الناظر في الوادي منه في قمة تل ، إن أَنْفَذ لذة يتحسسها الجسد هي الاتصال الجنسي ولقد عرفت رجالا كرسوا حياتهم لها ، وقد شاخوا اليوم ، ولكنني لاحظت بشيء من الدهشة انهم راضون عن أيامهم السالفة ، اما انا فمن سوء حظي ان حدة في طبعي قد حرمتني من الانغماس في هذه اللذة على النحو الذي كنت خليقاً به ، لقد مارست الاعتدال لانني كنت عزيز الارضاء ، وحين أتيح لي من وقت لآخر أن أرى بعض من قضى معهم المحبون الكبار رغائبهم كنت أعجب من عنفوان شهوتهم اكثر من حسدي اياهم على ماحققوه، ومن الواضح انك لن تشعر بوطأة الجوع اذا كنت ترضى بلحم ضأن وملفوف •

ان معظم الناس يعيشون حيوات سائبة ويخضعون لتقلبات الحظوظ • وكثيرون منهم يضطرون ، بسبب الظروف التي رافقتهم منذ الولادة، وضرورة كسب الرزق ، الى التزام درب مستقيمة ضيقة لا فرصة فيها لانحراف الى اليمين أو الشمال • ومثل هؤلاء يكون تصميم حياتهم مفروضاً عليهم من قبل الحياة، وليس من سبب يحول دون أن يكون هذا التصميم كاملا شأنه شأن أي تصميم وضعه المرء باختياره • ولكن الفنان يقف في وضع يمتاز عن غيره ، وانا اذ استعمل كلمة الفنان لا أرمي الى نسبة أية قيمة لانتاجه ولكن لمجرد الدلالة على أي شخص يشتغل بالفنون ، وطالما تمنيت لو أجد كلمة أنسب • ان المبدع يميل الى الادعاء ، وينسب الى نفسه اصالة يندر ان نجد تبريراً لها ، وكلمة (الصانع) لا تكفي للدلالة عليه ، فالنجار صانع ، ومع انه قد يكون فناناً بمعنى من المعاني ، فهو بطبيعة عمله يفتقر الى حرية العمل التي يمارسها اسوأ خطاط وأردأ دهان • والفنان يستطيع ضمن حدود معينة ان يكيف حياته على هواه • أما في المجالات الاخرى من الحياة كالطب أو الحقوق فأنت حر في اختيار اختصاصك ، ولكنك بعد الاختيار تفقد حريتك وتنصاع لأحكام المهنة ، فهناك إذاً نمط من السلوك يُفرض عليك ، وهو نمط محتم ، وليس الا الفنان ، وربما المجرم من يستطيع ان ينتهج النمط الذي يريد ••

وربما كان ميلي الطبيعي الى الترتيب هو الذي جعلني أنهمك في وضع تصميم لحياتي منذ أن أيفعت ، وربما كان السبب يعود الى شيء اكتشفته في نفسي لن أعرض له فيمابعد الا قليلا • ويكمن خطر وضع تصميم للحياة في الخوف من قضائه على البداهة ، وهناك فرق عظيم بين أشخاص الواقع وأشخاص الرواية ، يتلخص في أن اشخاص الواقع يخضعون للدوافع الفطرية، وقد قيل ان الميتافيزياء (ما وراء الطبيعة) هي ايجاد أسباب سيئة لما نعتقده بغرائزنا ، وفي نطاق الحياة نستطيع ان نقول أيضا اننا نلجأ الى التصميم لتحقيق الاعمال التي نرغب فيها •• ان الخضوع الى الدافع جزء من تصميم الحياة ، واعتقد ان العيب الاكبر لهذا التصميم هو انه يجعلنا نعيش في

المستقبل أكثر مما ينبغي • وقد أدركت هذا الخطأ منذ زمن طويل وعبثاً حاولت أن أصلحه• ولم تخامرني ، الا بجهد الارادة ، الرغبة ان تطول اللحظة العابرة حتى أستطيع أن أنال منها متعة أكبر ، وحتى حين تأتيني اللحظة بشيء طالما صبوت اليه يكون خيالي في برهة تحقيق مرادي مشغولا بمشكلة المتعة المقبلة •• ولم أمش يوماً في القسم الجنوبي من ميدان (بيكاديلي) الا فكرت فيما يجري في شماله ، وهذا حق ، فاللحظة الراهنة هي وحدها كل ما يمكننا أن تتأكد منه ، والمنطق السليم يدعونا الى أن ننتزع منها كل قيمتنا • والمستقبل سيصبح حاضراً يوماً ما ، وسيبدو ضئيل الأهمية كما يبدو الحاضر الآن • ولكن المنطق السليم لا يجديني فانا لا أجد الحاضر غير مرض ، بل أقبله على علاته مادام قد دخل في التصميم واما الذي يعنيني، فهو الذي سيأتي من بعد ••

لقد ارتكبت في حياتي اخطاء كثيرة ، ووقعت عدة مرات ضحية هوة يتعرض لها الكتّاب بوجه خاص ، وراودتني الرغبة في القيام بأعمال معينة سبق أن جعلت الشخصيات التي ابتدعتها تقوم بها ، وقد جربت أموراً كانت غريبة على طبعي ، وانغمست فيها بعناد لانني ، على كبريائي ، لم أكن لاعترف انني هزمت • وكذلك كنت أولي آراء الآخرين اهتماماً مفرطاً وقد ضحيت من أجل موضوعات تافهة لأن شجاعتي لم تسعفني لإيلام الآخرين •• وكثيراً ما ارتكبت الحماقات • ولي ضمير حي ، وقد أتيت أفعالا معينة في حياتي لا أستطيع نسيانها • ولو أن حظي أهلني لان اكون كاثوليكيا لكنت خلصت نفسي منها بالاعتراف ، وبعد أداء الجزاء المضروب نلت الغفران وأرحت ذهني منها الى الابد ، ولكن كان علي ان اتصرف وفق منطقي • انني لست نادماً على أخطائي ، واعتقد ان لها الفضل في تعليمي التسامح مع الآخرين ، وقد استغرق هذا الامر وقتاً طويلا • وفي شبابي كنت متصلباً خشناً ، وما زلت أذكر ثورة نفسي حين سمعت احدهم يقول ، ان النفاق هو جزية تدفعها الرذيلة للفضيلة ، وهي فكرة معروفة ، ولكنها كانت جديدة بالنسبة

لي حينذاك . كنت أعتقد أن الانسان ينبغي أن يكون شجاعاً في رذائله ، وكنت أومن بالشرف والاستقامة والصدق ، ولم أكن ناقماً على نقائص الانسان ، بل على الجبن ، ولم أقبل عذرا للمرائين والمراوغين ، ولم يخطر لي انني كنت أحوج الناس الى التسامح ..

***

- ١٦ -

للوهلة الأولى يبدو غريباً أنّ تجنّينا على الآخرين أقل إيذاء في نظرنا من تجنّي الآخرين علينا ، ولعل السبب راجع الى أننا نعرف كل الظروف التي لابست أفعالنا ، فيسهل علينا أن نبرر من تصرفاتنا ما لا نبرره من تصرفات الآخرين • ونحن نغض الطرف عن نقائصنا فاذا ما أكرهنا على النظر فيهاسهل علينا أن نجد لها مخرجاً • وعندي أننا محقون في هذا التصرف ، فعيوبنـــا جزء منا وما علينا الا أن نقبل الخير والشر معاً في نفوسنا ، ولكننا حين نحاكم الآخرين ، لا نحكم عليهم بنفوسنا كما هي في الواقع بل بصورة كونّاها عن نفوسنا بعد أن طرحنا كل مايجرح كبرياءنا ، وكل ما من شأنه أن يخفض منزلتنا في أعين الناس ، ولنأخذ شاهداً بسيطاً على ذلك : ما أشد مانحتقر شخصاً اذ نضبطه وهو يكذب ولكن من منا يستطيع أن يقول انه لم يكذب، ليس مرة واحدة ، بل مئة مرة ؟ وكذلك يصدمنا أن نكتشف أن الرجال العظام كانوا ضعافاً ووضيعين ، ومخـــاتلين أو أنانيين ، وفاسدين جنسياً ، ومغرورين أو مسرفين على أنفسهم ، وكثير من الناس يعتبرون افشاء عيوب أبطالهم أمراً غير لائق ، ولكن أي الرجال المهذب ؟ كلهم خليط من العظمة والصغار ، من الفضيلة والرذيلة من النبل والحطة • وبعضهم أقوى شخصية أو أرحب فرصة ، وكلهم يطلق العنان لغرائزه في اتجاه أو في آخر ، ولكنهم جميعاً واحد في الجوهر • ومن جهتي لا أعتقد أنني أفضل من سائر الناس أو اسوأ منهم ، ولكنني أعلم انني اذا بسطت كل عمل عملته في حياتي ،وكل فكرة خطرت في ذهني فسينظر العالم إليّ نظرته الى وحش فاجر •

واني لاستغرب كيف لايخجل المرء من ادانة الآخرين حين يستعرض أفكاره الخاصة • ان قسماً كبيراً من حياتنا غارق في الاحلام ، وكلما كان خيالنا

أقوى كان هذا القسم أكثر حيوية وتنوعا • ومن فينا يستطيع الصمود لو عرض أمامه سجل كامل لأحلامه ؟ لا بد لنا حينذاك أن ننهار أمام عارنا ، وليس لنا الا أن نصرخ محتجين بأننا لايمكن أن نكون فعلا ، في هذا الدرك من الدناءة واللؤم ، والوضاعة ، والأنانية ، والهوس ، والعنجهية ، والغرور ، وسطحية العاطفة •• على ان أحلامنا هي ، بالتأكيد ، منا بقدر ماتكون أفعالنا منا ، واذا قدر لانسان أن يطلع على دخائلنا اطلاعاً تاماً ، فاننا نشعر ازاءه بمسؤولية لا تقل عن مسؤولية أفعالنا ، والناس ينسون الافكار المرعبة التي تجوس في أذهانهم وتثور نفوسهم حين يقعون على هذه الافكار عند غيرهم ، ويروي لنا (غوته) في (الحقيقة والشعر)[1] كيف انه لم يحتمل في شبابه أن يكون والده محامياً من الطبقة الوسطى في (فرانكفورت) • لقد كان يشعر بأن دماً نبيلا ينبغي ان يسري في عروقه ، وهكذا حاول أن يقنع نفسه بأن أحد الامراء قد مر بتلك المدينة ، وقابل أمه وأحبها ، وجاء هو ثمرة هذا الحب • وقد كتب محرر النسخة التي قرأتها تعليقاً ثائراً على الموضوع وذكر انه لا يليق بشاعر كبير مثل (غوته) أن يصم شرف أمه الذي لا مجال للشك فيه لكي يريش بعنجهية ارستقراطيته الزنيم • وهـذا أمر غير لائق حقاً ، ولكنه ليس مخالفاً للطبيعة ، بل اجرؤ ان أقول انه شائع • ومن بين الصبيان الرومانتيين الثائرين الخياليين ، ما أقل من لم تداعب مخيلته فكرة استحالة كونه ابن أبيه البليد الموقر ، فعزا ما كان يؤنسه في نفسه من وهم التفوق الى شاعر مجهول ، أو سياسي عظيم ، أو أمير حاكم ، وهذا الموقف الاولمبي ل « غوته » ملأ نفسي تقديراً له فيما بعد ، فالرجل يستطيع أن يكتب مؤلفات عظيمة ، ويظل رجلا بمعنى الكلمة •

وأخال ان مثل هذه الافكار الانانية الدنيئة البشعة المنحطة ، هي التي عذبت القديسين واستقرت في عقولهم رغم ارادتهم ، حتى بعد أن كرسوا

(1) Wohrheit und Dichtung

حيواتهم للخير ، وبعد أن كفرت التوبة عن خطاياهم السابقة • وحين ذهب القديس « أغناطيوس لويولا » ، كما نعلم الى (مونسرات) أدى اعترافاً شاملا ونال الغفران ، ولكنه ظل مهووساً بشعور من الخطيئة كان يدفعه الى قتل نفسه • وحتى تاريخ اهتدائه ، كان يتمتع بالحياة المعتادة للشاب ذي المنبت الشريف في تلك الايام ، وكان مغتراً نوعاً ما بمظهره ، وقد زنى ، وقامر ، ولكنه أظهر في مرة واحدة على الاقل سمواً روحياً ، وكان دائماً شريفاً مخلصاً ، كريماً شجاعاً ••• واذا كانت طمأنينة النفس لم تواته ، فما ذاك الا لأنه لم يستطع أن يسامح نفسه على ما تذهب اليه من أفكار ، وقد يكون عزاء لنا أن نعرف ان القديسين أنفسهم عانوا من هذا الامر • وحين كنت أرى عظماء الارض مترفعين منتصبين في مجالسهم ، كنت اسأل نفسي هل يتاح لهم في مثل تلك اللحظات أن يذكروا كيف يملأ عقولهم فراغ وحدتهم ؟ وهل أزعجهم يوماً ما ، التفكير بالاسرار التي تنطوي عليها نفوسهم المتأبية ؟

يبدو لي أن معرفتنا باشتراك الناس جميعاً في مثل هذه الاحلام قمينة بأن تلهمنا التسامح مع نفوسنا ومع غيرنا ، وما أجدرها أن تمكننا من النظر الى زملائنا ، ولاسيما المبرزين والاجلاء منهم ، بعين الدعابة ، والنظر الى أنفسنا بقليل من الجدية •• وكلما سمعت القضاة يعظون الناس بحماسة من على منصاتهم سألت نفسي : هل يمكن أن ينسوا انسانيتهم مثل هذا النسيان التام الذي توحي به أقوالهم ؟ وكم تمنيت لقاضي القضاة في (اولد بيلي) ان يضع الى جانب باقة الزهر أمامه رزمة من أوراق الحمام (التواليت) ، اذاً لتذكر دوما انه انسان كسائر الناس •

لقد وصفت بأنني متشكك ، واتهمت بأنني اجعل الناس اسوأ مما هم ولا أظنني فعلت ذلك ... كل ماعملته هو انني ابرزت خصائص انسانية معينة اعتاد الكتاب أن يشيحوا بابصارهم عنها ، واعتقد ان اظهر ما لفتني من صفات بني الانسان قلة ثباتهم ، لم أشهد في حياتي أناساً قدّوا من معدن واحد ، وقد حيرني ان الانسان الواحد تجتمع فيه صفات أبعد ماتكون عن التجانس ، ومع ذلك تراها منساقة في انسجام معجب ، وكثيراً ما سألت نفسي ، كيف توجد في الانسان نفسه صفات لايجمعها أي جامع ؟ لقد عرفت دجالين قادرين على التضحية بالنفس ، ولصوصاً ذوي طبيعة عذبة ، ومومسات يعتبرن من الشرف بذل مقابل لائق للمال الذي يدفع لهن ، والتفسير الوحيد لهذا الوضع عندي هو أن كل انسان له من الاعتقاد الغريزي بتفرده وتميزه في هذا العالم مايدفعه الى الشعور بأن مايقوم به من أعمال مهما تكن خاطئة في نظر الآخرين ، يصح أن تُغتفر ، هذا اذا لم يعتبرها طبيعية ومحقة . وهذه المفارقات التي وجدتها في الناس كانت موضع اهتمامي ، ولكنني لا اعتقد انني بالغت في تأكيدها . وما وجّه إليّ من مأخذ بين حين وآخر ربما يعود الى انني في الواقع لم أحمل على النواحي الشريرة في الشخصيات التي خلقتها ، ولم أثن على النواحي الخيرة . وقد يكون من بين أخطائي أنني لا أندد كثيراً بأخطاء الآخرين ما لم تقع عليّ جرائرها ، وحتى في مثل هذه الحالة انتهيت أخيراً الى التماس العذر لهم ، وعليك أن تكون ممتناً اذا عاملك الناس معاملة طيبة ، وأن لاتثور اذا عاملوك معاملة سيئة (لان كلامنا - على حد قول الغريب الاثيني - طبع على ماهو عليه بعامل رغائبه وطبيعة روحه) . ان مايمنع الناس من رؤية الامور من غير زاويتهم الخاصة ، ليس

الا نقصاً في الخيال ، ولا يعقل أن يستبد بنا الغضب منهم ، لانهم يفتقرون الى هذه الملكة .

وفي رأيي أنني ملوم حقـاً اذا رأيت عيوب الناس فقط وتعاميت عن فضائلهم ، ولا أعتقد أن هذا هو الواقع ، وليس من شيء يفوق الطيبـة حسناً ، وكم أمتعني أن أُظهر مدى توفرهـا في الاشخاص الذين تدينهم الاحكام الشائعة بلا هوادة .

وانما أظهرت هذه الطيبة لانني رأيتها فعلا ، وبدت لي أحيانا أسطع في نفوس هؤلاء لانها كانت تتلألأ في ظلمة الخطيئة . انني اعتبر طيبة الطيبين أمراً طبيعياً ، ويسليني ان اكتشف عيوبهم ورذائلهم بينما يهزني أن أرى الطيبة في اللئام ، ويحلو لي أن أغض الطرف عن لؤمهم ، ولا أعتبر نفسي قاضياً عليهم وانما تكفيني مراقبتهم ، وهذه المراقبة جعلتني أخيراً اعتقد بعدم وجود فارق كبير بين الصالحين والطالحين ، خلافاً لما يؤمن به الاخلاقيون .

لم أكن ، بوجه عام ، أميل الى تقدير الناس من خلال مظهرهم ، ولست أدري اذا كانت هذه البرودة في التفحص موروثة عن آبائي ، وهم الذين لم يكن لهم أن ينجحوا في المحاماة لو لم يُرزقوا من نفاذ النظرة ما وقاهم شر الانخداع بالمظاهر ، أو لعلها ناتجة عن افتقاري الى تلك الدفقة البهيجة من العاطفة التي تدفع الناس الى التآلف والاستئناس عند اللقاء الاول . وقد أذكى فيّ هذه الصفة ، على أي حال ، تمرني على ممارسة الطب ولم أكن أرغب في أن أصير طبيباً بل كنت أود أن أصبح كاتباً ، ولكن حيائي كان يمنعني من التصريح بذلك في وقت يستهجن فيه الناس ان يقدم ولد فـي الثامنة عشرة ، من اسرة محترمة ، على اتخاذ الادب مهنة له . وكانت هذه الفكرة غريبة جداً حتى انني لم أحلم قط بالافضاء بها الى احد . وفي بادىء الامر توقعت ان ادخل عالم الحقوق ، الا ان اخوتي الثلاثة - وهم أكبر مني كثيراً - كانوا يمارسون هذه المهنة ، فلم يبق لي متسع فيها .

تركت المدرسة مبكراً ، لم أكن سعيداً في المدرسة التحضيرية التــي
ُألحقت بها بعد وفاة والدي ، لأنها كانت في (كنتربري) على مسافة ستة
أميال فقط من (ويتستبيل) حيث كان عمي ـــ وهو الوصي عليّ ـــ قسيسها •
انها فرع من المؤسسة القديمة (مدرسة الملك) ، واليها ُأرسلت حين بلغت
الثالثة عشرة ، وقد اكتفيت بانجاز الصفوف الدنيا التي كان اساتذتها قساة
مرعبين ، ثم شاء سوء حظي أن اقع فريسة مرض اكرهني على قضاء فصل
من السنة في جنوب فرنسا ، ذلك أن أمي وأختها الوحيدة ماتتا بالسل ،
وحين تبين أن رئتيّ قد أصيبتا بالعدوى ، اهتم عمي وعمتي للأمر • ومن
ثم وضعت في رعاية معلم في (هييرس) • وعندما عدت الى (كنتربري) لم
ارتح للحياة فيها ، فأصدقائي بنوا صداقات جديدة أصبحت معها وحيداً ،
ونقلت الى صف أعلى بعد ان اضعت ثلاثة أشهر ، فوجدتني كحاطب ليل ،
وأخذ معلم الصف ينكد عيشي ، فاقنعت عمي بانه من الافضل لرئتيّ ان
أغادر المدرسة واقضي الشتاء في الريفييرا ، وانه من مصلحتي الذهاب الى
ألمانيا بعد ذلك لتعلم الالمانية ، حيث يمكنني الاستمرار في دراسة الموضوعات
المؤهلة لدخول (كامبردج) ، وكان عمي رجلا ضعيفاً ، وكانت حجتي قوية•
وما كان عمي ليحبني ، ولست ألومه مادمت أعتقد بأنني لم أكن ولداً محبوباً،
ولما كنت سأصرف على تعليمي من مالي الخاص ، فقد أعطاني حرية الاختيار،
وحبذت عمتي الخطة ، وكانت المانية رفيعة النسب ، خالية الوفاض ، فخورة
بما عند أسرتها من عدد الحرب وشارات الاحلاف والوقائع ، وقد رويت في
مكان ما من هذا الكتاب كيف انها ترفعت ، وهي زوجة قس فقير ، عن زيارة
زوجة ثري اقام صيفاً في جوارنا ، ذلك لانه كان يشتغل بالتجارة • وهي

التي رتبت لي أمر الذهاب الى أسرة في (هيدلبرغ) كانت قد سمعت عنها من اقاربها في ميونيخ •

غير انني حين قفلت عائداً من المانيا ، وسني هي الثامنة عشرة ، فقد كانت لدي وجهة نظري الخاصة ، الجازمة ، حول مستقبلي ، وكانت تملأ نفسي سعادة لم أعهدها من قبل ، فقد تذوقت طعم الحرية ، ولم أعد احتمل فكرة الذهاب الى (كامبردج) والخضوع مرة ثانيـة للقيود ، وراودني شعور بالرجولة ، وتشوق الى خوض غمار الحياة في الحال ، ورغبت ان لا اضيع دقيقة واحدة • كان عمي يأمل دائماً ان التحق بالكنيسة ، مع انه كان خليقاً أن يعلم أنها أبعد ما تكون عن ملاءمتي ، بسبب لجلجة كنت أعاني منها ، وقد نزل عند رغبتي في عدم الذهاب الى (كامبردج) بلا مبالاته المعهودة ، ومازلت أذكر الى الآن المناقشات السخيفة التي دارت حول تقرير مصيري، وقد اقترح بعضهم ان التحق بخدمة الحكومة ، وكتب عمي الى صديق قديم له من أيام (أكسفورد) يشغل منصباً هـاماً في وزارة الداخلية يسأله المشورة • وكان الحل ان وظائف الحكومة لم تعد تليق بالاشراف بسبب نظام الفحص والطبقة الاجتماعية التي دخلت الوظائف الحكومية وهكذا تقرر أخيراً أن أصبح طبيباً ؛ ولم أستسغ مهنة الطب ولكنها أعطتني فرصة الاقامة في لندن وحققت صبوتي لخوض تجربة الحياة • فقـد دخلت مستشفى (سانت توماس) في خريف سنة ١٨٩٢ ووجدت منهاج السنتين الاولين بليداً ، ولم أصرف من الانتباه لعملي الا القدر الـذي يؤهلني لاجتيـاز الامتحانات ، وهكذا كنت تلميذاً غير مجد ، ولكنني تمتعت بالحرية المنشودة ، وجعلت سكناي في أماكن مستقلة ، أعيش فيها وحيداً مع نفسي ، واعتز بجعلها جميلة ومريحة ، وقضيت كل فراغي ومعظم الوقت الذي يفترض في أن أخصصه للدراسات الطبية في المطالعة والكتابة • لقد قرأت بغزارة وملأت دفاتري بأفكار قصص ومسرحيات ومقاطع من الحوار والتأملات اوحت لي بها قراءاتي وتجاربي ، وكلها خال من نفح العبقرية •• ولم أتوغل في حياة

المستشفى الا قليلا ، وكان اصدقائي هناك قلة لانني كنت مشغولا بأمور أخرى • على انني أخذت أبدي شيئاً من الاهتمام بعد انقضاء السنتين الاوليين، إذ أصبحت موظفاً في دائرة المرضى الخارجيين • وأخذ اهتمامي بالعمل يتزايد، واقبلت على ممارسة الطب حتى انني حين أصبت بالتهاب اللوزتين خلال اجرائي كشفاً على جثة كانت في حالة بالغة من التشويه ، واضطررت الى ملازمة الفراش ، لم أكد اطيق صبراً على البعد عن واجباتي • وكان علي ان أخضع لعدد من القيود قبل أن أنال الشهادة ، بما في ذلك ان اذهب الى أكواخ (لامبث) ، وغالباً الى أماكن خطرة كانت الشرطة تتردد قبل دخولها، ولكن حقيبتي السوداء كانت تحميني ، وعلى أية حال ، فقد استغرقت في العمل •• ولفترة من الزمن ، كانت مهمتي اجراء الاسعاف الاولي لجميع الحالات الطارئة ليل نهار ، وقد أتعبتني هذه المهمة ، ولكنها أنعشتني إنعاشاً عجيباً •

*
**

ههنا بلغت أقصى ما تمنيت ، ألا وهو الاتصال بالحيـاة في شكلهـا الخام الطبيعي ، ففي ثلاث سنوات من ممارسة الطب كان لا بد لي أن أشاهد تقريباً كل انفعال يدخل في طاقة الانسان ، وهذا ما أرضى غريزتي الروائية وأثار شخصية القاص في نفسي ، حتى انني اليوم ، بعد انقضاء اربعين عاماً أستطيع ان اتذكر أناساً معينين تذكراً دقيقاً يمكنني من رسم صورة لهم ، ومازالت العبارات التي كانوا يرددونها تطن في أذني . لقد شهدت كيف يموت الناس ، وكيف يتحملون الألم ، ورأيت الأمل مجسماً ، وكذلك الخوف والارتياح ، ورأيت الخطوط السود التي يرسمها اليأس على الوجه ، ورأيت الشجاعة والثبات ، ورأيت الايمان يلتمع في عيون أناس وثقوا بما لاأستطيع أن أسميه الا وهماً ، ورأيت الشجاعة التي تدفع الانسان الى أن يستقبل أعراض الموت بنكتة ساخرة لأن كبرياءه لم تسمح لـه بأن يدع النـاس يطلعون على الرعب الذي يجتاح روحه .

في تلك الايام (اذ كان الناس في بحبوحة من العيش ، سلامهم مضمون، ونجاحهم مؤكد) ظهرت مدرسة من الادباء بالغت في تقدير القيمة الخلقية للمعاناة ، وادعت انها خيّرة ، وانها تقوي العاطفة وتشحذ الاحساس ، وانها تفتح أمام الروح معارج من الجمال جديدة ، وتؤهلها لأن تكون على صلة مع مملكة الله وأسرارها ، وأنها تقوي الشخصية وتطهرها من غلظتها البشرية وتمنح من ينشدها ، لا من يتجنبها ، سعادة أقرب الى الكمال . وقد ظهرت كتب عديدة في معنى هذه الأسطر ، ولاقت نجاحاً عظيماً ، على حين كـان مؤلفوها الذين يرتعون في منازلهم المريحة ، ويتناولون ثلاث وجبات يومياً ، ويرفلون بأثواب العافية ، ينعمون بشهرة واسعة . وقد سجلت في دفتري ،

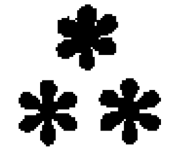
في أماكن كثيرة ، لا مرة ، ولا مرتين ، الحقائق التي رأيتها ، وعرفت أن المعاناة لم تسم بالمرء بل انحطت به ، وصيرت الناس أنانيين دنيئين وضيعين مرتابين، وجعلتهم ينغمسون في الصغائر ، ولم ترفعهم فوق الرجال بل خفضتهم دونهم. وكتبت يومذاك باصرار ، أن المرء لا يتعلم الجلد عن طريق معاناته الخاصة ، بل من معاناة الآخرين .

كان ذلك كله خبرة قيمة لي ، ولست أعرف تدريباً للكاتب أفضل من قضاء بضع سنوات في ممارسة الطب . وأحسب أنك تستطيع ان تتعلم الكثير عن الطبيعة الانسانية في مكتب محام ، ولكنك إذ ذاك تتعامل مع النـاس وهم في كامل وعيهم ، وقد يكذبون هناك بقدر ما يكذبون على الطبيب ، ولكنهم يكذبون بثبات ، وكذلك قد لا يكون الاطلاع على الحقيقة ضرورياً جداً للمحامي ، ثم ان القضايا التي يعالجها مادية ، عادة ، وهو يرى الطبيعة البشرية من زاوية اختصاصه . ولكن الطبيب ، ولا سيما طبيب المستشفى ، يرى الطبيعة الانسانية عارية ، قليلة التحفظ عامة بل خالية منـه في أغلب الاحيان . ان الخوف قادر" على تحطيم كل دفاع للانسان حتى ان الغرور نفسه ينهار أمام الخوف ، ومعظم الناس لديهم شهوة هائجة للحديث عـن أنفسهم وليس يوقفهم عن ذلك الا انصراف الآخرين عن الاستماع اليهم ، بينما التحفظ صفة متكلفة تنميها عند أغلب الناس الصدمات التي لاتحصى، ولكن الطبيب ينبغي أن يكون حليماً .. ان وظيفتـه هي أن يستمع بينما التفاصيل التي يسمعها لا تشوق أذنيه ..

على أنك لن تتعلم شيئا من الطبيعة التي تعرض أمامك اذا لم تكن ذا بصر ثاقب . فان كان التحامل يعميك ، أو كان مزاجك مرهفاً ، فقد تجوب أرجاء المستشفى وتخرج منها جاهلا مثلما دخلت . واذا رغبت في أن تجني أية فائدة من هذه التجربة فلا بد أن تكون متفتح الذهن ، مهتماً بالكائنات البشرية . وانني اغبط نفسي لأنني وجدت الناس بالرغم من أنني لم أحببهم كثيراً ، ممتعين جداً لدرجة لا أستطيع معها ان أتبرم بهم ، ولست أحب ان

أتولى الحديث ، ولكنني مولع بالاصغاء .. انني لا ابالي اذا كان الناس يهتمون بي أو لا يهتمون،ولا أشعر بالرغبة في الافضاء بما أعرفه الىالآخرين، ولا أحس بالحاجة لردهم الى الصواب اذا زلت بهم القدم . وانك لتستطيع أن تنتزع قسطاً كبيراً من التسلية من الناس المتعبين اذا تذرعت بالصبر ، وما زلت أذكر انني خرجت الى نزهة بالسيارة في بلد غريب مع سيدة أحبت أن تريني الجوار ، وكان حديثها جملة بديهيات ، معتمدة على رصيد ضخم من العبارات المبتذلة التي يئست من تذكرها ، ولكن ملاحظة واحدة أبدتها رسخت في ذهني الى جانب الاقوال الذكية القليلة التي اقبلها عادة . قالت لي حين كنا نجتاز صفاً من المنازل الصغيرة على شاطىء البحر : (هذهأكواخ خاصة بعطلة الاسبوع اذا كنت تفهم ما اقول ، وبعبارة أخرى هي أكواخ يقصدها الناس أيام السبت ويغادرونها أيام الاثنين) . ولشد ما أسفت لما فاتني حينذاك ! !

لست أحب ان اقضي أوقاتاً طويلة مع الغلاظ من الناس ، وكذلك لاأحب أن اقضي وقتاً طويلا مع الأنيسين منهم ، ان مخالطة الناس تتعبني ، واعتقد ان معظم الناس ينتعشون ويرتاحون الى الحديث ، اما عنــدي فهو عبء دوما ، وحين كنت أتعلم في حداثتي كان انفرادي بالكلام ينهكني ، وحتى اليوم بعد أن شفيت نوعاً ما ، مازال الحديث يجهدني ، وكم أشعر بالارتياح اذ أتخلص من الناس وأنصرف الى قراءة كتاب .



- ٢٠ -

لست أزعم لحظة ان تلك السنوات التي قضيتها في مستشفى (سانت توماس) قد أمدتني بمعرفة للطبيعة البشرية كاملة ، ولا أحسب أن ثمة انسانا يطمح أن يتم له ذلك .. لقد دأبت على دراسة الطبيعة البشرية مدة أربعين عاماً ، في شعوري ولا شعوري ، ومازلت عاجزاً عن تبرير تصرفات الناس ، فقد يفجؤني أصدقائي الخلّص بعمل لم أكن قط أحسبهم قادرين عليــه ، أو باكتشاف ناحية جديدة فيهم تفصح عن جانب من نفوسهم لم أكن أرتاب فيه قط . ولعل تدريبي في مستشفى (سانت توماس) تسبب في انحراف نظرتي الى الناس ، لان الذين اتصلت بهم هناك كانوا غالباً مرضى وفقراء وسيئي التعليم ، وقد حاولت أن احتاط لذلك ، كما حاولت أيضا أن أحتاط لطباعي الاصلية ، فليس لي ثقة بالآخرين وانا أميل الى توقع الشر منهم قبل الخير ، وهذه ضريبة ينبغي أن يدفعها كل من كان عنده إحساس بالفكاهة ، ذلك الاحساس الذي يدفعك الى التماس المتعة في تناقضات الطبيعة البشرية ، ويقودك الى سوء الظن بالمهن الكبيرة والبحث عن الدوافع القميئة التي تختفي وراءها . ان المفارقة بين الجوهر والمظهر تسليك حتى انك تعمل على اختلاقها اذا لم تجدها ، وانك لتميل الى الاشاحة عن الحق والجمال والخير لأنهــا لا تعطي مدى لاحساسك بما يضحك . ان عين الفكه تحط بسرعة عــلى المحتالين ولا تعترف دائماً بالقديسين . واذا كانت رؤية الناس من جانب واحد ثمناً باهظاً لحس الفكاهة فلا تنس أن هنــاك تعويضاً له شأنه أيضاً . انك لا تغضب من الناس حين تضحك منهم ، والمرح يعلم التسامح ، وما أجدر الانسان المرح ، وعلى ثغره ابتسامة ، أو ربما تنهدة ، أن يهز كتفيه بدلاً من أن يحاسب الناس . انه لا يطبق المعيار الاخلاقي وحسبه ان يفهم ، وما الفهم،

في الحق ، الا الاشفاق والتسامح • على أنني لا بد أن اعترف ، الى جانب هذه المحفوظات التي حاولت أن أتذكرها دوماً ، بان تجاربي خلال سنوات عمري لم تزدني الا تأكيداً من الملاحظات التي كونتها عن الطبيعة البشرية غير عامد، لانني كنت أصغر من أن أتعمدهاأثناء عملي في عيادة المرضى الخارجيين أو في أروقة مستشفى (سانت توماس) • رأيت الرجال منذ ذلك الحين كما كنت أراهم هناك ، وصورتهم على هذا النحو•• قد لاتكون الصورة حقيقية، واعرف ان كثيراً من الناس اعتبروها غير سارة أيضا ، وهي بدون شـك صورة جزئية ، لانني رأيت الناس طبعاً من خلال مزاجي العقلي ، واجدر بامرىء مستبشر متفائل معافى رقيق المشاعر أن يراهم بشكل مختلف • إن كل ما أستطيع ادعاءه هو انني رأيتهم مترابطين • ويبدو لي أن كثيراً مـن الكتّاب لا يلاحظون أبداً بل يخلقون شخصياتهم في حجوم جاهزة من الصور التي تملأ مخيلتهم ، وما هم الا رسامون يستقون شخصياتهم من القديم ، ولم يحاولوا مرة أن يرسموا نموذجاً حياً ، وكل ما في وسعهم ان يلبسوا شكلا حياً لاوهام عقولهم ، فاذا كانت عقولهم نبيلة أعطوك شخصيات نبيلة، وقد لا يبالون اذ ا كانت شخصياتهم تفتقر الى التعقيد غير المحدود الذي تتصف به حياة الانسان •

لقد صدرتُ دوماً عن النماذج الحية • وأذكر ان المدرس سألني مرة في غرفة المعاينة وكنت أقوم (بدوري) معه عن عصبٍ لم أعرفه ، ولما أخبرني عنه اعترضت لان العصب لم يكن في محله الطبيعي ، ولكنه أصر على انه العصب الذي كنت ابحث عنه عبثاً ، وردّ على اعتراضي مبتسما بأن السوي في التشريح هو غير الشائع • وقد ضايقني الامر حينئذ ولكن الملاحظة رسخت في ذهني ، ومنذ ذلك الحين اعتبرتها صحيحة بالنسبة للانسان كما هي صحيحة في التشريح ، والسوي لا تجده الا نادراً • انه مثالي ، صورة يصوغهـا المرء من وسطي مميزات الناس التي يصعب أن تتوقع توافرها في فرد منهم ، وهذه هي الصورة المزيفة التي يتخذها الكتّاب الذين تحدثت عنهم نموذجاً ،

وبذلك يندر ان تكتسب كتابتهم تأثير الحياة ماداموا يصفون الشاذ فيها • ان الأثرة والإيثار ، والمثالية والحسية ، والغرور والخجل ، واللامبالاة والشجاعة والكسل والعصبية والعناء وضعف الثقة بالنفس هذه الصفات كلها يمكن أن توجد في شخص واحد وان تؤلف انسجاماً مقبولا ، وقد استغرق مني إقناع القراء بهذه الحقيقة وقتاً طويلا •

ولست أفترض أن الناس كانوا في القرون السالفة يختلفون أي اختلاف عن الناس الذين نعرفهم ، ولكن لا بد أنهم ، بالتأكيد ، قد ظهروا لمعاصريهم أشبه بقطعٍ جامدة خلافاً لما نراهم عليه الآن ، والا لما أقدم كتاب ذلك الزمان على تصويرهم على هذا النحو ، فقد بدا لهم معقولا أن يصنفوا كل امرىء ضمن مزاج محدد ، فالبخيل من طراز البخلاء ، والعابث من طراز العابثين ، والفاسق من طراز الفاسقين • ولم يخطر لاي منهم أن البخيل قد يكون عابثاً وفاسقاً ، وكثيراً ما نرى أمثال هؤلاء الناس ، بل قد يكون البخيل مستقيما وشريفاً مع غيرة على المصلحة العامة وحماسة متقدة للفن • وحين بدأ المؤلفون يكشفون عن التضارب الذي وجدوه في أنفسهم ، أو في غيرهم ، اتهموا بأنهم يشوهون الجنس البشري • وكان ستندال — فيما أعلم — أول قاص كشف هذا الامر عامدا في كتابه (الاحمر والاسود) ، مما أثار النقد الادبي في عصره • ولم يسلم حتى من (سانت بوف) الذي لم يكن ينقصه الا تدقيق النظر في صميمه ليكتشف كيف يمكن أن تعيش الصفات المتناقضة جنبا الى جنب في نوع من الانسجام • ان (جوليان سوريل) هو من أمتع الشخصيات التي خلقها الروائيون ، ولست أعتقد ان (ستندال) نجح في جعله مقبولا تماماً ، وذلك لاسباب سأعرض لها في مكان آخر من هذا الكتاب • لقد سارت رواية (ستندال) في الارباع الثلاثة الاولى منهاسلسة متقنة ، ولكن (ستندال) يملؤك بالرعب أحيانا ، ويكون عاطفيا جدا في أحيان أخرى ، وهو يتمتع بتماسك داخلي يجعلك تقبل ما يقوله رغم انه غالبا ما يهزك •

ولكن مثال (ستندال) لم يؤت أكله الا بعد زمن طويل ، و (بلزاك) — على عبقريته — اعتمد على الاسلوب القديم في رسم شخصياته ، وقد أعطاها من حيويته الغامرة ما يجعلك تؤمن بأنها واقعية ، ولكنها — في حقيقة الامر — ليست الا انماطا من الامزجة محدودة تماما كشخصيات الملهاة القديمة • إن أشخاصه لا يُنسون ولكنهم يشاهدون من زاوية العاطفة الجامحة التي ألهبت أولئك الذين كانوا على صلة بهم • إنني افترض ان البشر ميالون بطبعهم الى تصنيف الناس ضمن خطوط جامدة ، ومن الواضح أنه يسهل على المرء إنهاء التردد والحكم رأسا على أي انسان بأنه من الاخيار أو أنه كلب قذر • إن المرء ليرتبك حقاً اذ يجد أن منقذ بلاده قد يكون دنيئا أو أن الشاعر الذي فتح آفاقاً جديدة أمام وعينا قد يكون دعياً ، وأنانيتنا الطبيعية تدفعنا دوماً للحكم على الآخرين في ضوء علاقاتهم بنا •

اننا نريد أن نَطمَئِنّ اليهم ، ومن هذه الزاوية نعرفهم ، أما سائر صفاتهم فنهملها لانها لاتجدينا نفعا •

ولعل هذه الاسباب توضح نفور الناس الشديد من قبول المحاولات التي يبذلها الكتاب لتصوير الانسان بصفاته المتناقضة ، وانصرافهم بأسى عن السِيَر التي تحاول أن تكشف حقيقة المشاهير ، وان المرء يتضايق اذ يتصور أن مؤلف الخماسية في (المايسترسنجر Meistersinger)[1] كان غير أمين في قضايا النقود ، وخان اولئك الذين نفعوه ، وربما لم تكن هـذه المواهب العظيمة لتتأتى له لو لم تصحبها نقائصه العظيمة • ولست أوافق الذين يقولون باخفاء مثالب المشاهير ، بل أُفضّل أن نعرفهم على حقيقتهم ، وحينذاك نستطيع أن نؤمن — مع ادراكنا أن لنا نقائص واضحة كنقائصهم — بأنه ليس هناك ما يحول دون احرازنا للفضائل التي اتصفوا بها •

---

(١) أوبرا لفاغنر (المعرب)

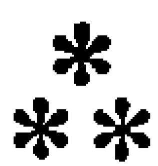
زودني تدريبي في مدرسة الطب بمعرفة ابتدائية بالعلم والأسلوب العلمي، بالإضافة إلى ما خبرته من أمور الطبيعة البشرية • وحتى ذلك الحين كان اهتمامي محصوراً بالأدب والفن فقط • وكانت معرفتي العلمية محدودة جداً لأن المنهج كان ضئيلاً في تلك الأيام ، ولكن هـذه المعرفة فتحت لي درباً يوصل إلى مجال كنت أجهله تماماً • وأخـذت أشعر بالألفة تجاه مبادىء معينة • كان عالم العلم الذي أحرزت منـه معلومات مقتضبة ماديا صرفا ، ولاقت مفاهيمه هوى من نفسي ، واتفقت مع معتقداتي ، فالرجال ـ كمـا قال بوب ـ إذا أعطي لهم الخيار لا يقبلون من أفكار الآخرين إلا ما يتفق مع أفكارهم •

وسرني أن أعلم أن عقل الإنسان (وهو نفسه حصيلة أسباب طبيعية) وظيفة من وظائف الدماغ خاضعة ، كسائر جسده ، لقوانين العلة والأثر ، وأن هذه القوانين هي نفسها التي تتحكم بحركة النجم والذرة ، وهللت إذ فكرت بأن الكون ليس أكثر من آلة هائلة ، يَنْتُج كل حادث فيها عن حادث سابق ، ولا بد أن تأخذ فيه الأمور مجراها المحتوم • ولم تتجاوب هـذه المفاهيم مع غريزتي المسرحية فحسب ، بل أمدتني بشعور لذيذ بالتحرر ، ومع فورة شبابي تحمست لمبدأ بقاء الأصلح • وأرضاني أن اعلم أن الأرض كتلة من الطين تدور حول نجم آخر آخذ بالبرودة تدريجيا ، وأن التطور الذي خلق الإنسان سوف يحرمه ، بإكراهه على التكيف مع بيئته ، من كل الصفات التي أكتسبها ما عدا تلك الصفات الضرورية لتمكينه من الصمود أمام البرد المتزايد حتى يغدو الكوكب الارضي فحمة متجلدة لا مجال فيها لأي أثر للحياة • لقد آمنت أننا لعب" بائسة في يد القدر الغاشم • وقد كَتَبَ

علينا ، بسبب خضوعنا لقوانين الطبيعة التي لا هوادة فيها ، أن نقوم بدورنا في النضال المستمر للبقاء ، وليس من مستقبل سوى الهزيمة المحتومة .

وتعلمت أن الناس مسيّرون بأنانيتهم الضارية ، وأن الحب ليس إلا لعبة للطبيعة قذرة في سبيل بقاء الأنواع ، وقررت أن كل ما يهدف إليه الإنسان زيف وضلال ، ما دام يستحيل عليه أن يهدف إلى شيء غير لذاته الأنانية .

وقد اتفق لي أن قدمت معروفاً لأحد الأصدقاء (ولم أكف عن التفكير في السبب الذي دفعني لهذا العمل ما دمت موقنا أن كل أعمالنا أنانية صرف) . وحين أراد أن يظهر لي امتنانه (وهو امتنان لا محل له لأن عطفي عليه كان واقعا محتوما) وسألني أن أختار الهدية التي أريد طلبت بدون تردد كتاب (المبادىء الأولى First principles) لهربرت سبنسر . وقد قرأته ورضيت به ، ولكن عيل صبري إزاء إيمان سبنسر السقيم بالتقدم ، لأن العالم — في رأيي — كان ينحدر من سيء إلى أسوأ ، وكنت في مثل سرور (بنش Punch) إذ أتخيل أحفادي البعيدين جداً وقد نسوا الفن والعلم والصنعة اليدوية ، وتكوروا في جلودهم داخل الكهوف كلما شعروا باقتراب البرد والليل الأزلي . كان تشاؤمي عنيفاً ، ولكنني تمتعت بحظ وافر من حياتي مدفوعا بحيويتي الغـامرة . وكنت أطمح إلى أن أُصبح كاتباً مشهوراً ، فعرضت نفسي لكل ظرف يمكن أن يتيح لي فرصة للتجارب العظيمة التي صبوت إليها ، ثم إنني أخذت أقرأ كل ما تقع عليه عيني .



في ذلك الحين كنت أعيش مع مجموعة من الشبان خُيِّل إليّ أن لهم من المواهب الفطرية ما يفوق مواهبي . وكانوا يستطيعون أن يكتبوا ويرسموا أو يلحنوا بسهولة أثارت حسدي . وقد رزقوا تذوقاً للفن وغرائز نقدية كنت في يأس من بلوغها . ومن هؤلاء من توفي دون أن يحقق شيئاً من البوادر التي شمتها فيه ، والباقون ما زالوا أحياء ، وليس لهم نبوغ يذكر . والآن أدرك أن البوادر التي رأيتها فيهم لم تكن إلا طبيعة الشباب الخلاقة . إن كتابة الشعر والنثر ، وعزف بعض النغمات على البيانو ، ورسم بعض الخطوط ، أمور غريزية عند كثير من الشبان ، وهي نوع من اللعب ناتج عن فورة الشباب ليس من الأهمية أكثر مما يكون لبناء قلعة يقيمها طفل على الرمال . وأحسب أن سذاجتي هي التي جعلتني أعجب كثيراً بمواهب أصدقائي ، ولو كنت أقل جهالة لأدركت حينذاك أن آراءهم التي بدت لي أصيلة كانت مبتذلة ، وأن أشعارهم وموسيقاهم ناتجة عن ذاكرة مرددة لا عن خيال مبدع ، وما أريد أن أقوله هو أن هذه الصفة شائعة في الشباب ، إن لم أقل عامة ، لدرجة لا تسمح ببناء أي حكم عليها . إن الشباب هو الإلهام ، ومن مآسي الفنون مشهد ذلك العدد الضخم من الناس الذين أغواهم هذا الخصب العابر ، وزين لهم أن يكرسوا حياتهم كلها من أجل الإبداع . إن الإبداع يهجرهم كلما تقدموا في السن ، وإذا بهم أمام السنوات الطوال التي بقيت من أعمارهم ــ وهي سنوات لم يعد يلائمها الآن مزيد من الكد ــ إذا بهم يعتصرون أدمغتهم المنهكة ، كيما تقدم مادة هي غير قادرة على تقديمها . وما أوفر حظهم حين يستطيعون – رغم ما في ذلك من مرارة – أن يكسبوا قوت يومهم من مهنةٍ كالتعليم أو الصحافة ذات صلة بالفن .

وبالطبع ، يخرج الفنان من بين أولئك الذين يتمتعون بالاستعدادالفطري، وبدون ذلك لايمكن أن تنمو موهبة • على أن هذه الموهبة جزئية ، وكل منا يبدأ حياته في ضوء عقله المنعزل ، ثم نبدأ ببناء العـالم الخارجي ليناسب حاجاتنا اعتماداً على المعلومات التي نكتسبها واتصالاتنا بالعقول الأخرى • ولأننا جميعاً نتاج عملية تطورية ، ولأن بيئتنا واحدة ، فإن أبنيتنا تأتي متشابهة تقريباً ، ورغبة في البساطة والتلاؤم ، فإننا نعتبر هذه الأبنية متطابقة وتتحدث عن عالم خارجي واحد • ومما يميز الفنان أنه يختلف عن الناس في بعض الأمور وبذلك يكون عالمه الخارجي مختلفاً أيضاً • وهذه البنية العقلية هي خير عدة للفنان ، وحين تستهوي الصورة التي يرسمها من عالمه الخاص عدداً معيناً من الأشخاص ، إما بسبب غرابتها ، أو جمالها الذاتي ، أو اتفاقها مع استعداداتهم (لأنه ما من أحد منا مثل جاره تماماً ، بل هناك شبه تقريبي ، وما من أحد يقبل العالم المشترك بيننا بجميع نواحيه) ، حينذاك تحرز موهبته القبول • وإذا كان كاتباً فهو يسد حاجة في طبع قرائه الذين يتجهون معـه إلى حياة روحية تقرّ بها أعينهم، أكثر مما تقرّ بظروف الحياة المفروضة عليهم• ولكن هناك أناسا لا تستهويهم هذه البنية العقلية ، ولا يطيقون صبراً عـلى العالم الذي صنعته ، بل ربما ثاروا عليه ، وحينئذ لا يكون لدى الفنان شيء يقوله لهؤلاء الذين ينكرون موهبته •

لست أعتقد أن العبقرية شيء مختلف كل الاختلاف عن الموهبة ، بل لست متأكداً أنها تعتمد على أي اختلاف كبير في ملكات الفنان الطبيعية • فمثلا لست أعتقد ان سيرفانتس توافرت له ملكة استثنائية للكتابة ، ومـع ذلك قلّ من ينكر عليه عبقريته • وليس من السهل أن نجد في الأدب الإنكليزي شاعراً ذا ملكة أوفر من ملكة (هريك Herrick) ومع ذلك لن يدعي أحد أنه كان يتمتع بأكثر من موهبة حسنة • ويبدو لي أن العبقرية تتكون من اجتماع الملكات الطبيعية للإبداع ، مع بنية عقلية تمكن مالكها من رؤية العالم بأقصى درجات الشخصية ، وفي الوقت نفسه بشمول لا يستهوي

نمطاً من الناس دون آخر ، بل يستهوي الناس جميعاً • إن عالمه الخاص هو العالم المشترك للناس ، ولكنه أغنى وأشد تركيزاً • ومداه يشمل الكون كله مع أن الناس قد لا يستطيعون إدراك مراميه ، ولكنهم يشعرون بأهميتها •• إن العبقري سويّ بشكل رائع ، وبفضل مصادفة سعيدة من الطبيعة يرى الحياة بمنتهى الحيوية كأنها اللحن في أوجه ، فيطّلع عليها ، بما فيها من تضارب لا نهائي ، اطلاعاً سليماً كأقصى ما يستطيعه الجنس البشري • وفي كلمات (مثيو أرنولد) يراها رؤية قوية شاملة •

ولكن العبقرية تظهر مرة أو مرتين في كل قرن • وهنا تنطبق قاعدة علم التشريح : السويّ هو النادر • ومن السخف أن نجاري تلك الجمهرة من الناس التي تسارع لإطلاق لقب العبقرية على كل من كتب نصف دزينة من المسرحيات الذكية أو رسم بضع لوحات جيدة • ان التمتع بالموهبة شيء جميل وما أقل من يتمتع بها •• وبالموهبة لا يستطيع الفنان أن يتخطى الدرجة الثانية ، وينبغي أن لا يسوءه ذلك ، لأن الدرجة الثانية تحوي أسماء كثيرين ممن قدموا إنتاجاً ذا مزايا غير عادية • ولن يساور الفنان أي خجل حين يتذكر أن كتاب الدرجة الثانية أنتجوا روايات مثل (الأحمر والأسود) وأشعاراً مثل (فتى شروبشير The Shropshire Lad) ، وإذا كانت الموهبة عاجزة عن بلوغ الذرى فإنها قادرة على الكشف عن مشاهد حلوةغير متوقعة، عن غابة غير مطروقة ، أو جدول ذي خرير غريب أو كهف رومانتي ، وبذلك تضع المرء في الطريق المؤدية إلى الذرى •

ومن غرائب النفس الإنسانية أنها قد تحجم حين يتاح لها أن تطلع على الطبيعة البشرية بأوسع أبعادها ، وقد تنفر من روعة (الحرب والسلم) لتولستوي لكي تقبل راضية على (كانديد) لفولتير ، ومن الصعب أن نعيش دوماً مع سقف (ميشيل أنجلو) في كنيسة (سيستين) ، ولكن كل إنسان يستطيع أن يعيش مع رسوم (كونستابل) في كاتدرائية (سالزبوري)•

إن عواطفي محدودة ، ولا أستطيع أن أكون غير نفسي • لأن نفسي بسبب تكوينها الطبيعي من جهة ، وبسبب ظروف حياتي من جهة ثانية ، إنما هي نفس متحيزة ولست بالشخص الاجتماعي ، ولا أستطيع أن أثمل إلى درجة أن أشعر بالحب العظيم لرفاقي ، إن التسليات الجماعية تضايقني دوماً ، وإذ يشرع رواد حانة الشرب أو ركاب قارب للنزهة بالغناء ، تجدني صامتاً ، ولا أذكر أنني غنيت ترتيلة في حياتي • إنني لا أحب أن أكون عرضة للتأثر، وكثيراً ما أضغط على نفسي كي لا أنسحب حين يلف أحد الناس ذراعه على ذراعي • ولا أستطيع أبداً أن أنسى نفسي • إن هستيريا العالم تكدرني وأشعر بغربة لا تدانيها غربة حين أجد نفسي وسط جمهور واقع تحت تأثير شعور عارم بالحزن أو بالسرور ، ومع أنني جربت الحب عدة مرات إلا أنني لم أمارس أبداً نعمة الحب المتبادل ، وأعرف أن هذا خير ما يمكن أن تقدمه الحياة ، وهو أمر تمتع به معظم الناس ، ولكن ضمن فترة قصيرة على الأرجح • أحببت كثيراً أولئك الذين لم يهتموا بي ، وأظهروا اهتماماً قليلاً بي ، وضقت ذرعاً بالذين أحبوني ، ولم أعرف كيف أعالج هذهالعقدة ، وكثيراً ما أظهرت لهم عواطف لم أشعر بها ، لكي لا أوذي مشاعرهم ، وقد حاولت أن أتملص من الالتزامات التي قيدتني بها محبتهم باللين إذا أمكن ، وإلا فبالشدة ، لقد انتابتني غيرة من استقلالي ، ولست قادراً أن استسلم استسلاماً كاملا ، وهكذا ، مادمت لم أشعر أبداً ببعض الانفعالات الأساسية عند الإنسان السوي ، فإنه يستحيل أن تتوافر في إنتاجي الألفة واللمسة الإنسانية العريضة ، والصفاء الحيواني •• هذه الصفات التي لا تتوافر إلا في إنتاج الكتاب العظام •

- ٢٣ -

من الخطر اطلاع الجمهور على ما خلف المشاهد ، فأوهامه تنكشف إذ ذاك ويستبد به الغضب لأن مايحبه هو الوهم ، ولا يستطيع الجمهور أن يفهم أن اهتمامك ينصب على الطريقة التي تمكنت بها من خلق الوهم . لقد كف النـــاس عن قراءة (أنتوني ترولوب) ثلاثين عاما لأنه اعترف أنه كان يكتب في ساعات منتظمة ويحاول جهده الحصول على أغلى سعر لإنتاجه .

أما بالنسبة لي فقد سبق السيف العذل الآن ، وسوف يسوءني كثيراً أن أخفي الحقيقة ، ولا أحب أن يمنحني امرؤ من تقديره أكثر مما أستحق . ليقبلني المحبون كمــا أنا ، وليعرض الآخرون عني . إن طبيعتي أقوى من دماغي ، ودماغي أقوى من موهبتي النوعية . وقد أفضيت بذلك منذ سنوات إلى ناقد مبدع مرموق ، ولا أدري ما الذي دفعني إليه مادمت غير ميال إلى الحديث عن نفسي في الأماكن العامة .. حدث ذلك في (مونديدييه) أثناء الأشهر الأولى من الحرب ، وكنا نتناول غداءنا في الطريق إلى (بيرون) ، بعد أيام من الإنهاك الشديد ، ووجدنا متعة في إطالة المكوث حول المـــائدة التي بدت لنا ، ونحن متفتحو الشهية ، جيدة بصورة غير عادية . وأحسب أن الخمر لعبت برأسي ، وأنني أُخذت باكتشافي ، من تمثال في السوق ، أن (مونديدييه) كانت مسقط رأس (بارمينتييه) الذي أدخل البطاطا إلى فرنسا . وعلى أي حال وجدتني أندفع، أثناء تعاطي القهوة والمشروب، لإعطاء تحليل دقيق لموهبتي . ودهشت إذ قرأت هذا التحليل بعد سنوات على أعمدة إحدى الصحف المهمة وبكلماتي نفسها تقريبا . لقد تضايقت قليلاً لأن هناك فرقا بين أن تقول الحقيقة عن نفسك وأن تسمع غيرك يسردها ، وتمنيت لو

أنّ الناقد أطراني بقوله إنه سمعها من فمي • ثم ثبّت إلى نفسي ، وبدا لي طبيعياً أن يود الناقد الاعتقاد بأنه على جانب كبير من نفاذ النظرة ، وكانت هذه هي الحقيقة • ومن سوء حظي أن الناقد كان يتمتع بنفوذ كبير ، وأعيد ماقاله عني مراراً • وفي لحظة أخرى من لحظات الصراحة أخبرت قرائي أنني أعتمد على الصنعة اعتماداً غير عادي ، ولعل النقاد لم يكونوا قادرين على اكتشاف هذا الأمر لولا تصريحي هذا ، ولكنهم ألصقوا بي هذه الصفة منذ ذلك التاريخ ، وبشيء من الانتقاص ، وبدا لي عجيباً أن عدداً كبيراً من المهتمين بالفن ، ولو اهتماماً سطحياً فقط ، ينظرون إلى الصنعة بقليل من الرضى •

وعلمت فيما علمت أن في المغنين من هو مطبوع وفيهم من هو مصنوع • والمغني المصنوع ، بالرغم مما قد يتمتع به من صوت لا بأس به طبعاً ، مدين في كفايته لحسن الاعداد والتدريب ، ويستطيع ، بالذوق والقدرة الموسيقية، أن يعوض شيئا من الفقر النسبي في أعضائه الصوتية ، وغناؤه يوفر متعة كبيرة ولاسيما للمطلعين ، ولكنه لايستطيع أن يحرك النشوة في نفسك كما تفعل الأنغام الصافية المغردة من فم المغني المطبوع • قد يكون المغني المطبوع غير مدرب تدريباً كافياً ، وقد تنقصه المعرفة أو المهارة ، وقد ينتهك كل قواعد الفن ، ولكن يظل لصوته سحر يأسر القلوب • وأنت تغفر له تصرفاتهوسوقياته واستهواءه للانفعالات الواضحة حين يسحر أذنك صوته السماوي • وأنا كاتب مصنوع ، ولكنني أكون مغروراً إذا زعمت أن ماتوصلت اليه من النتائج راجع إلى خطة طبقتها على نفسي عمداً • لقد جرتني دوافع بسيطة إلى دراسات مختلفة ، والآن فقط ، إذ أعود القهقرى بذاكرتي ، أكتشف أنني كنت أتجه باللاوعي إلى نهاية معينة ، هي تنمية شخصيتي والتعويض بذلك عن النقائص في موهبتي الطبيعية •

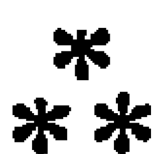
لقد أوتيت ذهناً منطقياً واضحاً ، ولكنه ليس لطيفاً جداً ، ولا قوياً جداً ،

ولطالما تمنيت لو كان أفضل ولطالما سخطت عليه لأنه عجز عن تحقيق ماأردت منه • وكنت أشبه برياضي لايستطيع أن يقوم بأكثر من الجمع والطرح ، ومع أنه يود لو عالج مختلف العمليات المعقدة ، إلا أنه يعرف ببساطة أنـه لا يستطيع ذلك • لقد استغرقت وقتاً طويلا حتى تعودت أن آخذ من نفسي خير ما عندها • وكان ذهنا جيداً ذاك الذي أتاح لي النجاح في كل مهنـة مارستها •• انني لست من ذلك الطراز من الناس الذين لايحسنون شيئـاً سوى اختصاصهم ، وفي الحقوق والطب والسياسة ظهرت لي جدوى العقل الواضح والنظرة النافذة في الناس •

كانت لي ميزة واحدة ، هي أنني لم أفتقر أبداً إلى الموضوع ، ووجدت في رأسي من القصص دوماً أكثر مما أتاح لي الوقت أن أكتبه ، وكثـيراً ماسمعت الكتّاب يشكون من أنهم يريدون أن يكتبوا ولكن ليس لديهم مايكتبون عنه ، ومازلت أذكر كاتبة مرموقة أخبرتني أنها كانت تقرأ بعض الكتب التي تلخص كل ماورد في القصص من حبكات لعلها تجد موضوعاً• أما أنا فلم أواجه مثل هذه العقبة أبداً ، فمثلي كمثل (سويفت) الـذي كان – كما نعلم – يدعي أنه يستطيع أن يكتب في أي موضوع كان ، وحين طلب إليه أن يكتب خطاباً عن يد المكنسة أدى المهمة على خير مايرام • ولعلي لم أقض ساعة في صحبة أي إنسان إلا حصلت على مادة تكفي على الأقل لكتابة قصة مقروءة عنه •

وجميل أن يكون لدى المرء هذه الكثرة من القصص ، فمهما كان مزاجه فلديه قصة يستطيع أن يجيل خياله فيها ساعة أو ساعتين خلال أسبوع أو أسبوعين • إن الحلم هو أساس الخيال المبدع ، وهو ميزة الفنان ، لأنه عند الفنان ليس هرباً من الواقع كما عند الآخرين ، ولكنه وسيلة إلى الإيغـال فيه • وأحلام الفنان هادفة ، وهي تمده ببهجة تتضاءل عندها مباهج الحواس، وتحقق له منتهى حريته ، فليس غريباً إذاً أن يجد الفنان نفسه غير راغب

في أن يستبدل بهذه المتعة الكدح وفقدان القدرة على التنفيذ ؟• ومع أنني أوتيت من الابتكار أنواعا ، وهذا ليس غريباً مادام الابتكار حصيلة التنوع في بني الإنسان ، إلا أن قوة الخيال عندي كانت محدودة • وقد كنت أنتقي الأحياء وأضعهم في مواقف مأساوية أو هَوْلية حسبما توحي به شخصياتهم • ولم أكن قادراً على تلك السبحات العظيمة المستديمة التي تحمل المؤلف على أجنحة عِراض إلى الأجواء السماوية • وخيالي الذي لم يكن قوياً أبداً كنت أكبحه بحدود الإمكان • لقد رسمت صوراً ذات أطر محدودة، لارسوماً جدارية رحبة المجال •



لشد ماتمنيت لو أن الله أتاح لي إنسانا ذا حس سليم يتولى توجيه مطالعتي ، وإني لأتحسر إذ أفكر في الأوقات الطويلة التي أضعتها في قراءة كتب لم تكن ذات جدوى كبيرة لي • إن التوجيه القليل الذي أتيح لي ، يعود الفضل فيه إلى شاب أتى ليعيش مع العائلة نفسها التي كنت أقطن عندها في (هيدلبرج) ، وهو حينذاك في السادسة والعشرين من عمره • وكان قد أنهى دراسته في (كامبرج) واستدعي ليعمل في المحاماة ، ولكنه قرر أن يكرس نفسه للأدب بعد أن نفر من الحقوق ، كان يملك كمية صغيرة من النقود تقوم بأود عيشه في تلك الأيام التي لم تعرف الغلاء • وقصد الشاب (هيدلبرج) ليتعلم الألمانية ، واتصلت معرفتي به مدة أربعين عاماً حتى أدركته الوفاة ، وقد أمضى السنوات العشرين الاولى يسلي نفسه بالتفكير فيما ينبغي أن يكتب حين تواتيه نفسه ، وأمضى السنوات العشرين الأخيرة يفكر فيما كان يستطيع أن يكتبه لو أن الظروف كانت أكثر مواتاة• لقد نظم شعراً كثيرا ، ولكنه كان يفتقر إلى الخيال وإلى حرارة العاطفة وإلى الأذن المرهفة •• وأمضى سنوات في ترجمة محاورات أفلاطون التي ترجمت كثيراً من قبل ، ولكنني أشك في أنه أنجز أياً منها حتى النهاية ، فقد كان محروماً تماماً من قوة الإرادة ، وكان رقيق الحس فارغا مغروراً • وكان ، على قصره ، وسيما ذا قسمات واضحة ، وشعر جعد ، وعينين زرقاوين شاحبتين ، ونظرات ظامئة ، يخيل إليك أن مظهره هو المظهر الطبيعي للشاعر • وبدا في شيخوخته ، بعد حياة من الخمول المتواصل ، أصلع هرماً ذا مظهر زهدي ، تحسبه باحثاً قضى حياته في بحث مجرد ذي شأن ، وفي نظراته روحية تذكرك بالشك المنهك الذي يعتري فيلسوفاً فضّ غيوب الوجود فلم يجد سوى

العبث • وإذ بدّد ثروته الصغيرة بالتدريج ، فقد فضل أن يقتات من كرم الآخرين على أن يعمل ، ولم يَقْوَ أبدا على التوفيق بين الأمرين • على أن قناعته النفسية جعلته يحتمل الفقر باستسلام ، والإخفاق بلا مبالاة • ولست أعتقد أنْ قد خطر له مرة أنه وهم أجوف • كانت حياته كلها كذبة كبيرة ، ولكنني أجزم انه لو أتيح له أن يلقي نظرة على حياته في ساعات وداعها ، وهو مالم يحدث لحسن حظه ، لظن انه أحسن صنعاً في حياته • كان جذاباً خالياً من الحسد ، غير قادر على القسوة مع انه كان من الانانية بحيث لايحسن إلى أحد • وكان ذا قدرة حقيقية على تذوق الأدب • وخلال النزهات الطويلة التي قمنا بها فوق تلال (هيدلبرج) كان يحدثني عن الكتب ، وعن ايطاليا واليونان – ولم يكن يعرف أياً منهما – حتى ألهب خيالي الفتي وبدأت أتعلم الايطالية • وتقبلت كل ما كان يقوله لي بحماسة المهتدي الى دين جديد • وما كان لي أن ألومه لأنه أثار في نفسي إعجاباً دافئاً بمؤلفات ، ظهر لي بعد ذلك أنها لا تستحق كل هذا الاعجاب • وحين وصل هيدلبرج ، وجدني اقرأ (توم جونز) التي استعرتها من المكتبة العامة ، فأخبرني إن قراءتها أمر مقبول ، ولكنني أُحسن صنعاً لو قرأت (ديانا في مفترق الطرق)•• حتى في ذلك الحين كان أفلاطونياً وأعطاني ترجمة (شلي) للمحاورات وحدثني عن (رينان) و (الكاردينال نيومن) و (مثيو أرنولد) ووصف الأخير بأن ثقافته ناقصة وحدثني عن (قصائد وأناشيد) لسوينبرن وعن عمر الخيام وأسمعني ، خلال النزهات ، كثيراً من رباعياته التي كان يحفظها عن ظهر قلب • وكنت موزعاً بين النشوة الرومانتيّة للمادة ، وبين طريقة (براون) المزعجة في الأداء ، فقد كان ينشد الشعر مثل خوري في كنيسة عالية ، ينغم التراتيل تحت قوس سيء الإضاءة • ولكن الكاتبين اللذين كان الاعجاب بهما واجباً ــ إذا أراد المرء أن يكون مثقفاً حقيقياً لا بريطانياً فج الثقافة ــ هما (ولتر باتر) و (جورج مردث) • وكنت على استعداد تام لأن أفعل مايقال لي كي أبلغ هذا الهدف المرتجى ، فأقدمت على قراءة (حِلاقة شغبات)

بعاصفة من الضحك • ثم قرأت روايات (جورج مردث) واحدة إثر أخرى • ووجدتها بديعة ، ولكنها لم تكن بديعة الى الحد الذي تظاهرت به • كان إعجابي مصطنعاً مدفوعاً برغبتي في أن أظهر بمظهر الشاب المثقف ، وقد خدرت نفسي بحماستي الخاصة ، وما كنت لأصغي الى ذلك الواعز الضئيل الذي ما انفك يهتف بي ، والآن أدرك أن هذه الروايات تحوي قسطاً كبيراً من التهريج ، ولكن الغريب في الامر انني اذ اقرأ هذه الروايات ثانية أعود إلى الأيام التي قضيتها في قراءتها للمرة الاولى،وهي تمدني اليوم بالصباحات المشمسة ، وبالذكاء المتيقظ ، والأحلاماللذيذة إبانالشباب ، حتىإنني إذ أُطبق رواية لمريدث (إيفان هونجتون مثلا) وأقرر أنّ زيفها منهك وتحذلقها منفر، ولفظيتها لا تحتمل ، وانني لن اقرأ سواها ، سرعان مايذوب قلبي ، ويقرّ في نفسي انها عظيمة •

أما (ولتر باتر) فلا يخامرني مثل هذا الشعور تجاهه ، ولم تتغير درجة قدرته على إثارتي ، وليس له عندي من الارتباطات السارة ما يمنحه مزية ليست من حقه • انني أجده بليداً كصورة (لألما تاديما) ، واستغرب كيف يمكن أن ينال نثره الإعجاب على تقطعه وخلوه من الهواء النقي •• انه قطعة موزاييك أنشأتها يد غير فائقة المهارة لتزيين جدران غرفة طعام في محطة ، وان (باتر) لينفرني بموقفه من الحياة ، ذلك الموقف الصومعي السخيف المهذب الجامعي باختصار • إن الفن ينبغي أن يتذوق بعنف وحماسة لا بأناقة فاترة واعظة تتخوف من أي نقد • ولكن (ولتر باتر) كان مخلوقاً ضعيفاً ، وليس من ضرورة لأن نحكم عليه بعنف ، ولست أكرهه لنفسه بل لأنه مثال للنموذج الأدبي الشائع المقوت ، نموذج الشخص الذي أشبع بغرور الثقافة•

ان قيمة الثقافة تكمن في تأثيرها على الشخصية ، وهي لا تساوي شيئاً ما لم تَسْمُ بالشخصية وتمدها بالقوة • ان فائدتها مرتبطة بالحياة ، وهدفها الخير لا الجمال ، وكثيراً ماتبعث في نفس الانسان رضى وسروراً • ومن

منا لم ير ابتسامة الباحث العريضة اذ يصحح خطأ في رواية قول مأثور ، ونظرة الناقد الفني المتأملة اذ تمتدح أمامه لوحة لم يلتفت اليهـا من قبل ؟ ليس لقراءة ألف كتاب من القيمة ما يفوق فلاحة الف حقل ، كما ان القدرة على إنشاء وصف صحيح للوحة ليس لها من القيمة ما يفوق إصلاح سيارة معطوبة • ففي كلتا الحالتين نجد نوعاً خاصاً من المعرفة ، سواء عند الفلاح ، أو عند الميكانيكي ، وما أشد سخف المثقفين إذ يعتقدون ان معرفتهم وحدها هي ذات الشأن ، وليس الحق والخير والجمال من احتكار أولئك الـذين تخرجوا من المدارس البـاهظة التكاليف وانغمسوا فـي المكتبات وترددوا على المتاحف •

ليس للفنان أي حق في التعالي على الآخرين •

وما أشد حمقه اذ يعتقد ان معرفته أهم من معارف غيره ، وما أشد جبنه إذا لم يجر معهم مرتاحا في مضمار واحد ، وقد أساء (مثيو أرنولد) الى الثقافة إساءة بالغة بإصراره على تعارضها مع المعرفة المادية والعادية •

***

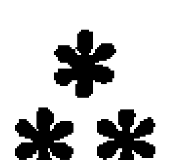
في الثامنة عشرة عرفت الفرنسية والالمانية وشيئاً من الايطالية ، ولكنني كنت ضئيل الثقافة وأحسست إحساساً عميقاً بجهلي • وأخذت اقرأ كل مايقع تحت يدي ، لقد بلغ بي الفضول درجة رغبت معها ان اقرأ كتاباً عن تاريخ البيرو ، أو مذكرات راعي بقر ، كما رغبت ان اقرأ بحثاً عن الشعر البروفنسالي أو اعترافات القديس أوغسطين • وأعتقد ان ذلك أمدني بقسط من المعرفـة العامة التي تعود بالنفع على الروائي •• ان المرء لايدري متى يحتاج الى شيء من تلك المعلومات التي لا يؤبه بها عادة • وقد كتبت قوائم باسماء الـكتب التي قرأتها ، وبقيت عندي احداها بالمصادفة ، وهي تحتوي قراءاتي مـدة شهرين •• ولو لم أكن أنا الذي أعددتها لنفسي لما صدقت انها حقيقية •• انها تشير الى انني قرأت ثلاثا من مسرحيات شكسبير ، ومجلدين مـن (تاريخ روما) للسيد مومسن وقسما كبيراً من كتـاب لانسون (الأدب الفرنسي) وروايتين أو ثلاثا ، وبعض الروائع الفرنسية الكلاسية ، ومؤلفين علميين ، ومسرحية لإبسن • لقد كنت بالفعل تلميذاً مجداً ، وخلال إقامتي في (مستشفى القديس توماس) تابعت دراسة الانكليزية والفرنسيةوالايطالية والأدب اللاتيني • وقرأت كمية من كتب التـاريخ ، وشيئا من الفلسفة ، وقسطا وافراً من العلم ، وكان نهمي للقراءة أقوى من أن يسمح لي بـأن أتوقف لأُفكر فيما أقرؤه ، كنت أتحرق شوقاً لانجاز الكتاب الذي فـي يدي لكي أشرع بقراءة كتاب جديد • وكان ذلك نوعا من المغامرة إذ أقبلت على قراءة المؤلفات المشهورة بمثل الاثارة التي تدفع شابا مدركاً لأن يخرج عن طوره ، أو فتاة الى حلبة الرقص ، ومن حين لآخر يسألني الصحفيون الباحثون عن مادة للطبع ، عن أشد اللحظات اثارة في حياتي ، ولولا الخجل

لكنت أجيب بأنها اللحظة التي بدأت فيها قراءة (فاوست) لـ « غوته » •• انني لم أنس أبداً هذا الشعور وحتى الآن ، مازالت الصفحات الاولى من بعض الكتب تدفع الدم حاراً في عروقي • ان القراءة عندي راحة كالحديث أو لعب الورق عند الآخرين ، بل انها أكثر من ذلك ، انها ضرورة لو حرمت منها لحظة لثارت نفسي كما تثور نفس مدمن حرم من جرعته ، وخير عندي أن أقرأ جدول مواعيد ، أو دليلاً ما ، من ألا أقرأ شيئاً على الاطلاق •• لقد قضيت ساعات مبهجة اسرح بصري في قائمة الاسعار الخاصة بمخازن الاسطول والجيش ، وقوائم باعة الكتب المستعملة ، والأبجدية ، وإن هذه الاشياء لفياضة بالرومانتية وأكثر امتاعا من نصف ماكتب من الروايات •

ولم أتخل عن الكتب الا لانني شعرت بأمن الزمن أخذ يمضي وبأن عليّ أن أعيش •• لقد انخرطت في العالم لان ذلك كان خبرة لابد منها لممارسة الكتابة ، وكذلك لانني رغبت في أن أخوض التجربة لذاتها ، ولم أكن لاكتفي بأن أكون كاتبا فقط • الخطة التي وضعتها لنفسي حتمت عليّ أن أفعل أقصى ما أستطيع لاقوم بدوري الرائع كرجل في هذا الوجود ، لقد رغبت أن أقاسي الآلام المشتركة وأستمتع باللذائذ المشتركة التي هي جزء من المصير الانساني المشترك • ولم أجد مبرراً لاخضاع دواعي الحس لنداء الروح المغري وصممت على أن أبلغ غاية ما أستطيعه من مخالطة الناس ، ومن الطعام والشراب ، ومن العلاقات الاجتماعية ، ومن الفتيات ، ومن الترف ، والرياضة ، والفن ، والسفر ، ومن أي شيء كان ، على حد تعبير هنري جيمس •• ولكن ذلك تطلب جهداً ، وكنت دائما أعود مرتاحاً الى كتبي وصحبة نفسي •

ومع انني قرأت كثيراً جداً ، أقر بأنني قارىء سيء ، أقرأ ببطء ، ولا أقوى على القفز ، ويصعب عليّ أن أترك كتابا قبل أن أتممه مهما كان سيئاً أو مضايقاً • إنني أستطيع أن أعد على أصابعي تلك الكتب التي لم أنهها من

الدفة الى الدفة ، ومن جهة أخرى ، هناك كتب قليلة قرأتها مرتين ، وأنا أعلم أنّ كثيراً من الكتب لاتكتمل الفائدة منها إلا اذا أُعيدت قراءتها ، ولكنني بقراءتها الاولى أخذت منها كل مافي وسعي أن أستوعبه في ذلك الوقت ، إنها ثروة دائمة لي رغم انني قد لا أذكر تفصيلاتها ، وأعرف أناسا يقرؤون بعيونهم لابعقولهم ، والقراءة عندهم تمرين آلي كادارة أهل التبت لعجلة الصلاة ، وهو عمل غير مؤذ بلاشك ، ولكنهم يخطئون اذا اعتقدوا أنه عمل ذكي .



في شبابي ، لم أكن لأتردد في اتهام نفسي بالخطأ حين يختلف شعوري الغريزي حول كتاب ما ، عن آراء النقاد ذوي الشأن فما كنت أدري وقتذاك ان النقاد كثيراً مايتبنون الآراء المألوفة ، ولم يخطر لي انهم يستطيعون الكلام بلهجة الواثق على أمور لا يعرفون الكثير عنها • وقد اكتسبت الآن ثقة أكيدة بمحاكمتي الخاصة ، لانني لاحظت ان المشاعر الغريزية التي أحسست بها تجاه الكتاب الذين قرأتهم منذ أربعين سنة ، والتي لم آبه لها حينذاك ،بسبب مخالفتها للآراء السائدة ، قد حازت اليوم قبول معظم الناس ؛ على أنني مازلت أقرأ جانبا وافراً من النقد لانني أجده شكلا محببا جداً من أشكال الإنشاء الأدبي ! ان الإنسان ليجد تسلية في الموافقة حينا ، والمعارضة حينا آخر ، ويلذ له دائما أن يعرف مايمكن أن يقوله رجل ذكي عن كاتب مثل (هنري مور) ، أو (ريتشاردسون) ممن لم تسنح لك الفرصة أن تقرأهم •

إن الجانب المهم من الكتاب هو مايعنيه الكتاب في نظرك ، فقد يجد النقاد فيه معاني أعمق بكثير مما وجدته ، ولكن ذلك لن يجديك كثيراً • ولست أقرأ الكتاب من أجل الكتاب بل من أجل نفسي ، وليس من شأني أن أحكم عليه ، ولكنني أتشرب منه ما أستطيع ، كما يمتص الأميب جزءاً من جسم غريب عنه ، ولا شأن لي بما لا أستطيع تمثله ، فلست باحثا ، ولا تلميذاً ، ولا ناقداً ، وإنما أنا كاتب محترف أقرأ الآن مايفيدني في حرفتي •• ان في وسع أي امرىء ان يضع كتابا ينقض فيه كل الأفكار التي اعتنقت منذ قرون عن البطالسة فاذا بي أتجنب قراءته ، كما يستطيع أن يصف رحلة مغامرة لا تصدق في قلب (بتاغونيا Patagonia) فإذا أنا باق على جهالتي بها ••• ذلك ان القاص لايحتاج لان يكون خبيرا في أي موضوع عدا

موضوع بحثه ، بل ان ذلك يؤذيه مادامت الطبيعة الانسانية ضعيفة أمـام الاغراء الذي يزين لها أن تضع المعرفة في غير محلها • والروائي تساء نصيحته اذا دُفع لان يفرط في العناية الفنية ، ان العادة التي جرى عليها الكتّاب في السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسـع عشـر ، بتكديس المصطلحات الفارغة ، كانت عادة متعبة ، فمن الممكن أن يصح الصحيح بغير هذه الطريقة التي تدفع مقابل خلق الجو المناسب ثمنا غاليا من التكلف • وعلى الروائي أن يلم بالقضايا التي تشغل الناس الذين يتخذهم موضوعاً له ، ولكن يمكنه بوجـه عـام أن يكتفي بالقليل من ذلـك ، وعليـه أن يجتنب الحـذلقة بأي ثمن ، مع أن الميدان يظل واسعاً حتى ضمن هذه الحدود ، ولقد حاولت أن أحصر قراءتي بالمؤلفات ذات الاهمية بالنسبة لاهدافي •

إنه ليس في مقدورك أن تعرف أشخاصك المعرفة الكافية ، والسير ، والمذكرات ، والاعمال الفنية ، تعطيك غالبا تفاصيل حساسة أو لمسات غنية أو خواطر كاشفة ، مما لاتستطيع أن تأخذه من النموذج الحي ، ذلك ان الناس يصعب فهمهم ، ولاتستطيع الا بعد لأي أن تحملهم على الافضاء اليك بالتفصيلات الخاصة عن أنفسهم التي يمكن أن تكون ذات نفع لك ، وعيبهم انك لاتستطيع غالبا أن تلقي نظرة عليهم ثم تطرحهم كما تفعل بالكتاب ، ان عليك في حالتهم ، أن تقرأ المجلد كله على علاته ، لتجد في النهاية أنْ ليس لديه الشيء الكثير الذي يفضي به اليك ••

أحيانا ، يجاملني الناشئون ، الراغبون في الكتابة ، فيسألونني عما ينبغي لهم أن يقرؤوه من الكتب ، فأفعل ذلك ، ولكنهم نادراً ما يقرؤونها لانهم فيما يبدو ، يتمتعون بحظ ضئيل من حب الاستطلاع ، ولا يعنيهم أن يعرفوا ما أنتجه أسلافهم ، ويظنون انهم عرفوا كل ماينبغي معرفته من فن القصة بعد أن قرؤوا روايتين أو ثلاثاً للسيدة (وولف) ورواية لـ :ف• م• فورستر، وعددا من روايات د• هـ• لورنس • وأعجب من ذلك أنهم يقرؤون ملحمة فورســايت (Forsyte Saga) أيضاً ••

صحيح أن الادب الحديث يتمتع بجاذبية لم تتوافر في الادب القديم ، وأن الاديب الناشىء يليق به أن يعرف ما يكتب معاصروه وكيف يكتبون ، إلا أن هناك أساليب تكتسب الشيوع في الادب ، وليس من السهل أن تدرك القيمة الذاتية لاسلوب أدبي في الفترة التي يكتسب فيها الشيوع ، ان التعرف على روائع الماضي يعطيك مقياساً جيداً للمقارنة • وإني لأتساءل أحيانا : هل الاهمال هو الذي يسبب افلاس الكتاب الناشئين ، بصرف النظر عن قابليتهم وذكائهم وحذقهم الفني ؟!• ان الرجل منهم يكتب كتابين أو ثلاثة كتب ، لا تكون لامعة فحسب ، بل ناضجة ، ثم يتلاشى بعد ذلك •• وبهذه الطريقة لا يغتني أدب الامة ، لان الامر يحتاج الى كتاب لا يكتفون بمؤلف أو مؤلفين ، بل ينتجون سلسلة ضخمة من الكتب • وهذا الانتاج غير متساو بالطبع ، لان العمل الرائع يحتاج الى تضافر عدد كبير من الظروف المواتية ، ولكن العمل الرائع أقرب الى أن يأتي دورة لسلسلة من الجهــد المتصل ، لا فلتة سعيدة للعبقرية غير المثقفة • ان الكاتب يكون مثمرا بقدر

ما يستطيع ان يجدد نفسه • ولا يستطيع أن يجدد نفسه إلا إذا امتلأت روحه بالتجربة الجديدة باستمرار • وليس من نبع أوفر عطاء في هذا المجال من ارتياد الآداب القديمة العظيمة •

إن انتاج العمل الادبي لا يتم نتيجة معجزة ، بل يتطلب تحضيراً شأنه شأن التربة ، مهما تكن غنية ، تظل بحاجة إلى غذاء ، وعلى الفنان أن يوسع شخصيته ويعمقها ويغنيها باقتباس الافكار وأن يبذل الجهد لتظل التربة مهيأة• ان عليه أن ينتظر كعروس المسيح لحظات الالهام التي تتمخض عن حيـاة روحية جديدة : انه يمضي في نداءاته العادية بصبر أثناء ما يقوم اللاشعور بعمله الغامض ، وفجأة تقفز الفكرة الجديدة من حيث لا تدري • ولكن ينبغي تعهدها بالعناية المفرطة لانها معرضة للذبول كالقمح الـذي يغرس في تربة صخرية ، وينبغي أن تسخر كل القوى الذهنية للفنان ، كل حذقه الفني ، كل تجربته ، وكل ما يتحلى به من فردية وشخصية لتعهد الفكرة الجديدة حتى يستطيع بعد معاناة لا حد لها أن يقدمها رافلة بأثواب الكمال التي تلائمها • على انني لا أفقد صبري مع الشباب الذين انصحهم ــ بعـد طلب منهم ، وأصر على هذه الكلمة ــ أن يقرؤوا شكسبير ، وسويفت ، فيخبروني انهم قرؤوا (رحلات جليفر) في حضانتهم و (هنري الرابع) في المدرسة • واذا وجدوا (موسم العبث Vanity Fair) غير محتملة و (انا كارنينا) خالية من المعنى فذلك شأنهم وحدهم، لأن القراءة لاتجديك نفعا اذا لم تجد متعة فيها، واحسن ما يقال لهؤلاء الشباب ــ على الاقل ــ انهـم لا يزهون بالمعرفة ، وليس ثمة حاجز من الثقافة الواسعة يحول دون تعاطفهم مع جمهرة الناس العاديين الذين هم ــ على كل حال ــ مادة ادبهم ، انهم أقرب الى زملائهم ، والفن الذي يمارسونه ليس سرا غامضا ، بل هو مهنة على صعيد أية مهنـة اخرى ، انهم يكتبون القصص والتمثيليات بدون تكلف كما يصنع الرجال الآخرون السيارات • وفي هذا خير كثير ، لأن الفنان ، والكاتب بوجه خاص، يبني في عزلته العقلية عالما مختلفا عن عوالم الآخرين •• ان تركيبه العقلي

الذي يصنع منه كاتباً يفصله عن الآخرين ، وهنا يظهر التناقض ، فمع ان هدف الكاتب هو وصف الناس على حقيقتهم ، إلا ان موهبته تمنعه من معرفتهم كما هم في الواقع ، فهو ، بذلك ، أشبه بمن رغب رغبة ملحة في رؤية شيء ما ، ثم غشّى عينيه ستار منعه من الرؤية أثناء محاولته تدقيق النظر • ان الكاتب يقف خارج دائرة العمل الذي ينهمك فيه ، وهو مثل الكوميدي الذي لاينسى نفسه تماماً أثناء قيامه بدوره لأنه في الوقت نفسه متفرج وممثل • ويصح أن نقول ان الشعر هو تذكر الانفعال في الهدوء ، ولكن انفعال الشاعر نوعي ، انه انفعال الشاعر لا الرجل وهو لا يمكن أن يكون مجردا تماما ، وهذا هو السر في ان النساء بشعورهن الغريزي العام وجدن حب الشعراء غير كاف • وكتاب اليوم الذين يبدو انهم أقرب الى مادتهم الخام — وانهم لرجال عاديون بين رجال عاديين ، أكثر من كونهم فنانين بين جمهور غريب — ربما استطاعوا كسر الحاجز ، الذي لا تستطيع موهبتهم الخاصة الا أن تقيمه بينهم وبين الناس ، وبذلك يصبحون أقرب الى الحقيقة الواضحة من أي وقت مضى •

***

كان لي نصيب كامل من غرور المثقفين ، واذا كنت ــ كما اؤمل ــ قد تخلصت منه ، فلست أعزو ذلك الى حكمة أو فضيلة في نفسي ، ولكن الى الحظ الذي جعلني أخوض الاسفار أكثر من معظم الكتاب الآخرين • انني اتنسب الى انكلترا ، ولكنني لا أشعر فيها بأنني في بيتي ، وكنت دائما خجلا أمام الانكليز • ان انكلترا عندي بلد أدين له بالتزامات لم أرغب ان اوفيها ، وبمسؤوليات طالما ارّقتني ولم تهدأ نفسي الا بعد أن وضعت القنال[1] على الأقل ، بيني وبين بلدي • ان بعض المحظوظين يستشعرون الحرية داخل عقولهم ، أما انا ــ وقواي الروحية أقل منهم ــ فأجد الحرية في التجوال • وحين كنت في (هيدلبرج) عملت على زيارة كثير من المناطق في المانيا ، وفي ميونيخ رأيت (إبسن) يشرب البيرة في(الماكسيميليانرهوف) ويقرأ الجريدة ، وقد علتْ وجهه تكشيرة ، ثم ذهبت الى سويسرا •• ولكن الرحلة الاولى الحقيقية التي قمت بها كانت إلى ايطاليا ، حيث ذهبت مثقلا بقراءاتي الكثيرة لولتر باتر ، ورسكن ، وجون أدنجتن سيموندز•وكان تحت تصرفي الاسابيع الستة من عطلة الفصح ، وعشرون جنيها في جيبي ، وبعد زيارة جنوة، وبيزا، حيث تجشمت قطع مسافة لا نهاية لها لأجلس لحظة في غابة الصنوبر التي قرأ شلي فيها (سوفوكل) وكتب اشعاره على ألحان القيثارة •• بعد هذا مكثت قرابة شهر في فلورنسة ، في دار أرملة قرأت مع ابنتها (المطهر Purgatorio) وقضيت أياما نشيطة أزور المشاهد و (رسكن) في يدي • واعجبت بكل

(١) يقصد القنال الانكليزي بين انكلترا وفرنسا . (المعرب)

ما أخبرني (رسكن) أنْ أعجب به (حتى برج جيوتو الرهيب) ونفــرت مشمئزا من كل ما نفر منه • وما أظنه عرف أبدا تلميذاً لامعاً مثلي • وبعد ذلك قصدت البندقية وفيرونا وميلان • وعدت الى انكلترا مسرورا جدا من نفسي ، ومحقرا بشدة كل من لايشاركني آرائي (وآراء رسكن) عن بوتيشلي وبلليني • وكنت حينذاك في العشرين من عمري • وبعد سنة عدت الى ايطاليا وتوغلت جنوبا حتى نابولي فاكتشفت (كابري) ، وكانت أجمل بقعة رأيتها في حياتي ، وقضيت عطلتي الصيفية التالية فيها • لم تكن (كابري) وقتئذ ذائعة الصيت ، ولم يكن هناك خط يصل المدينة بالشاطىء ، وما أقل الذين كانوا يقصدونها في الصيف ••• لقد كنت تستطيع أن تحصل على الاقامة والمأوى ، بما في ذلك النبيذ ، وتسرح بصرك من النافذة الى (فيزوف) بأربعة شلنات يوميا وكان هناك شاعر ، في ذلك الوقت وملحن بلجيكي ، وصديقي براون من هيدلبرج ، ورسام أو رسامان ، ونحات هو (هارفارد توماس) وعميد أميركي حــارب مع الجنوبيين في الحرب الاهلية •• وكنت أصغي بحماسة الى الأحاديث ، سواءً في (أناكابري) في منزل العميد أو في حانة (مور جانو) بالقرب من بيازا وكانت الاحاديث تدور حول الفن والجمال والادب والتاريخ الروماني • ورأيت رجلين ينقض كل منهما على عنق الآخر ، لأنهما اختلفا حول المزايا الشعرية لمقطوعات (هيريديا) • وبدا لي كل شيء عظيما : فن ، وفن من أجل الفن ، هذا كل ما له أهمية في العالم • ان الفنان وحده هو الذي يضفي أهميته على هذا العالم المضحك • وما قيمة السياسة والتجارة والمهن الثقافية من زاوية المطلق ؟ ! قد يختلف أصدقائي هؤلاء حول قيمة (سوناتا) أو تمثيل يوناني (يوناني ، يا عيني ! ! أقول لك إنه نسخة رومانية واذا قلت لك شيئا فهو صحيح) • ولكنهم كانوا مجمعين على أمر واحد وهو أنهم يضطرمون بلهب صلب كــالجوهر • وقد خجلت إذ

أخبرتهم انني كتبت رواية وانني في نصف الطريق الى إنجاز رواية اخرى ، ولشد ما كنت أخشى ، وأنا الذي يضطرم مثلهم بلهيب صلب كالجواهر ، ان أعامل كمادي فج الثقافة لا يهمه الا تشريح الجثث الميتة ويتحين لحظة غفلة من أعز أصدقائه ليتمكن من إعطائه حقنة[1] .



(١) إشارة الى مهنته وهي الطب (المعرب)

سرعان ما أصبحت كاتباً مؤهلاً ، وذلك على أثر نشر رواية لي لاقت نجاحاً غير منتظر ، واعتقدت أن الحظ قد أقبل ، فهجرت الطب لأمتهن الكتابة ويممت شطر إسبانيا وأنا في الثالثة والعشرين •• ويبدو انني كنت آنئـذ أجهل من شباب اليوم ، لقد أقمت في اشبيلية وأطلقت شاربي ودخنت سيجار (فليبينو) ، وتعلمت العزف على القيثار ، واشتريت قبعة ذات حافة عريضة وقمة مسطحة ، كنت أتسكع تحتها في (السيربس) ، وصبوت الى معطف فضفاض مخطط بالمخمل الأحمر والأخضر ولم أستطع شراءه لارتفاع ثمنه •• كنت أجوب الريف على صهوة جواد أعاره لي صديق ، وكانت الحياة أحلى من أن تسمح لي أن أصرف كل اهتمامي الى الادب ، فعزمت أن اقضي سنة في اسبانيا لاتقن الاسبانية ، ثم أذهب الى روما التي عرفتها معرفة خاطفة ، وهناك أنمي معرفتي السطحية باللغة الايطالية ، وأتبع ذلك برحلة الى اليونان، حيث عزمت على تعلم العامية هناك ، تمهيدا لدراسة اليونانية القديمة ، وقررت أن أقصد القاهرة أخيراً فأتعلم العربية •• كان برنامجاً طموحاً ، ولكنني مسرور لأنني لم أنفذه • ووفقا للخطة ذهبت الى روما (حيث كتبت روايتي الاولى) ثم عدت الى اسبانيا بسبب حادث فاجأني دون سابق توقع • لقد وقعت في حب إشبيلية وطريقة العيش فيها وكذلك بمخلوقة شابة ذات عينين خضراوين وابتسامة طروب ، (ولكن الظفر كان حليفي) ولم أستطع مقاومة الإغراء، فكنت أعود سنة بعد سنة ، وأتجول في الشوارع البيض الصـامتة وأتسكع عبر الوادي الكبير ، وألف حول الكاتدرائية ، وأذهب الى مصارعة الثـيران ، وأتبادل حباً عابراً مع مخلوقات رقيقة صغيرة لم تكن مطاليبها مني لتفوق إمكانياتي الضئيلة •• ان قضاء ريعان الشباب في إشبيلية نعمة سماوية • وقد

أجلت دراستي الى فرصة اخرى مناسبة وكانت النتيجة انني لم أقرأ الأوديسه الا بالإنكليزية ولم أحقق طموحي لقراءة ألف ليلة وليلة بالعربية •

وحين استولت الطبقة المثقفة على روسيا ، وتذكرت ان (كاتو) بدأ يتعلم اليونانية حين كان في الثمانين ، أخذت بدوري ادرس الروسية ولكنني كنت قد فقدت حماستي حينذاك • ولم أتمكن من أن أتقدم الى أبعد من قراءة تمثيليات تشيخوف وقد نسيت هذا القليل الذي تعلمته منذ زمن بعيد • وأعتقد الآن ان تلك الخطط القديمة كانت غير معقولة نوعا ما•• ان الكلمات ليست هي المهمة بل معانيها ، وليس من التقدم الروحي في شيء أن أتعلم نصف دزينة من اللغات • لقد قابلت أناساً يتكلمون عدة لغات ، ولم أكتشف عندهم من الحكمة مايفوق حكمتنا • ومن المفيد ، اذا كنت مسافراً في بلد ما ، ان تكون على شيء من المعرفة بلغة أهله ، حتى يتاح لك أن تشق طريقك ، وأن تجد ما تأكله وأن تقرأ شيئاً من أدبه ، ان كان ذا شأن ، ومثل هذه المعرفة يمكن أن تكتسب بسهولة ولكن محاولة تعمق هذه المعرفة تظل محاولة عقيمة ، فما لم تكرس حياتك كلها لذلك فلن تستطيع أن تتعلم لغة غريبة الى درجة الكمال ، ولن تستطيع أيضاً معرفة شعبها وأدبها معرفة وثيقة ، لأنهم والأدب الذي عبروا به عن أنفسهم ليسوا من صنع الاعمال التي يقومون بها ، ولا من صنع الكلمات التي يستعملونها فقط — وكلاهما يسهل ادراكه — بل من صنع الغرائز الموروثة ، وظلال المشاعر التي رضعوها مع لبن الامهات ، والمواقف الفطرية التي لا يستطيع الغريب أبدا أن يدرك كنهها • انه من الصعب علينا أن نعرف شعبنا نفسه ، ونحن نخدع أنفسنا — معشر الانكليز بوجه خاص — اذا اعتقدنا اننا نستطيع معرفة شعوب البلاد الاخرى ، لان جزيرتنا المحاطة بالبحار تفصلنا عن الآخرين ، ولأن الصلة التي أقامتها الديانة المشتركة والتي خففت من عزلة الجزيرة يوماً ما ، قد عاد الاصلاح الديني فقطعها من جديد ••

وهكذا ، على المرء أن يفكر كثيراً قبل أن يبذل جهداً كبيراً لاكتساب

معرفة لا يمكن الا أن تكون سطحية • انني أعتقد ان التعمق في تعلم اللغات الاجنبية ليس الا هدراً للوقت ، والاستثناء الوحيد الذي أرغب بذكره هو الفرنسية ، لان الفرنسية هي اللغة المشتركة للمثقفين ، وهي بالتأكيد ملائمة لمعالجة أي موضوع قد يدور الكلام حوله ، وان لها لأدباً عظيماً ، وتأثيرها فى سائر العالم كان عميقاً حتى السنوات العشرين الاخيرة ، ويحسن بالمرء أن يتعلم قراءة الفرنسية بالسهولة التي يقرأ بها لغة بلاده • على أن هنـاك حدوداً ينبغي أن لاتسمح لنفسك بتجاوزهـا في اتقان الفرنسية ، وإنـه ليجدر بك ، عملياً ، أن تأخذ حذرك من الانكليزي الذي يتقن الفرنسية اتقاناً تاماً ، فمن المحتمل أن يكون غشاشاً في ورق اللعب ، أو ملحقاً بالهيئة الدبلوماسية •

*
**

لم أكن أبدا مأخوذاً بالمسرح ، وقد عرفت مسرحيين كانوا يخطرون كل ليلة الى المسرح الذي تـمـثّل فيه مسرحياتهم ، ويحتجون لذلك بأن عليهم أن يراقبوا سير التمثيل لئلا يهزل ، وأحسب أن السبب الحقيقي هو انهم لايشبعون من سماع كلماتهم ممثلة • وكانوا يجدون متعتهم في الجلوس في غرفـة الملابس خلال الاستراحات ، والحديث عن هذا المشهد أو ذاك ، مستغربين كيف تراخى أحد المشاهد ليلتها ، أو مهنئين أنفسهم لأنه بدا متقناً ، وكذلك في التفرج على ممثل يضع زينته ، ولم يشعروا بالملل أبداً من الاحـاديث اليومية عن المسرحيات ، وكانوا مغرمين بالمسرح وما يتصل به ، وكانت محبته تسري في عظامهم •

ولم أكن من هذا الطراز أبداً • فأنا أحب المسرح حين يكون تحت ملاءة الغبار والصالة يغمرها الظلام ، والمنصة غير معدة لتنيرها الأضواء السفلية والألواح الخشبية مسندة الى الحائط الخلفي • ولطالما أمضيت ساعـات سعيدة وقت التمرينات ، وأحببت زمالة الممثلين بما فيها من بساطة ، والغذاء السريع في مطعم حول الزاوية مع عدد منهم ، وفنجان الشاي الثقيل المر مع الخبز السميك والزبدة من يد الخادمة في الساعة الرابعة ، وإن أنس لا أنس تلك الرعشة الخفيفة من السرور المفاجيء الذي انتابني حين سمعت — بعد عرض مسرحيتي الأولى — رجالا ونساء راشدين يعيدون العبارات التـي تدفقت من قلمي بسهولة • وقد لذ لي أن أراقب كيف ينمو الدور عـلى يدي الممثل ، من القراءة الاولى الخالية من الحياة ، الى ما يشبه الشخصية المطبوعة في ذهني • وكنت أنفر من المناقشات المهمة حول المكان الصحيح الذي ينبغي أن توضع فيه قطعة من الأثاث ، ومن اعتداد المخرج بكفايته

ومن تذمر ممثلة لم ترض عن مواقفها ، ومن مهارة الممثلين القدامى المصممين على احتكار قلب المسرح لمشهدهم ، ومن تجاذب أطراف الحديث حول أي موضوع يمر بالخاطر •• كانت تجارب الملابس غاية العجب •• فثمة نصف دزينة من النساء يجلسن في الصف الامامي من حلقة اللباس ، انهن مصممات الثياب اللائي يبدو عليهن الخشوع كأنهن في كنيسة ، ويتبادلن الهمسات القصار الحادة خلال العرض ، وتصدر عنهن إيماءات قليلة ذات مغزى •• وإنك لتدرك أنهن يتحدثن عن طول خراطة أو عن قصة كم ، أو عن ريشة في قبعة •• وفي لحظة سقوط الستارة يسرعن والدبابيس في أفواههن الى خشبة المسرح من الباب الداخلي • ويصرخ المخرج « ليرفعْ الستار » ، فعند ذلك تنتفض ممثلة ، وتنتزع نفسها من نقاش مضطرب مع سيدتين عابستين مجللتين بالسواد •

وتصرخ السيدة : آه ياسيد ثنغ • انني أعرف أن وشي الثوب غير مناسب ولكن السيدة « فلوس » تقول إنها ستنتزعه وتضع بدلا منه قطعة من المخرمات [1] •

وفي المقاعد الامامية ترى المصورين ، ورجال الادارة ، وبائع التذاكر ، وأمهات الممثلات ، وزوجات الممثلين ، ووكيلك الخاص ، وصديقة لك ، وثلاثة ممثلين أو أربعة من القدماء الذين لم يأخذوا دوراً منذ عشرين عاماً • إنه الجمهور الكامل ، وبعد كل فصل يقرأ المخرج الملاحظات التي خطرت له • وهناك نزاع مع الكهربائي الذي أخطأ في إدارة أزراره وليس له من عمل سواها ، والمؤلف غاضب منه بسبب إهماله ، ولكنه في الوقت نفسه ميال الى مسامحته لانه يعتقد أن الكهربائي عندما أغفل عمله فقد كان ذلك بسبب انهماكه في متابعة المسرحية • وقد يعاد تمثيل أحد الفصول ويكون قد وقع الاختيار مسبقاً على بعض المواقف المؤثرة فعند ذلك تسطع الأضواء

---

(١) المخرمات : الدانتلة . (المعرب)

وتؤخذ الصور • وينزل الستار من أجل إعداد المشهد التالي ، بينما ينصرف الممثلون الى غرفهم لتبديل ألبستهم ، وتختفي مصممات الثياب ، وينسل الممثلون القدامى الى الزاوية ليأخذوا شيئاً من الشراب ، ويعب رجال الإدارة من دخانهم السيء ، وزوجات الممثلين وأمهاتهم يتبادلن الهمسات ، ووكيل المؤلف يقرأ أخبار السباق في صحيفة مسائية •• إنها مشاهد مثيرة غير حقيقية •• وأخيراً تتسرب مصممات الثياب من خلال باب مكافحة الحريق ويستأنفن مجلسهن ، على حين ينتشر ممثلو المؤسسات المتنافسة في مقاعد متباعدة كبرياء ، ويدخل مدير المسرح رأسه في الستار ويصيح « مستعدون يا مستر ثِنج » •

– تماماً ، فلنبدأ ، وليرفع الستار •

ولكن تجربة الملابس كانت آخر لذة يمكن أن تمنحني إياها مسرحيتي • وفي الليالي الاولى لمسرحياتي المبكرة كنت شديد اللهفة والتوتر لان مستقبلي كان رهن نتائجها • وحين أنتجت (اللادي فردريك) كنت قد أتيت على ما تبقى لي من المال الذي حصلت عليه وأنا في الواحدة والعشرين من عمري، ولم تكن رواياتي قد أثمرت مايقيم أود حياتي ولم أستطع أن أكسب شيئاً من الصحافة • وكنت أحياناً أكلف بكتابات نقدية في بعض المجلات •• وقد أقنعت رئيس تحرير إحدى هذه المجلات أن أقوم بعرض بعض المسرحيات، وتكشفت الحقيقة عن كوني غير موهوب في هذا الاتجاه ، والحق ان رئيس التحرير أخبرني أنني لا أملك إحساساً بالمسرح ، ولو ان (اللادي فردريك) انتهت الى الإخفاق لكان عليّ أن أعود الى المستشفى لانعش معرفتي بالطب مدة سنة ثم ألتحق بمنصب جراح على ظهر إحدى السفن ، وفي ذلك الوقت كان هذا المنصب غير مرغوب فيه ، وقلّ من بين خريجي لندن من كان يتقدم اليه • ولكني – بعد أن أصبحت مسرحياً ناجحاً – أخذت أقصد ليالي العرض الاولى مجنداً مشاعري لكي أميز ، من خلال ردود فعل الجماهير ، ما قد يكون من سقطات في مقدرتي ، وكنت أبذل جهدي لكي أمتزج مع الجماهير

حتى أفقد نفسي • إن الليلة الاولى بالنسبة للجمهور ، ليست سوى حدث مسل يفصل بين وجبة سريعة في السابعة والنصف ، وعشاء في الحادية عشرة، ولا شأن للجمهور بنجاحه أو أخفاقه • وقد حاولت أن أرى الليالي الاولى لمسرحياتي كما لو كانت من تأليف شخص آخر ، ولكن هذه التجربة لم ترق لي • ولم يجدني فتيلا أن أسمع الضحك يعقب نكتة لطيفة ، أو التصفيق على أثر إغلاق الستار بعد مشهد حاز الرضى • والحقيقة انني وضعت الشيء الكثير من نفسي حتى في أخف القطع ، مما جعلني أضيق بسماعها وهي تذاع في جمهور من الناس • كانت الكلمات قطعاً من نفسي بيني وبينها ألفة جعلتني أنفر من إشراك القاصي والداني بها • وقد خامرني هذا الشعور غير المعقول حتى حين ذهبت لرؤية مسرحية مترجمة لي ، وجلست في المسرح كأي فرد مجهول من أفراد الجمهور • وبالفعل ماكنت لأقدم على رؤية الليالي الاولى لمسرحياتي ، أو غير الليالي الاولى ، لو لم أشعر بضرورة رؤية تأثيرها في النظارة ، لكي أجد السبيل الى إتقان الكتابة •

*
**

ان مهمة الممثل شاقة . ولست أقصد الكلام عن الصبايا اللواتي يصعدن خشبة المسرح بسبب وجوههن الصبيحة ، ولو كانت صباحة الوجه تؤهلهن لمهنة الضرب على الآلة الكاتبة لذهبن الى المكاتب ، ولا عن الشبان الذين يصعدون خشبة المسرح بسبب حسن هيئاتهم وليس لديهم قابلية لأي عمل آخر ، إنهم جميعاً يدخلون مهنة التمثيل ليخرجوا منها .. فالصبايا يتزوجن ، والشباب ينتقلون الى متجر نبيذ ، أو يتولون الزينة الداخلية للمسرح ، إنما أقصد الممثلين المطبوعين الذين يمتلكون الموهبة والرغبة في استخدام هـذه الموهبة . ان مهنة التمثيل تتطلب جهداً مضنياً قبل إحراز الكفاية ، فما يكاد الممثل أن يصبح بالجهد قادراً على تمثيل أي نوع من الأدوار ، حتى يدركه السن ، فلا يقوى الا على قليل من الأدوار .. إنها مهنة الصبر الذي لا حد له . وهي مشبعة بالخيبة ، وينبغي أن يحتمل صاحبها فترات من البطالـة الإجبارية ، فالجوائز قليلة ومدة تمتع صاحبها بها قصيرة ، والمكافآت غير كافية ، والممثل تحت رحمة الحظ ومزاج الجمهور المتقلب ، وسرعان ماينساه الجمهور اذا كف عن إرضائه ، ولن يجديه حينذاك أنه كان معبود الجمهور يوماً ما ، وعليه أن يتضور جوعاً دون أن يكترث به أحد . وإذ أفكر في هذا المصير ، أجدني أميل الى اغتفار مظاهر الأبهة التي تحيط بالممثل ، واعتداده ، وغروره حين يكون على ذروة الموج .. فليكن مزهواً غراً اذا شاء .. فذلك لايدوم طويلاً .. وعلى أية حال ، فان أنانية الممثل جزء من موهبته .

وقد مرت فترة كان فيها المسرح بابا الى الشهرة الرومانتية ، وكان كل من اتصل به يبدو مثيرا وغامضاً . وفي عالم القرن الثامن عشر المتحضر ، أعطى الممثلون الحياة مسحة من الخيال المشوق . كانت حياتهم اللا منظمة

فتنة تخلب اللب في سن الرشد ، والادوار البطولية التي لعبوها والشعر الذي ألفوه كل ذلك أحاطهم بهالة خاصة . وفي كتاب جوته الرائع ، المهمل عادة ، (ولهلم ميستر Wilhelm Meister) تستطيع أن ترى بأية رقة نظر الشاعر الى ماكان في الحقيقة أبسطمن فرقة تمثيل جوالة من الدرجة الثانية . وفي القرن التاسع عشروجد الممثلون مخرجاً من وقار العصر الصناعي..والبوهيمية التي نسبت لهم أثارت خيال الشبان الذين كانوا مضطرين للعمل في المكاتب من أجل كسب قوتهم ، كان الممثلون أشخاصاً مفرطين في عالم رزين .. أشخاصاً لا مبالين في عالم شديد الحرص .. وأحاطهم الخيال ببريق خاص. وفي كتاب (أشياء مرئية Choses Vues) لفيكتور هوغو ، مقطع مؤثر بما فيه من دعابة غير واعية ، حيث يصف الفتى العاقل ، برهبة ودهشة ومسٍ من الحسد لذلك التوحش ، حفلة عشاء مع ممثلة ، فللمرة الأولى في حياته يجد نفسه في حضرة شيطان . الله أكبر ، أية شمبانيا كانت تتدفق ، وأي ترف، وأية فضة ، وكم هي جلود النمور التي يشاهدها المرء في شقتها ! ! .

لقد اختفى هذا المجد ، واستقر الممثلون وأصبحوا محترمين وميسوري الحال .. لقد آلمهم ان يُنظر اليهم على أنهم صنف خاص من الناس ، فعملوا جهدهم لكي يصبحوا كغيرهم ، وظهروا على حقيقتهم دون زينة في وضح النهار ، وطلبوا إلينا أن نرى فيهم لاعبي جولف ، ودافعي ضرائب ، ورجالاً ونساء يفكرون ، وهذا هراء وتدنٍ في رأيي .

عرفت في حياتي كثيراً من الممثلين ، واستطبت صحبتهم ، ووجدتهامسلية، لما آنسته فيهم من قدرة على التقليد ، وبراعة في رواية القصص ، وبديهة سريعة ، وهم عامة طيبون وشجعان . ولكنني لم أستطع أبداً أن أنظر اليهم نظرتي الى المخلوقات الإنسانية العادية ، ولم أنجح أبداً في إحراز ألفة وثيقة معهم ، وهم أشبه بأحاجي الكلمات المتقاطعة التي لا تجد لفراغاتها كلمات مناسبة . والحقيقة ، في رأيي ، أن شخصياتهم مستمدة من الادوار التي

يمثلونها ، وأنها ترتكز الى قاعدة مائعة •• إنها شيء رخو" لـين" يستطيع أن يتلبس أي شكل ، وأن يصبغ بأي لون ، وقد تنبأ كاتب ذكي انه لن يكون مستهجناً في المستقبل الكف عن دفنهم في المقابر، مادام من السخف الافتراض بأن لهم أرواحاً •• وربما كان هذا افراطاً • انهم فـي الواقـع مشوقون ، والروائي اذا كان مخلصاً ، ينبغي أن يعترف أن هناك التقاء معيناً بينه وبينهم : شخصيتهم كشخصيته مبنيّة على انسجام غير محكم جداً ، إنهم حصيلة كل الشخصيات التي يقلدونها ، وهو كل الأشخاص التـي يخلقها •• الممثلون والكتّاب يقدمون انفعالات لايشعرون بها أبداً في إبّانها ، وهم ، إذ يقفون على المسرح وجانب من نفوسهم خارج دائرة الحياة فانما يصورون هذه الحياة إرضاء لغرائزهم الخلاقة •• إن الايهام هو واقعهم ، والجمهور الذي هو في وقت واحد مادتهم والحكَم عليم ، هو أيضاً ضحية خداعهم • ولأن الإيهام هو واقعهم ، يمكنهم أن ينظروا إلى الواقع على أنه إيهام •

- ٣٢ -

بدأت بكتابة المسرحيات كما يفعل معظم الكتاب الناشئين على ما أعتقد ، لأن تدوين مايقوله الناس يبدو أقل صعوبة من إنشاء القصص ، وقديمـاً لاحظ الدكتور جونسن أن وضع المحاورات أسهل بكثير من نسج المغامرات . وفي دفاتري القديمة التي حبرتها بين الثامنة عشرة والعشرين من عمري ؛ دونت بعض المشاهد من مسرحيات كانت تدور في ذهني ، والآن أجـد حوارها سهلاً ومحتملاً ، ونكاتها غير قادرة على انتزاع ابتسامتي ، ولكنها مشبعة بلغة الناس العادية التي أخذتها بالفطرة ، وهذه النكات قليلة وشديدة القسوة ، أما موضوعات تمثيلياتي فقد كانت متجهمة وانتهت غالباً بالظلام واليأس والموت .. وفي رحلتي الاولى الى (فلورنسة) أخذت معي كتاب (الأشباح) من أجل الترويح عـن النفس ، فيما كنت أدرس (دانتـي) دراسة جدية . وقد ترجمته إلى الإنكليزية عن نسخة ألمانية لكي أكتسب معرفة بالبناء الفني . وأذكر ، رغم كل ما أحمله من الإعجاب بإبسن ، أنني لم أملك تجاه (باستور ماندرز) إلا أن أحس بشيء من الضيق ، وفـي ذلك الحين كانت مسرحية « السيدة تانكري الثانية » تعرض عـلى مسرح (سان جيمس) ..

وخلال سنتين أو ثلاث أتممت عدداً من القطع المسـرحية القصـيرة (رافعات الستار Curtain-raisers) وأرسلتها الى المنتجين ، وقـد ضاعت واحدة أو اثنتان منها لأن بعض المنتجين لم يعيدوها ، ولم تكن لديّ نسخ أخرى عنها ، على حين طرحت التمثيليات الاخرى ، أو أتلفتها ، بعد أنجوبهت بالتثبيط وعدم التشجيع . وفي ذلك الوقت ، وبعده بكثير ، كانت الصعوبات التي تواجه الكاتب المجهول ، وتحول بينه وبين إنتاج مسرحياته ، أشق بكثير

مما نراه اليوم .. وكان العرض يستمر طويلا لان التكاليف قليلة ، وكانت تقف على أهبة الاستعداد ، لإمداد المسارح الرئيسية بما تحتاجه ، عصبة من المؤلفين يرأسهم (بنرو) و (هنري آرثر جونز) . وكان المسرح الفرنسي مايزال مزدهراً ، وشاعت عنه الاقتباسات المطهرة المنقحة .. ثم ألقي في روعي أن فرصتي الوحيدة لتمثيل أعمالي المسرحية هي احراز سمعة لنفسي كروائي أولا ، وربما اتتني هذه الفكرة من قيام (المسرح المستقل) بتمثيل قصة (إضراب في ارلنغفورد) لجورج مور . وهكذا وضعت المسرحية جانباً وشرعت أكتب القصة . وقد يحسب القارىء ان هذا الأسلوب المنهجي في أداء العمل لا يلائم - بما فيه من روح عملية صرف - كاتباً شاباً ، وهو يوحي باتجاه ذهني واقعي لا بفيض سماوي يصبو الى إغناء العالم بالفن . وبعد أن نشرت قصتين ، وأعددت للطبع مجلداً من القصص القصيرة ، شرعت في كتابة مسرحيتي الاولى الكاملة الطول ، وأسميتها (رجل شرف) وأرسلتها الى (فوربتز روبرتسون) الذي كان وقتذاك ممثلا شعبياً اشتهر بميوله الفنية ، وأعادها إلي بعد شهرين أو ثلاثة فأرسلتها الى (شارلز فروهمان) الذي ردها إلي بدوره . ثم أعدت كتابتها وأرسلتها الى (جمعية المسرح) وكنت في هذه الأثناء قد نشرت روايتين أخريين إحداهما (السيدة كرادوك Mrs Craddock) أصابت نجاحاً معتبراً ، مما جعل الأنظار تتجه إلي وتعتبرني قاصاً ذا شأن ومستقبل ، وهكذا أحرزت المسرحية قبولاً ، ونالت حظوة لدي السيد و. ل. كورتني أحد أعضاء اللجنة ، حتى انه نشر قبلها مسرحية واحدة فقط هي (صورة الليل) للسيدة كليفوردز ، فكان في ذلك شرف عظيم لي .

وكان إنتاج (الجمعية المسرحية) يجذب أنظار الناس لأنها كانت المنظمة الوحيدة من نوعها وقتئذ ، وهكذا عوملت مسرحيتي من قبل النقاد بجد كما لو أنها كانت مهيأة لان تعرض على أحد المسارح المهمة ، ولكن الخيول الهرمة تناولتها بالتجريح القوي ، وصرح ناقد (السانـدي تايمز) أنها

لا تحوي أية بادرة من موهبة مسرحية ، وقد نسيت من هو • أما النقـاد الذين التفوا حول اتجاه (إبسن) فقد عاملوها كعمل جدير بالاعتبار وكانوا متجاوبين ومشجعين •

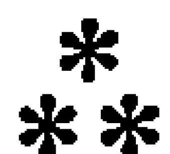
واعتقدت أن هـذه الخطوة التي خطوت ، ستزيل من وجهي بعد الآن الصعوبات الكبيرة ، ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنـي لم أحرز شيئاً ، اللهم إلا معرفة قوية بفن كتابة المسرحية ، وماتت مسرحيتي بعد عرضين فقط • وانتشر اسمي بين أولئك المهتمين بالمسرح التجريبي فقط ، ولو أنني كتبت مسرحيات جديدة لما تأخرت (الجمعية المسرحية) بلا شك عن عرضها ، ولكن ذلك لم يكن كافياً ، وأثناء التجارب اتصلت بأناس مهتمين بالجمعيـة وخاصة (جرانفيل باركر) الذي لعب الدور الاول في مسرحيتي • وقـد جوبهت بموقف عدائي فيه ترفع وضيق • وكان جرانفيل باركر شاباً فـي مقتبل العمر يكبرني بعام واحد إذ كنت في الثامنة والعشرين ، وكان فاتنـاً طروباً ، في أبهة ورونق ، متعالياً على أفكار الآخرين •• ولكنني أحسست عنده شعوراً بالخوف من الحياة كان يسعى لتغطيته عن طريق احتقار عامة الناس ، حتى ندر أن تقع على شيء لم يحتقره • وكان باركر يفتقر الـى الحيوية الروحية ، وكنت أعتقد أن الفنان يحتاج إلى مزيد من القوة والعزم والصلابة ، والى شجاعة أكثر ، وعضلات أقوى •• وقد كتب باركر مسرحية (زواج آن ليست) فبدت لي مصطنعة فقيرة الدم •

وقد أحببت الحياة وأردت التمتع بها ، وصممت أن أنتزع منها كـل ما أستطيعه ، ولم أقنع بتقدير عصبة صغيرة من المثقفين ، أشك في أهليتهم ، لأنه اتفق لي أن حضرت معهم ملهاة عامية قميئة أعدتها (الجمعية المسرحية) ورأيت أعضاءها مغرقين في الضحك ، ولم أكن على يقين من وجود اهتمام جدّي لهم بالمسرحية الرفيعة ، ولم أرغب في مثل هؤلاء النظارة ، وإنما تطلعت إلى الجمهور العظيم •• كنت الى ذلك فقيراً ، ولم أشأ أن تظل حياتي كسرة

خبز في ملحق ، واكتشفت أن النقود مثل حاسة سادسة لايحسن المرء بدونها أن يستغل حواسه الخمس الأخرى •

وخلال التمرينات على (رجل شرف) اكتشفت ان بعض المشاهد الغزلية في الفصل الاول كانت مسلية ، وصممت على كتابة (الملهاة) في الحال ، وأسميت الملهاة الاولى (أرغفة وسمك) وكان بطلها كاهناً طموحا متعلقا بالدنيا ودارت حوادث القصة حول خطبته لأرملة غنية ، وأحابيله الهادفة الى منصب الاسقفية ، وعثوره أخيراً على وارثة جميلة ، ولكن أحداً من المنتجين لم يقبل هذه المسرحية لانهم اعتقدوا انه من المستحيل احتمال مسرحية يدور فيها الضحك على رجل دين ، وانتهيت الى أن فرصتي الوحيدة هي أن أكتب ملهاة يعطى الدور الأكبر فيها الى ممثلة ، ممثلة ان استحسنت الملهاة استطاعت أن تحمل المنتج على تجربتها وسألت نفسي عن الدور الذي يمكن أن يستهوي سيدة ذات شأن ، ولما استقر رأيي حول هذه النقطة كتبت (اللاديفردريك)، ولكن أكثر فصولها تأثيراً — وهوالفصل الذيجعلها فيمابعد ناجحة جداً — كان يدور حول بطلة تسمح لعاشقها الشاب ، كي توقظه من الوهم ، أن يدخل الى غرفة ملابسها ويرى وجهها بغير زينة وشعرها بغير تسريح • وفي ذلك الزمن البعيد لم تكن الزينة شائعة ، ومعظم النسوة كن يرتدين شعراًمستعاراً• ولم تقبل أية ممثلة أن تدع الجمهور يراها في هذه الحالة ، وقد رُفضت المسرحية من قبل المنتجين واحداً بعد الآخر • وأخيراً عزمت على اختراع تمثيلية لا أترك فيها مجالا لأي اعتراض • وكتبت (السيدة دوت) التي لاقت مصير اخواتها السابقات • واعتقد المنتجون انها هزيلة جداً وشكوا من قلة العمل المسرحي فيها ، واقترحت الآنسة ماري مور ، وهي وقتئذ ممثلة معروفة ، ان ُأدخل في المسرحية حادثة سطو لاجعلها أكثر إثارة •• وهكذا اقتنعت بأنني لن أستطيع كتابة مسرحية ترضي فيها البطلة عن دورها لدرجة تجعلها تصر على إخراجها الى حيز الوجود ، ولذلك أخذت أجرب حظي في مسرحية يكون الدور الأساسي فيها لرجل ، وكتبت (جاك سترو) وخيل إليّ

أن النجاح البسيط الذي أحرزته لدى الجمعية المسرحية كفيل أن يوجّه المنتجين الى مصلحتي ، وتبين لي ، للأسف ، ان الأمر خلاف ذلك ، اذ أن علاقتي بالجمعية جعلت المنتجين يتحزبون ضدي ويعتقدون انني لا أستطيع أن أنتج سوى مسرحيات قاتمة لاتدر الربح ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا إن مسرحياتي الهزلية قاتمة ، وإن كانوا أحسوا إحساساً غامضا أنها كانت غير سارة ، واقتنعوا أنها لن تجني أرباحا ، وكنت خليقاً أن أقع فريسة اليأس بعد ما حدث ، وان أكف عن محاولة عرض مسرحياتي للتمثيل ، فان كل مخطوطة كانت تعاد لي كانت تزيدني يأساً ، ولكن لحسن حظي ، اعتقدَ « جولدنج برايت » ان مسرحياتي تصلح للسوق فأخذها على عهدته ، وقدمها الى منتج بعد آخر ، حتى كانت سنة ١٩٠٧ وعرضت مسرحيتي (اللادي فردريك) على مسرح البلاط ، بعد عشر سنوات من الانتظار كتبت فيها ست مسرحيات كاملة . وبعد ثلاثة أشهر قدمت مسرحيتي (الآنسة دوت) على مسرح الكوميدي و (جاك سترو) على الفودفيل وفي حزيران قدم (لويس وولر) على المسرح الغنائي تمثيلية (الرائد The Explorer) التي كتبتها مباشرة بعد (رجل شرف) . وهكذا تم لي ما أردت .



- ٣٣ -

لقد استمر عرض المسرحيات الثلاث الاولى مدة طويلة • أما « الرائد » فكادت تمنى بالإخفاق ، ولم أربح كثيراً من النقود ، لان المسرحيات الشعبية في تلك الايام كانت قليلة الإيراد بالنسبة لمسرحيات اليوم ، وهكذا كان واردي قليلا ، ولكنني على أي حال تخلصت من القلق المالي ، وبدا مستقبلي مضموناً ، وكسبت شهرة كبيرة لأن أربعة من مسرحياتي كانت تمثل في وقت واحد ، وقد رسم (برنارد بارتردج) صورة هزلية لمجلة (بنش) ظهر فيها وليم شكسبير يعض بنانه أمام اللوحات التي كانت تعلن عن مسرحياتي وأخذت لي صور كثيرة ، وأجريت معي مقابلات كثيرة ، وأخذ رجال المجتمع يطلبون التعرف إلي ، وكان نجاحي مدوياً وغير متوقع ، وشعرت بالارتياح أكثر من شعوري بالاضطراب ، ويخيل إلي انني لا أملك قابلية الوقوع في الدهشة ، وكما فعلت في رحلاتي استقبلت أعجب المشاهد وأغرب الظروف بطريقة عادية جداً حتى وجدتني مضطراً الى أن أكره نفسي على النظر الى هذه الامور بما تستحقه من الاهتمام ، وهكذا نظرت الى نجاحي نظرتي الى أمر طبيعي • وفي إحدى الأمسيات بينما كنت أتناول عشائي وحيداً في نادٍ ما ، رأيت الى جانبي زميلا في النادي لا تربطني به معرفة ، يستضيف شخصاً غريباً ، وقد قررا الذهاب الى إحدى مسرحياتي وطفقا يتحدثان عني ، وذكر الزميل أنني عضو في النادي فقال له الضيف :

- هل تعرف هذا الرجل • أعتقد أنه شامخ الرأس منتفخه الى أقصى حده •

وأجاب الزميل :

نعم : أعرفه جيداً • انه لا يستطيع أن يحصل على قبعة تلائم انتفاخ رأسه •

ولقد كان متجنّيا ، لأنني اعتبرت النجاح بعضاً من حقي ، وقد تسليت بنجاحي ولكنني لم أوخذ به ، ورد الفعل الوحيد الذي أقدر أن أتذكره من تلك الفترة ، فكرة خطرت لي حين كنت أمر بشارع باتنون ذات مساء ، فحين اجتزت المسرح الكوميدي اتفق أن رفعت رأسي ورأيت الغيوم وقد أنارتها الشمس الغاربة ، وصمتّ متأملا المنظر الجميل وقلت في نفسي. الحمد لله الآن أستطيع أن أنظر الى غروب الشمس دون أن أفكر كيف أصبغه •• وعنيت بذلك انني لن أكتب كتابا آخر ، بل سأكرس بقية حياتي للمسرح • ومع ان الجمهور تقبل مسرحياتي بحماسة لا في إنكلترا فحسب بل في أمريكا ، إلا أن رأي النقاد في القارة لم يكن مجمعاً على قبول مسرحياتي •• النقاد الشعبيون امتدحوا فيها ذكاء البديهة ، والبهجة ، والتأثير المسرحي ، وانتقدوا تشاؤمها ، أما النقاد الجديون فقد استخفوها ووجدوها رخيصة وتافهة وأخبروني أنني بعت نفسي للمال • والطبقة المثقفة التي كنت فيها عضواً متواضعاً ومحترفاً في الوقت نفسه ، لم تكتف بتصعير الخد ، وهي عقوبة كافية لي ، بل قَذَفَتْ بي مثل إبليس الى الهاوية التي لاقعر لها ، وقد انكمشت وتألمت قليلا ، ولكنني حملت عاري بقوة ، لأنني عرفت انه ليس (خاتمة القصة) ، اذ كنت قد رسمت لنفسي نهاية معينة ، واتخذت الوسائل الكفيلة لبلوغ هذه النهاية ، ولم يكن عليّ إلا ان أهز كتفي استخفافاً بأولئك الذين كانوا من الغباء بحيث لايدركون ذلك • ولو انني تابعت كتابة مسرحيات مرّة مثل (رجل شرف) أو تهكمية مثل (أرغفة وسمك) لَمَا أتيحت لي أبداً الفرصة لإنتاج قطع معينة لم يستطع أحد أن يضنّ عليها بالمديح حتى أقسى النقاد ، لقد اتهمني النقاد بأنني أكتب للجمهور ولم أكن أفعل ذلك تماماً ، وكان لي في ذلك الحين مواهب غنية : سهولة في إيراد الحوار المسلي ، وعين تنتقي المشهد الكوميدي ، ومرح صاف ، بل أوتيت أكثر من ذلك ، ولكنني طرحت ذلك مؤقتاً ، وكتبت مسرحياتي

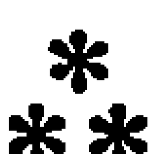
مستعيناً بتلك الجوانب من نفسي التي كانت مواتية لغرضي المحدد ، فقد رميت الى إمتاع الناس وأصبت الهدف •

ما كنت لأقبل أن أضيع في غمرة نجاح عابرة •• وقد كتبت مسرحيتي التاليتين لأشد قبضتي على الجمهور ، وكانتا أجرأ قليلاً ، وامتازتا بالليونة والبعد عن التكلف كما يبدو لي الآن ، وتعرضتا لهجوم المحافظين بحجة ميلهما الى التبذل • على ان احداها وهي (بنلوب) لم تخل من إبداع ، لانها حين أُعيد تمثيلها في برلين بعد عشرين سنة شغلت المسرح فصلا كاملا من السنة •

وحتى ذلك الحين كنت قد تعلمت من فن كتابة المسرحية أقصى مايمكن أن أتعلمه ، وباستثناء (الرائد) التي أخفقت في إحراز قبول شامل لسبب أعرفه جيداً ، أخذت أحرز سلسلة متلاصقة من الانتصارات • واعتقدت أنّ الأوان قد آن لأجري يدي في عمل أكثر جدية ، وأردت أن أرى ما يمكن أن أصنعه في موضوعات أعقد • ورغبت أن أجري تجربة فنية صغيرة أو تجربتين يكون لهما تأثير مسرحي خاص ، ووددت لو أعلم الى أي مدى يمكن أن أتمادى في صلتي بالجمهور ، وكتبت (الرجل العاشر – The Tenth Man و (مالكو الارض Landed Gentry) ، وأخيراً أنتجت (أرغفة وسمك) بعد أن قبعتْ في مكتبي اثنتي عشرة سنة ، ولم تخفق واحدة من هذه المسرحيات ، ولكنها كذلك لم تنجح ، ولم تعد بالربح على المنتجين ، ولم تسبب لهم الخسارة ، ولم يمتد عرض (أرغفة وسمك) طويلا لان جمهور تلك الايام لم يرتح لرؤية كاهن يتعرض للهزل والسخرية ، والحق ان هذه التمثيلية تنطوي على قدر من الإفراط يقرّبها من الملهاة العامية ، ولكن فيها مشاهد مسلية ، أما التمثيليتان الأخريان فكانت كل واحدة منهما في عالم بعيد عن الآخر،الأولى تصور الحياة الضيقة المحدودة لسكان الريف والأخرى تصور العالم السياسي والمالي ، وكنت مطلعاً على كليهما بعض الاطلاع • وعرفت أنه ينبغي أن أُمتع الناس وأسليهم وأحركهم ، وهكذا رفعتمستوى

الكلام ، فإذا المسرحيتان لا تتصفان بالصراحة الواقعية ، ولا بالصراحة المسرحية ، وقضى عليهما هذا التردد ، ولم يستسغهما الجمهور ووجدهما غير واقعيتين تماماً ... وبعد ذلك استرحت مدة سنتين كتبت في نهايتهما (أرض الميعاد) وظلت تعرض هذه المسرحية خلال أشهر في مسارح مزدحمة حتى أعلنت الحرب .

لقد أنتجت عشر مسرحيات في سبع سنين وقد أهملتني الطبقة المثقفة بعد أن أصدرت حكمها عليّ ، ولكنني كنت قد اطمأننت تماماً الى رضى الجمهور ..



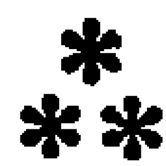
في اثناء الحرب أتيحت لي ، أحياناً ، فرص من الفراغ طويلة ، فالعمل الذي كنت أقوم به لم يستغرق إلا جزءاً من يومي ، وكتابة المسرحيات كانت وسيلة ملائمة لصرف اهتمامي عن وجوه النشاط التي كانت تشغلني ، وفيما بعد ، أصبت بالسل وأضطررت ان آوي الى الفراش مدة طويلة ، فكان ذلك طريقة ممتعة لقضاء الوقت ، فكتبت عدداً من المسرحيات التي أصابت نجاحاً سريعاً ، بدأتها بمسرحية (أفاضلنا) التي كتبتها سنة ١٩١٥ وختمتها بـ : (الزوجة الصامدة) في سنة ١٩٢٧ •

ومعظم هذه المسرحيات من نوع الملهاة المكتوبة وفق الاسلوب الذي انتعش ولمع في (عصر رجوع الملكية Restoration Period)[1] ، وقـادہ جولدسمث وشريدان ، وربما كان في هذا الأسلوب خاصة معينة تستهوي المزاج الانكليزي لأنه كان الزي السائد لمدة طويلة ، والذين لا يحبون هذا الأسلوب يسمونه الكوميديا المصطنعة ويعتقدون بحمق انهم يقضون عليه بمثل هذا الوصف •• إنه أسلوب في فن المسرحية لا يقوم على الحركة ، بل على الحديث ويعالـج بمنتهى التهكم أمزجة أهـل المجتمع وحماقاتهم ورذائلهم ، وهو حضري وفيه رقة عاطفية أحيانا ، مما يوائم المزاج الانكليزي، وفيه بعد" طفيف عن الواقع ونفور من الوعظ ، وقد يمس أحياناً ناحية أخلاقية ولكن بهزة من الكتف تكاد توحي اليك ان لاتوليها أهمية كبيرة جداً • وحين ذهب مسيو دوفولتير المنهمك في العمل لمقابلة كونجريف ومحادثته

---

(١) نسبة الى عودة الملك تشارلز الثاني الى العرش البريطاني في سنة ١٦٦٠. (المعرب)

بشأن الدراما الحديثة ذكر السيد كونجريف انه رجل مهذب ، قَبْلَ أن يكون كاتباً مسرحياً ، فأجابه محدثه : لو كنت مهذباً وكفى ، لما كلفت نفسي مشقة طرق بابك ، وكان مسيو دوفولتير أذكى أهل عصره ولكنّ ذكاءه خانه في هذا الموقف ، وأتت ملاحظة السيد كونجريف عميقة ، وأظهرت انـه يعرف جيداً ان الشخص الاول الذي ينبغي ان يضعه مؤلف الكوميديا موضع الاعتبار هو نفسه •



الى هنا كان رأيي قد استقر حول أمور كثيرة متصلة بالمسرحية •

ومن بين الامور التي انتهيت اليها ان التمثيلية النثرية لا تكاد تختلف الا قليلا عن نشرة الأنباء في كونها وقتية • إن كاتب التمثيليات والصحفي يحتاجان الى مواهب متماثلة جداً : عين تنفذ الى القصة الجديدة أو الخبر المهم ، وهمة نشطة ، وأسلوب حي في الكتابة • وكل ما يحتاجه المسرحي الى ذلك حذق نوعي ، ولست أعرف إنسانا توصل الى اكتشاف مقومات هذا الحذق •• انه شيء لا يمكن تعليمه ، وقد يتوفر دون تعليم او ثقافة ، إنه موهبة تمكن الكاتب المسرحي من ان يصوغ الكلمات بحيث تفرض نفسها أمام أضواء المسرح ، وان يسرد القصة سرداً مجسما بحيث تتحرك مرئية واضحة أمام الجمهور • وهـذه الموهبة نادرة ، ولذلك يتقاضى المسرحيون أجوراً تفوق كثيراً ما يتقاضاه الفنانون الآخرون •

ولا شأن لهذه الموهبة بالمقدرة الأدبية ، ويؤكد هـذا الحكم ان معظم القاصين المرموقين ، للأسف ، أخفقوا بوجه عام ، حين حاولوا أن يكتبوا التمثيليات • وهذه الموهبة ، شأنها شأن القدرة على العزف السماعي ، ليست ذات أهمية روحية ، ولكنك لن تجيد كتابة المسرحية بدونهـا ، ولو كانت أفكارك عميقة وموضوعك أصيلاً وتشخيصك دقيقاً •

وما أكثر ما كتب عن فن كتـابة المسرحية ، ولقد قرأت باهتمام معظم الكتب التي طرقت هذا الموضوع • وأفضل طريقة — في رأيي — لتتعلم كيف تكتب المسرحية هي ان تشاهد إحدى مسرحياتك ممثلة ، وإذ ذاك ستتعلم كيف تكتب سطوراً يسهل على الممثلين النطق بها ، والى أي مدى تستطيع ،

اذا كانت اذنك حساسة ، أن تنظم جرس الجملة دون أن تفسد بداهة الحوار وكذلك ستعرف أي نوع من المشاهد وأي نوع من الكلام هو أكثر تأثيرا ؟ على انني أعتقد ان سر الكتابة المسرحية يكمن فـي مبدأين : ركّز المعالجة على نقطة ما ، وحين تواتيك الفرصة ابترها • والمبدأ الأول يحتاج الى ذهن منطقي وما أقل الذين يملكونه ، ان الشيء يذكر بالشيء ، والانسان يجد متعة في التمادي بذلك حتى لو لم يكن هذا الشيء ذا ارتباط مباشر بالموضوع، والميل الى الاستطراد شيء في طبع الانسان ولكن المسرحي ينبغي أن يتجنبه بصرامة تفوق صرامة القديس في اجتناب الخطيئة ، لأن الخطيئة قد تكون مغتفرة ولكن الاستطراد قتّال • والأمر الذي ينبغي أن يراعى هو محور الاهتمام ، وهذا مهم في الرواية أيضاً • ولكن مدى المسرحية الواسع يسمح بتشتت أعظم ، وكما هو الشأن عند المثاليين ، اذ يتحول الشر الى الخير التام في المطلق ، هناك استطرادات معينة في المسرحية قد تلعب دوراً ضرورياً في تطوير الموضوع الاساسي (تاريخ زوسيما الاكبر في « الإخوة كرامازوف » مثال جيد جداً لهذه الحالة) • وربما كان عليّ أن أوضح ما أعنيه بـ « محور الاهتمام » • انه الطريقة التي يتمكن بهـا المؤلف من أن يربط اهتمامك بخطوط اناس معينين ، تحت ظروف معينة ، ويستمر على ذلك حتى ينتهي بك الى الحل ، فان سمح لك أن تشرد عن النقطة الاساسية ، فمن المحتمل جداً ان لا يتمكن من استعادة انتباهك • وهناك خاصة نفسية في الطبيعة الإنسانية تجعل اهتمام المرء معلقاً أشد التعلق بالأشخاص الذين يقدمهم الكاتب المسرحي في بدء المسرحية ، حتى اذا ما حول الانتباه الى أشخاص جدد يدخلون المشهد فيما بعد ، أُصيب المرء بشعور من الخيبة • والمسرحي الماهر يبادر الى تقديم موضوعه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وإذا اضطر بسبب ضرورات مسرحية أن يؤخر تقديم شخصياته الرئيسية ، فإنه يعمد الى تركيز حوار الأشخاص الذين يظهرون عند رفع الستار حول الاشخاص الرئيسيين ، بحيث يستقطب انتباه الجمهور اليهم ويزيد شغفه بلقائهم ، ولم يتبع أحد هذا النحو بوعي

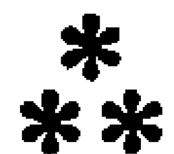
كامل ، مثلما فعل المسرحي البالغ القدرة وليم شكسبير •

ان صعوبة التحكم في الاهتمام هي التي تجعل كتابة التمثيليات المعروفة باسم تمثيليات الاجواء عملا شاقا ، وأحسن هـذه التمثيليات طبعا ما كتبه تشيخوف • وما دام الاهتمام غير مركز على شخصين أو ثلاثة أشخاص بل على مجموعة وما دام الموضوع هو علاقة الاشخاص بعضهـم ببعض وبالبيئة ، فينبغي أن ُيعنى الكاتب باتقاء الميل الطبيعي لدى الجمهور الى تعليق الاهتمام بشخصية أو شخصيتين دون ســائر الشخصيات ، واذا وزع الاهتمام بين الأشخاص على هذا النحو فقد ينتج عنه عدم تعلق الجمهور بأي من أشخاص التمثيلية ، وما دام المؤلف يجب أن يظل شاعراً بأن أوتار مسرحيته سواء" في الأهمية مما يزيد في قدرته على اجتذاب انتباه النظارة ، فان كل حادث ينبغي أن يخضع لمفتاح النغمة الواطئة ، وهنا يصبح من الصعب وقاية الجمهور من الشعور بنوع من الرتابة ، ويخشى عليه من جهة أخرى أن يحل به إثر انتهاء المسرحية شيء من الفوضى الروحية ، لأن المسرحية لم تتركز بقوة حول أمر ما ، شخص أو حادثة • وقد أثبتت التجربة ان أمثال هذه المسرحيات لا تحوز القبول إلا إذا أُتقن تمثيلها •

وننتقل الآن الى المبدأ الثاني • فمهما يكن المشهد رائعاً ، ومهما يكن الكلام نافذاً ، والفكر عميقاً ، فانه يجب أن يبتر ، اذا لم يكن أساسياً في المسرحية • وهنا يمكن أن تخدم المؤلف ثقافته الأدبية ، اذ ان الكاتب المسرحي الصرف يعتبر مجـرد قدرته على كتــابة الكلمات على الورق أُعجوبة من الأعاجيب ، وحين يرى هذه الكلمات التي تفتق عنها ذهنه أو هبطت عليه من السماء ، ينظر اليها نظرة قدسية ويعز عليه أن يضحي بأي منها ، وما زلت أذكر هنري آرثر جونز وهو يطلعني على إحـدى مخطوطاته ، ودهشتي اذ لاحظت أن جملة بسيطة مثل : « أتريد سكرا في الشاي ؟ » يؤديها بثلاث طرق مختلفة ، وليس عجيباً ان يميل الاشخاص الذين يأتيهم الكلام قسرا الى إضفاء أهمية غير عادية على كلامهم • أما الأديب فهو معتاد على الكتابة ،

وهو يعرف كيف يعبر عن نفسه دون جهد متكلف ، ولذلك يستطيع أن يقطع كلامه بحزم ، وبالطبع لا بد لكل كاتب من أن يقع أحياناً على فكرة تبدو له رائعة جداً ، أو قطعة تبعث في نفسه سروراً بالغاً ، مما يجعل حذفها أصعب من قلع ضرس ، وهنا يجديه كثيراً أن يكون قد نقش في صدره هذا المبدأ : « إذا استطعت فابتر » •

وهذا المبدأ ضروري اليوم أكثر من أي وقت مضى ، لأن الجماهير اليوم أسرع بديهة ، وأقل صبرا من كل الجماهير التي عرفها تاريخ المسرح • والمسرحيات تكتب على نمط دون آخر ، لأن ذلك يرضي النظارة ، ويبدو ان الجماهير في الماضي كانت ترغب في المشاهد التي أُحسن سبكها ، وفي سماع الأحاديث التي تعبر عن أشخاص قائليها تعبيراً كاملا • أما اليوم فالأمر مختلف جداً ، وقد تسببت السينما في هذا الاختلاف على ما أعتقد •• اليوم ، ترغب الجماهير ، ولا سيما في الاقطار الناطقة بالانكليزية ، أن ترى لب المشهد بسرعة ، لتجاوزه الى المشهد التالي ، وهكذا ، دواليك •• ان الجمهور مايكاد يلتقط مغزى الحديث من كلمات قليلة حتى يشرد إنتباهه ؛ وعلى المؤلف أن يقاوم ميله الطبيعي الى استيفاء قيمة المشهد أو إتاحة الفرصة أمام أشخاصه ليعبروا تعبيراً كاملاً عن ذواتهم ، ويحسن به أن يكتفي بالتلميحات التي يدركها الجمهور • وحواره ينبغي أن يكون نوعاً من الاختزال الناطق ، وعليه أن يبتر ويبتر حتى يصل الى ذروة التركيز •



تتم المسرحية نتيجة التعاون بين المؤلف والممثلين والجمهور ، وأحسب أنه ينبغي أن نضيف المخرج في هذه الايام • ولنبدأ بالحديث عن الجمهور •

لقد كتب جميع الكتّاب العظام مسرحياتهم وعيونهم شاخصة اليه ، ومع أنهم في أغلب الأحوال تحدثوا عنه باحتقار أكثر مما ذكروه بالخير ، فقد كانوا موقنين بأن نجاحهم وقف على استجابته ، فالجمهور هو الذي يدفع المـال وإذا لم يرض عما يقدم اليه ظل بعيداً عن المسرح •

ان المسرحية لا توجد بدون جمهور ، والحق انه يمكن تعريف المسرحية بأنها قطعة من الحوار المكتوب ، صممت بحيث ينطق بها ممثلون يصغي اليهم عدد من الأشخاص غير محدود • أما المسرحية التي تكتب ليقرأها المرء في غرفة المطالعة فهي نوع من الرواية اعتمد فيها المؤلف على الحوار وتخلى عن المزايا الطبيعية للأسلوب القصصي لسبب من الأسباب (قد لا يبدو واضحاً لمعظمنا) •

والمسرحية التي لا تستجيب لجمهور ما ، قد لا تخلو من مزايا ، ولكنها لا تعد مسرحية إلا إذا عد البغل حصانا (يا للأسف ، كل منا ــ أيها الكتّاب المسرحيون ــ يلد أمثال هذا الإنتاج الهجين الناقص) •

وكل من عمـل في المسرح يدرك على أي نحو غريب يتقبل الجمهور المسرحية ، وقد يرى جمهور النهار من المسرحية غير ما يراه جمهور المساء ، ويقال إن الجمهور النرويجي ينظر إلى مسرحيات (إبسن) على أنها مساخر غنية بالضحك ، في حين أن الجمهور الانكليزي لم ير في هذه المسرحيات المتعبة ما يضحك • إن انفعال الجمهور واهتمامه وضحكه جزء من مجرى

المسرحية ، له يد طولى في خلقها على نحو ما تخلق حواسنا من المادة الموضوعية جمال الشروق وسكينة البحر .

وليس الجمهور أقل من الممثلين أهمية في المسرحية ، فإذا لم يقم الجمهور بنصيبه المقدر له فإن المسرحية تذهب بددا ويضحي المسرحي حينئذ في موقف لاعب التنس الذي يجد نفسه في الملعب وحيداً وليس من ند يلاعبه .

ان الجمهور حيوان شغوف بالاطلاع ، حدته تغلب على ذكائه ، ومقدرته العقلية أقل من مقدرة الأفراد راجحي العقل فيه ، وإذا صنف هؤلاء الافراد من « الألف الى الياء » بالتتابع حسب درجة ذكائهم ، حتى تكون « الياء » ممثلة لذكاء البائعة الحمقاء فان المقدرة العقلية لهذا الجمهور تحوم حول حرف « الطاء » .

والجمهور شديد القابلية للإيحاء ، وأفراده يضحكون لنكتة لم يشهدوها لمجرد أن الذين يشهدونها يضحكون .. وهو انفعالي أيضاً ولكنه ينفر غريزيا اذا أحس أن انفعالاته هدف للإثارة ، وهو دائماً مستعد لأن ينصرف عن المسرحية مستهزئاً . وهو رقيق الشعور ، ولكنه لا يتقبل الرقة إلا وفق مزاجه ، ففي إنكلترا يتقبل الانفعالات المتصلة بمفهوم الوطن ، ولكن مفهوم حب الولد لأمه لا يثير إلا استهزاءه .

وهو لا يعبأ بالمحتمل اذا كان الموقف يثير اهتمامه ، وهذه خاصة أسرف شكسبير في استغلالها .. وهو يحرن اذا خلا الموقف من الإبداع . والأفراد يعلمون أنهم يخضعون للاندفاع خضوعاً مستمراً ، ولكن الجمهور يصر على أن يكون لكل عمل سبب معقول وأخلاق النظارة هي متوسط أخلاق المجموع ، وقد يصاب الجمهور بصدمة عاطفية لم تكن لتجرح أيا من أفراده على حدة . انه لا يفكر بدماغه بل بشبكة من أهوائه ، وما أسرع ما يحل به الضيق .. انه يحب الجدة على شرط ان تتناسب مع استعداداته الفكرية فتثيره دون أن تزعجه ، وهو يحب الأفكار مادامت تصب في قالب درامي على

شرط أن يكون لها ظل في نفسه ولكنه لم يعبر عنها لنقص في جرأته • ولن يتجاوب الجمهور إذا أوذي أو صدم •• إن رغبته الأولى هي أن ينال تأكيداً مستمراً بأن ما يعرض أمامه حقيقة واقعة •

والجماهير لاتختلف في الجوهر ، ولكنها قد ترتفع الى مستويات متفاوتة من الوعي في فترات مختلفة ، في عصر واحد •

إنّ المسرحية تصور أنماط السلوك والعادات في العصر وتؤثر فيها بدورها ، وكلما تغير السلوك والعادات تبع ذلك تغيُّر أقل في هيكل المسرحية وموضوعاتها ، فاختراع الهاتف مثلا أغنى عن كثير من المشاهد ، وأسرع في خطوات المسرحية ويسر السبيل الى تجنب كثير من المواقف البعيدة الاحتمال • والاحتمال عامل نسبي • انه يعني فقط مايمكن أن يقبله الجمهور وغالباً لاتوجد قاعدة لما يقبله الجمهور ، والناس قد يحيطون بالريبة أو يسمعون عرَضاً أشياء لايفترض فيهم أن يسمعوها كما حدث غالباً في العصر الأليزابيثي ، والعرف وحده هو الذي يرد مثل هذه الاحداث بحجة أنها غير محتملة ولكن ماهو أشد أهمية من هذا كله هو التغير الذي طرأ على نفوسنا نظراً المتغير الذي أصاب الحضارة ، حتى أصبحت بعض الموضوعات المحببة الى المسرحيين غير واردة في أيامنا • لقد خمدت شعلة الأخذ بالثأر في نفوسنا وندر أن تنال الاستحسان اليوم مسرحية تكرّس لموضوع الانتقام ولعل عواطفنا أصبحت أقل حدة من ذي قبل ، أو لعل تعليمات المسيح قد تغلغلت أخيراً في عقولنا الثخينة ولذلك لم يعد الانتقام مقبولا لدينا • وقد تجرأت مرة على التصريح بأن تحرر المرأة واكتسابها الحرية الجنسية مجدداً قد غيرا آراء الرجال حول أهمية العفة ، حتى لم تعد الغيرة تصلح موضوعاً للمأساة بل للملهاة فقط ، ولكن هذه الملاحظة قوبلت بسخط شديد يحملني على عدم التعرض لها بالتفصيل •

وقد قدمت هذا التحليل البسيط للجمهور ، لأن طبيعة الجمهور هي أهم ناحية يجب أن يراعيها المؤلف المسرحي في انتاجه • وعلى كل فنان أن يقبل أعراف الفن الذي يطرقه ولكن هذه الأعراف قد تكون من طبيعة تنخفض بسوية العمل الفني ، فقد كان من بين الأعراف الشعرية في القرن الثامن عشر أن تكبح الحماسة ، وأن يخضع الخيال للمعقول ، فأتى شعر ذلك العصر ضعيفـاً •

وكذلك على المسرحي أن يراعي الحقيقة التي ذكرناها سابقاً وهي أن عقلية الجمهور عامة أدنى بكثير من عقلية أفراده الأذكياء • وفي رأيي أن هـذه الحقيقة كفيلة بأن تخفض من مكانة المسرحية النثرية •

وقد لوحظ مرات ومرات أن المسرح متخلف عن العصر من الوجهة الفكرية أكثر من ثلاثين عاماً ، وأن المثقفين كفوا عن ارتياده بسبب هذا التخلف العقلي، ويخطر لي أن المثقفين إذ يبحثون عن الفكر في المسرحية فانهم يبدون قسطاً من الذكاء أقل مما ينتظر منهم ، فالفكر أمر خاص نابع عن العقل ، معتمد على قدرة الفرد العقلية وثقافته ، وهو يسلك طريقاً خاصاً من العقل الـذي يبدعه الى العقل الذي يتلقاه ، وكما أن مايلذ لفلان يكون سماً عند آخر ، كذلك مايعد فكرا عند امريء قد يكون بديهة عند آخر • والجمهور يتأثر بالرأي الجماعي ويحركه الانفعال • وقد سبق أن عرضت رأيي في أنه اذا صنف أفراد الجمهور من « الألف الى الياء » ابتداء من ناقد (التايمز) مثلا الى بائعة الحلويات فان سويته العقلية تحوم حول (الطاء) • وكيف يستطيع المؤلف أن يكتب مسرحية تبرز فيها أهمية الأفكار بحيث تحوز رضى ناقد

(التايمز) في مقصورته ، وفي الوقت نفسه تجعل البائعة تنسى الشاب الذي يجلس بجوارها في الصالة ويمسك بيدها • إن الأفكار الوحيدة التي يمكن أن تؤثر في ناقد (التايمز) والبائعة الساذجة حين يلتحمان معاً في هـذه الوحدة التي تسمى النظارة هي الأفكار الأساسية المبتذلة التي هي أكثر قرباً الى المشاعر • وهذه الأفكار الجذرية ، أفكار الشعر ، هي الحب والموت ومصير الإنسان ، وما من مؤلف مسرحي يستطيع أن يقول في هذه الأفكار مالم يقل ألف مرة من قبل • إن الحقائق الكبرى أجل من أن تكون جديدة• يضاف إلى ذلك أن الأفكار ليست ثمرات شجيرة في متناول الجميع ، والذين يبدعون أفكاراً جديدة في كل جيل ليسوا إلا قلة قليلة • وقلما يجتمع للمسرحي أن يكون ذا موهبة في تنسيق المشاهد وخلق الأحداث وأن يكون في الوقت نفسه مفكراً أصيلاً • ولن يكون المرء مسرحياً إذا لم يتعلق فكره بالمحسوس ، ونظرته النافذة بالمشاهد الواقعية ، ولا مجال لأن نتوقع منه ، أن يكون ذا موهبة للتفكير المجرد •• قد ينحو عقله منحى تأمليا فيشغف بما يدور في عصره من قضايا فكرية ولكن الفرق بعيد بين هذا الأمر وبين القدرة على التفكير الخلاق •

وربما صح الأمر لو أن المسرحيين كانوا فلاسفة ، ولكنهم في الواقع لايقلون عن الملوك بعداً عن الفلسفة ! والمسرحيان الوحيدان اللذان أثبتا جدارة فكرية في عصرنا هما (شو) و (إبسن) ، وكلاهما كان محظوظاً بالزمن الذي ظهر فيه • كان مقدم (إبسن) معاصراً لحركة تحرير المرأة من وضعها السيء الذي تردت فيه زمانا طويلا ، وعاصر (شو) ثورة الشاب على تقاليد العصر الفيكتوري والتزمت الذي كان يلفعه •

وكان بين أيديهما موضوعات جديدة بالنسبة للمسرح يمكن أن تعرض عرضاً مسرحياً ذا تأثير • وقد رزق (شو) معنويات عالية ومرحاً صاخباً وألمعية وخصباً في الإبداع الهزلي •

أما (إبسن) فكان إبداعه ضئيلا وتكررت شخصياته بشكل بليد تحت أسماء مختلفة ، لم تكن حبكته تختلف كثيراً بين مسرحية وأخرى ، وليس من الغلو أن نقول ان طعمه الوحيد هو ان شخصاً غريباً يأتي فجأة الى غرفة عفنة الهواء فيفتح نوافذها ، فيموت الجالسون فيها من شدة البرد ، وتكون النهاية تعيسة بالنسبة للجميع ، وحين تمعن النظر في المحتوى الفكري الذي قدمه هذان المؤلفان لن يفوتك ، الا اذا كنت سيء الثقافة ، أن تدرك أن هذا المحتوى يتألف من الثقافة العامة للعصر • وقد عبر (شو) عن أفكاره بحيوية غامرة اختلبت ألباب الناس لأن المقدرة العقلية للجمهور كانت غير معتبرة ، ولكنها لم تعد تخلب الألباب اليوم ، وفي الحق يميل الشباب اليوم الى اعتبارها تهريجاً عفاه الزمن •

ان العيب الذي تسديه « الفكرة » للمسرحية — وخاصة ان كانت « فكرة » مقبولة لا اعتراض عليها — هو أن الجمهور يتقبلها ، وبذلك تفقد المسرحية مبرر الاسهاب في عرض هذه « الفكرة » وتقديمها •• إذ ليس ماهو أشد ارهاقاً لك في المسرح من أن تستمع ، رغما عنك ، الى التفصيل في فكرة ، أنت في غنى عن التفصيل فيها ، لأنك مسلم بها كل التسليم • والآن وقد أصبح حق المرأة في الاستقلال الشخصي معترفاً به من قبل الجميع ، فمن المستحيل الإصغاء الى (بيت الدمية) دون ملل •

إن مسرحيات الأفكار تجني على نفسها ، فالمسرحية موقوتة على أي حال، لأنها ترتدي زي زمانها ، والزيّ يتغير من زمن الى آخر حتى تفقد المسرحية واقعيتها وهي إحدى ملامح الفتنة فيها ، ومن المؤسف أن نجعلها أكثر ارتباطاً بالزمن وذلك ببنائها على أفكار سرعان ماتؤول الى الذبول • وحين أقول إن المسرحيات موقوتة ، لا أقصد المسرحيات الشعرية — وإن كانت أعظم الفنون وأنبلها يمكن أن تفسح مجال الحياة أمام غيرها من الفنون المتواضعة — إنما أقصد المسرحيات النثرية التي تشغل مسرحنا الحاضر • وفيما أعلم ، لم

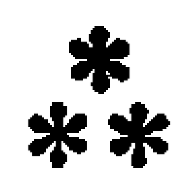
تتمكن أية تمثيلية نثرية جادة من البقاء بعد الجيل الذي ولدت فيه • وهناك ملاهٍ قليلة استطاعت بفعل المصادفة أن تســـافر عبر قرنين أو نحو ذلك • وهي تبعث بـــين حين وآخر لأن دورا مشهوراً يغري ممثلا مرموقـــاً أو لأن منتجاً بحاجة الى فترة من الراحة يقبل على هذه المسرحيات التي تعفيه مـــن دفع أجور للمؤلفين • إنها قطع متحفية يضحك الجمهور لما فيها من ألمعيـــة ضحكا مهذبا ، ويضيق بما فيها من تهريج سوقي • إنها عاجزة عن حبس أنفاس النظارة وإقناعهم ونقلهم الى الجو الوهمي للمسرح •

ولكن مادامت المسرحية موقوتة فلماذا لا يتساءل المسرحي عن الفارق بينه وبين الصحافي من الطراز الأول الذي يكتب لقراء المجلات الأسبوعية ، ولماذا لا يؤلف مسرحيات حول القضايا الرائجة في أيامه من سياسية واجتماعية؟ ولن تكون أفكاره إذ ذاك أكثر أصالة ، ولا أقل ، من أفكار الشبان الجادين الذين يكتبون في تلك المجلات ، بل ليس من سبب لأن تكون أقل إمتاعاً ، وإذا عفا الزمن المسرحية وبدت أفكارها عتيقة مع مرور الأيام فماذا يضيرها؟ أليست المسرحية عرضة للموت في أي حال ؟ والجواب على هذا السؤال عندي أنه لا مانع مطلقاً من ذلك اذا استطاع الكاتب أن يحسن تدبيرها وإذا اقتنع أنها تستحق العناء •

ولكن عليه أن يأخذ حذره من النقاد الذين لن يقدموا له من الشكر إلا قليلا ، فبالرغم من أنهم يرحبون بمسرحية « الأفكار » حين تقدم اليهم ، فسرعان ما يستهزئون بها إذا أتت أفكارها مألوفة عندهم ، معتقدين بتواضع أن مايعرفونه ان هو إلا شائع مبتذل أما إذا كانت الأفكار غريبة عنهم فسرعان مايصمونها بالسخف المطلق وينقضون على المؤلف كما تنقض ألف طوبة • حتى (شو) الذي كان يحمل رخصة مسرحية « الأفكار » لم ينج من قرون هذه المعضلة ، وقد ألفت الجمعيات لتنتج مسرحيات يرتادها الأشخاص الذين يحتقرون المسرح التجاري ، ولكن هذه الجمعيات تتوارى لأن المثقفين لايمكن إقناعهم برعاية هذه المسرحيات ، وإذا اقتنعوا بالذهاب الى المسرح ودّوا

لو يعفون من الدفع ، وهناك عدد من المسرحيين يقضون أوقاتهم بكتابة مسرحيات لا تتبناها إلا هذه الجمعيات • إنهم يحاولون أن يقدموا شيئاً لم تخلق المسرحية له ، وما أن يقبل عليهم عدد من الأشخاص في قاعة المسرح حتى يصبح هؤلاء الاشخاص جمهوراً يتعرض لما يتعرض له الجمهور من ردود فعل ، رغم أن سويتهم العقلية أعلى من المعتاد ، ويسيِّرهم الانفعال أكثر من العقل وينشدون عملا أكثر مما ينشدون جدالا (ولا أعني بالعمل مجرد العمل الجسدي فمن وجهة النظر المسرحية تعد شكوى احدى الشخصيات من الصداع عملا لا يقل عن سقوط شخص من على برج) •

وحين تخفق أمثال هذه المسرحيات يدعي مؤلفوها أن مستوى الجمهور لا يؤهله لتذوقها • وأحسب أن مسرحياتهم تخفق لأنها لاتحمل قيمة مسرحية• ولا يحسبنّ امرؤ أن المسرحيات التجارية تنجح لأنها مسرحيات سيئة • نعم انّ القصة التي تعرض قد تكون مبتذلة والحوار شائعاً والتشخيص عاديا ومع ذلك تنجح المسرحية لانها تتمتع بمزية اجتذاب الجمهور بواسطة النداء النوعي للدراما • وهذه المزية أساسية رغم أنها تافهة بلا ريب • أما أن هذه المزية ليست الشرط الوحيد في الرواية التجارية فذلك ظاهر في مسرحيات (لوب دوفيجا) و (شكسبير) و (موليير) •



إذا كنتُ قد أفضت سابقاً في الكلام على التمثيليات الفكرية فما ذاك إلا لأنني أعتقد أن السعي وراء مثل هذه التمثيليات هو السبب في الحالة المزرية التي تردّى اليها مسرحنا • إن النقاد يلهجون بها ، والنقاد في رأيي أسوأ من يحكم على المسرحية ، ذلك لأن المسرحية تتجه الى الجمهور كوحدة، والتيار المعدي الذي يسري من شخص الى آخر أساسي بالنسبة للمسرحي الذي يهمه أن ينشر العدوى وأن ينتزع الناس من ذواتهم حتى يصبحوا أداة طيعة في يده ، وما يصدر عنهم بعد ذلك من تجاوب أو صوت أو انفعال ان هو إلا جزء من المسرحية ، أما الناقد فيشاهد الرواية ليحكم عليها لا ليحس بها ، وعليه أن يظل بمنأى عن العدوى التي تكتسح المجموعة وأن يحافظ على امتلاكه لذاته ، ولا ينبغي له أن يسمح لقلبه أن يحوم به بعيداً ، وعليه أن يبقي رأسه مشدوداً على كتفه ، وعليه أن يحترس لكي لا يصبح جزءاً من الجمهور •

إنه يراقب المسرحية من بعيد ولا يندمج بها ، وتكون نتيجة ذلك كله أن الناقد لايرى المسرحية نفسها التي رآها الجمهور لأنه لم يشترك في أدائها كما فعل الجمهور ، ومن الطبيعي إذ ذاك أن ينشد في المسرحية أموراً أخرى تختلف عما ينشده الجمهور • وليس من سبب لأن يجد الناقد ضالته لأن المسرحيات لا تكتب للنقاد بل للجمهور أو على الأقل ينبغي لها أن تكون كذلك • ولكن كتاب المسرحيات مرهفو الحس ، وحين يقال لهم ان المسرحيات التي كتبوها إهانة للذكاء الناضج يحل بهم الضيق ويودون لو قدموا شيئاً أفضل ، وهكذا يقدم الناشئون الذين مازالوا يخبون وراء سحب المجد على

كتابة تمثيليات « الأفكار » وأمامهم مثال (شو) دليل على أن المحاولة مؤتية أكلها وجالبة للشهرة والثروة •

لقد كان تأثير (شو) في المسرح الإنكليزي مدمراً • فالجمهور لم يحب مسرحياته دوماً أكثر مما أحب مسرحيات (إبسن) ، ولكنه بعد أن رأى هذه المسرحيات تضاءل حبه للمسرحيات التي كتبت على الطريقة القديمة ، وأتى أتباع (شو) من بعده وحاولوا أن يترسموا خطاه وثبت أن تقليد (شو) مستحيل بالنسبة لمن يفتقر الى مواهبه العظيمة ، وكان أخلصهم موهبة (جرانفيل باركر) فقد أظهرت مشاهد كثيرة في مسرحياته أن لديه استعداداً عظيماً ليكون كاتباً جيداً ، فمن موهبة مسرحية ، الى مقدرة على الكتابة السهلة ، الى حوار طبيعي مسل ، الى إدراك للشخصية المسرحية المؤثرة • وقد قاده تأثير (شو) الى أن يلحق أهمية بالأفكار التي كانت مبتذلة نوعاً ما ، وأن يفترض ان الالتواء الطبيعي في ذهنه حسنة لها شأنها • ولو لم يقتنع بأن النظارة حمقى ينبغي للكاتب أن يلهب ظهورهم بالسياط ، لا أن يتلطف بهم ، لكان قد تعلم عن طريق المحاولة والخطأ ، كيف يصحح سقطاته، ولكان أضاف الى مسرح بلاده عدداً من التمثيليات الشعبية الممتازة جداً •

أما مقلدو (برناردشو) الأقل أهمية فلم يفعلوا الا أن ينسخوا مثالبه ،

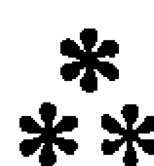
إن (شو) لم ينجح على المسرح لأنه كاتب مسرحيات فكرية ، بل لانه مسرحي ، وليس من سبيل الى تقليده ، إنه مدين بأصالته الى نمط في التفكير لم يسبق للمسرح أن عبر عنه ، ولكن ليس له قيمة كبرى في حد ذاته • ومهما يكن من أمر الإنكليز في العصر الأليزابيثي فإنهم ليسوا عرقا يؤمن بالحب ، والحب عندهم أقرب الى الشعور الرقيق منه الى العاطفة المتأججة ، وهم بالطبع لا يفتقرون الى الكفاية الجنسية لحفظ نوعهم ، ولكنهم لايستطيعون أن يتخلصوا من الشعور الداخلي بالاشمئزاز من العملية الجنسية ، وهم أميل الى اعتبار الحب مودة أو إحسانا لا عاطفة متأججة ،

ويستحسنون ما يكتبه الأساتذة في الكتب المدرسية عن سمو الحب ،وينفرون أو يضحكون من التعبير عنه بصراحة • والانكليزية هي اللغة الحديثة الوحيدة التي اضطرت الى أن تستعير كلمة من اللاتينية تتضمن شيئا من الطعن للدلالة على الرجل المولع بزوجه وهي كلمة (Uxorious) كأنما بدا للانكليز أنه لا يليق بالرجل أن يكرس نفسه لحب امرأته ، بينما الرجل الذي أفلس في سبيل امرأة يحاط بالاعجاب والعطف في فرنسا ، حيث يشعر الناس أن الامر يستحق التضحية ، ويحس الرجل الذي يقدم على مثل هذا العمل بشيء من الكبرياء ، أما في انكلترا فهو يعد نفسه ، ويعده الناس أحمق منكودا ، ولعل هذا هو السبب في أن مسرحية (أنطونيو وكليوباترة) كانت دوماً أقل شعبية من سائر مسرحيات شكسبير العظيمة ، وكان النظارة يشعرون بالأسى لان رجلاً أضاع إمبراطورية في سبيل امرأة ، وفي الحق لو لم تكن هذه المسرحية مبنية على أسطورة مقبولة لأجمع النظارة على التأكيد بان حدوث مثل هذا الامر لايصدق •

والجمهور قبل (شو) أكره على مشاهدة مسرحيات كان الحب فيها الدافع الاساسي للحوادث ، ولكنه كان يحس بغريزته أن الحب مهما يكن من أمره ، لايستحق تلك الاهمية التي نسبها له المسرحيون ، فهناك أيضاً السياسة و (الجولف) وتسيير الاعمال وأشياء أخرى كثيرة ذات شأن ، ولذلك أثلج صدر الجمهور أن يستمع لكاتب اعتبر الحب مملا وثانويا وإرضاء للحظة من الاندفاع تعقبه عادة نتائج وخيمة •

وكان في هذا الموقف جانب من الحقيقة كاف لأن يؤثر في الناس ، رغم أنه عرض بشيء من المبالغة كما ينبغي أن تعرض الامور على المسرح ، ولاتنس أن (شو) مسرحي ماهر جداً ، وقد وقع هذا الامر موقعاً حسناً لدى (البيوريتانية) ذات الجذور العميقة في العرق الانكليزي • على أن الانكليز اذا لم يكونوا مؤمنين بالعشق ، فهم رقيقو الشعور وانفعاليون ، وقد أحسوا

أن ما قدمه (شو) لم يكن الحقيقة كلها •• وحين أعاد ذلك بعض المسرحيين ـــ لا لأنه كان كما عند (شو) تعبيراً طبيعياً عن الشخصية بل لانه كان ذا تأثير وجاذبية ــ فقد انكشف ضيق أفقه ، وأصبح مملا •• إن المؤلف يصف لك عالمه الخاص ، ولن تصغي له الا اذا وافق هوى في نفسك ، وليس من سبب يبيح لك أن تشق على نفسك بتقليد المؤلف دون أصالة ، وهكذا لم يصب خلفاء (شو) في إعادة ماسبق أن أفصح عنه بأقوى عبارة •



في رأيي أن المسرحية اتجهت اتجاهاً خاطئاً حين قادها السعي وراء الواقعية الى التجرد من الشعر وهو زينة لها •• ان للشعر قيمة مسرحية نوعيةيستطيع أن يدركها أي إنسان يلاحظ ما تتركه من أثر مدوٍّ في نفسه إحدى القطع العظيمة المشهورة من مسرحيات (راسين) أو (شكسبير) ، وهذا الأثر مستقل عن المعنى ، ويعود الى القوة الانفعالية للكلام الموزون ، بل انالشعر يفرض على المادة شكلا تقليديا يقوي التأثير الجمالي ويمكن المسرحية من اكتساب جمال لا سبيل اليه في المسرحية النثرية ، ومهما أعجبت بـ (البطة البرية) و (أهمية الجد) و (الانسان والانسان الخارق) فانك لن تستطيع أن تصف هذه المسرحيات بأنها (جميلة) دون أن تنال من هذه الكلمة •

ولكن القيمة الحقيقية للشعر هي في أنه ينقذ المسرحية من الواقعية الرصينة ويضعها في مستوى آخر على شيء من البعد عن الحياة ، وبذلك يسهل النظارة أن يندمجوا بأنفسهم في ذلك الجو الشعوري الذي يمسون فيه أرهف استجابة للنداء النوعي للمسرحية وبهذه الوسيلة الاصطناعية لا تكون المسرحية ترجمة حرفية دقيقة للحياة بل نقلاً حراً يمكن المسرحي من التشديد على النواحي التي تلائم إمكانات فنه ، لان المسرحية تعتمد على الإيهام والتأثير ، لا على الواقع ، وتحتاج الى ذلك التشويق القائم على الشك الذي تحدث عنه (كولردج) •

إن أهمية الحقيقة عند القاص هي أنها تزيد من شغف القارىء ، ولكنها عند المسرحي مرتبطة بالاحتمال ، محدودة بقناعة النظارة ، فإذا صدقوا أن رجلا يشك في إخلاص زوجه لأن امرأ أخبره أنه وجد منديلها في حوزة

رجل آخر ، فهذا على علاته يصلح دافعاً كافياً للغيرة ، وإذا صدقوا أن عشاء حافلا بستة أصناف يمكن أن يلتهم في عشر دقائق كيفما اتفق فللمسرحي أن يعتمد على قناعتهم هذه وان يمضي في مسرحيته • ولكن المسرحي يسلب قسماً عظيماً من مصادره حين يطلب اليه أن يقدم واقعاً أعظم بكثير مما سبق ، إن في الدوافع ، أو في الاحداث ، وان ينسخ الحياة نسخاً دون أن يوشيها بالمرح أو بالرومانتية ، وعليه إذ ذاك أن يطرح كلام الممثلين الجانبي ، لان الناس لا يتكلمون مع أنفسهم بصوت عال ، وليس له أن يرصد الحوادث التي تمكنه من جعل العمل المسرحي متلاحقاً متسارعاً بل عليه أن يترك الحوادث تنساق عن قصد كما تنساق في الواقع، وينبغي له أن يهجر المصادفة والأحداث العارضة لأن الأمور لا تجري (كما نعلم في المسرح) على هذا النحو • وقد أثبتت التجربة ان الواقعية غالباً ما تنتج مسرحيات بليدة باهتة •

وحين بدأت السينما الناطقة ، انهار كل دفاع عن المسرحية النثرية ، فالسينما تستطيع أن تقدم العمل المسرحي بطريقة أشد تأثيراً • وقد وفرت الشاشة ذلك الجو المصطنع الذي سبق للشعر ان ولده في المسرح ، مما أوجد مقياساً جديدا للاحتمال مقبولاً ، اذا استطاع أن يخلق المواقف • وكذلك أعطت الشاشة فرصة لكل نمط من أنماط الرواية ، وقدمت من المشاهد الدرامية أو المبهجة ما كان خليقاً أن يحرك الجمهور ويثير انفعاله • وكان على كتاب المسرحية الفكرية أن يقتنعوا رغم أنوفهم ، بأن الطبقة الذكية التي كتبوا لها لم يعد لها اهتمام بمسرحياتهم ، لأنها أخذت تزأر بالضحك في الروايات الهزلية ، وتتمرغ في أهوال المشاهد السينمائية ، وكانت النتيجة انهم عادوا فأذعنوا للجو الذي شق على المسرحية أن تفقده واستسلموا لشيطان الإيهام الذي استطاع أن يجتذب النظارة الذين رأوا لأول مرة مسرحيات (لوب دو فيجا) و (وليم شكسبير) •

لقد تجنبت دائماً دور المتنبيء ، وتركت للآخرين مهمة اصلاح زملائي •

على أنني لا أستطيع الا أن أقر بأن المسرحية النثرية التي وهبتها جانباً مـن حياتي آيلة الى الزوال •

إن الفنون الجانبية المعتمدة على السلوك والعادات في عصر ما ، لا على الحاجات الإنسانية الجذرية ، هذه الفنون تظهر حيناً وتختفي حيناً آخر • فالأغنية الغرامية (المادريغال) كانت يوماً ما وسيلة شائعة للتسلية الموسيقية، وكان الكتاب يتسابقون الـى أدائها ، ثم انكمشت حـين اخترعت الآلات الموسيقية التي استطاعت أن تولد بصورة أجمل التأثـيرات الخاصة التـي حاولت هذه الأغنية أن تولدها ، وليس من سبب يقي المسرحية النثرية من معاناة المصير نفسه • ورب قائل يقول : ان الشاشة لا تستطيع أن تعطي الهزة العاطفية التي يشعر بها الإنسان حين يرى أمامه شخصاً من لحم ودم (على المسرح) وربما قيل قديماً إن الأوتار والخشب لا تستطيع ان تولـد الطبيعة المرهفة للصوت الإنساني في الأغنية الغرامية القصيرة (المادريغال) ، وقد أثبتت الوقائع بطلان هذه الادعاءات •

وأحب أن أصر على ان المسرحية ينبغي أن تكف عن أداء ما يمكن أن تؤديه السينما بطريقة أفضل ، إذا أرادت أن تتيح لنفسها فرصة البقاء •

وقد ضل الطريق أولئك المسرحيون الذين حاولوا أن يولدوا عن طريق تكديس المشاهد القصيرة ، ماتقدمه السينما من عمل سريع وأوضاع منوعة •

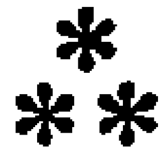
ويخطر لي أن المسرحي يحسن صنعا في هذه الأيام لو عاد الى أصول المسرحية الحديثة واستعان بالشعر والرقص والموسيقى والاستعراض حتى يستطيع أن يوفر كل ضروب الإمتاع الممكنة •

ولكنني واثق ان السينما بإمكاناتها الضخمة تستطيع أن تؤدي بصورة أفضل كل مايمكن أن يؤديه المسرح الناطق ، وبالطبع تتطلب المسرحية التي ذكرنا ان يكون كاتبها شاعراً أيضاً • وربما كانت فرصة أفضل للمسرحي الواقعي اليوم هي أن يشغل نفسه بالأمور التي عجزت السينما حتى اليوم

عن أدائها أداءً جيـداً ، أعني المسرحية التي تعتمد على العمل الداخلي لا الخارجي ، وملهاة البديهة الذكية ، لان شاشة السينما تتطلب عملاً جسدياً ، وتتضاءل فيها قيمة الانفعال الذي لا يمكن أن يترجم الى فعل ، والمرح الذي يعتمد على العقل ، وقد يتاح لمثل هذه المسرحيات أن تلقى قبولا في فترات زمنية محدودة •

وفي حقل الملهاة ينبغي أن نقرر ان نشدان الواقعية ليس له ما يبرره ، لأن الملهاة عمل اصطناعي لا يفترض فيه أن يكون طبيعيا في جوهره ، بل يكفي أن يظهر بمظهر طبيعي • والضحك في الملهاة غاية لا وسيلة •

وليس هدف كاتب المسرحية اليوم أن يقدم الواقع كما هو (وهذا عمل مأساوي) ولكن أن يعلق على الواقع بطريقة لاذعة مسلية • وينبغي ان لاتتاح الفرصة للنظارة كي يتساءلوا : هل تحدث مثل هذه الأمور ؟ بل عليهم أن يكتفوا بالضحك • وعلى كاتب الملهاة اليوم أكثر من أي وقت مضى أن يعتمد على التشويق القائم على التشكيك ، وهكذا يكون النقاد على غير حق حين يشكون من هبوط ملهاة بين حين وآخر الى مستوى الملهاة العامية• وقد أثبتت التجربة استحالة الاحتفاظ بانتباه الجمهور طوال فصول ثلاثـة من الهزل الخالص ، لان الملهاة تستجيب للعقل الجماعي للنظارة ، وهذا العقل عرضة للتعب ، بينما تتجه الملهاة الى عضو أقوى هو بطنهم الجماعي • ان كتّاب الملهاة العظام مثل شكسبير وموليير وبرنارد شو لم يترفعوا عن الملهاة العامية ، ودماء الحياة هي التي تجعل جسم الملهاة نابضاً بالحياة والحركة •



هذه الأفكار التي تطوف في مخيلتي أخذت تضعف من قناعتي بالمسرح شيئاً فشيئاً حتى قررت أخيراً أن أنفض يدي منه ، وساعدني على اتخاذ هذا القرار أنني لم ارتح قط للتعاون الذي تتطلبه المسرحية ، باعتبارها إنتاجا فنيا يحتاج الى جهد جماعي كما سبق أن بينت • وهكذا أخذت أعاني من صعوبة الانسجام في العمل مع شركائي في المسرحية •

وكثيراً ما يقال ان الممثلين الأكفاء يستطيعون أن يعطوا المسرحية من القيمة أكثر مما أعطاها المؤلف ، وهذا باطل ، لان الممثل الكفء يعطي المسرحية بفضل موهبته قيمة لايتاح للرجل العادي أن يدركها بالقراءة •• ولكن الممثل لا يستطيع ، على غلوائه ، أن يصل الى أبعد من المثال الذي يضعه مؤلف الرواية نصب عينيه ، فإذا بلغ هذا الحد فهو ممثل رفيع القدر ، لان المؤلف عادة مكره على الاكتفاء بأداء قريب جداً من الأداء المثالي الذي يتصوره • وفي جميع مسرحياتي حالفني الحظ بممثلين أدّوا بعض الأدوار وفق رغبتي ، ولكن لم يحدث في أي منها أن مثلت كل الادوار وفق ما أشتهي ، وهذا أمر محتوم لأن الممثل الذي خلق لدور معين قد يكون مشغولاً وعلينا أن نكلف ، مكرهين ، من هو أدنى منه درجة •

ويعرف كل من عمل في توزيع الأدوار بالمسرح في السنوات الاخيرة ان المنافسة في نيويورك وإغراء السينما في كلٍ من إنكلترا وأمريكا جعلا قضية اختيار الممثل المناسب للدور المناسب أصعب من أي وقت مضى ، وأخذ المنتجون يتقدمون المرة تلو المرة على استخدام ممثلين يعرفون انهم متوسطو القدرة ، لأنهم لايجدون خيرا منهم •

وهناك صعوبة أخرى هي قضية الأجور• فالأدوار القصيرة غالباً ماتحتاج

الى أداء ماهر ولكنها من زاوية الإنتاج تستحق أجراً محدوداً مما يحول دون استخدام الممثل المناسب ذي الخبرة الكافية ، وهكذا يؤدي الدور أداء ناقصا ويختل التوازن في المسرحية ، وقد يُهدر مشهد له قيمة محددة لأنه مُثّلَ تمثيلا غير صحيح • وقد يحدث أن يرفض الممثل دوراً مناسباً بحجة انه صغير أو خال من التعاطف •

وفي كل ما ذكرت لا أرمي الى التقليل من امتناني للممثلين البارزين والممثلات البارزات ممن يعود اليهم الفضل في النجاح الذي أصابه عدد من مسرحياتي • وقائمة أولئك الذين حققوا آمالي طويلة جداً لا أستطيع أن أسردها مخافة الإملال ، ولكن هناك ممثلاً أود أن أُنوه به لانه لم يصل الى مرتبة النجم ولم ينل من الاعتراف بالجميل مايستحقه ، ذلك هو (س• ف• فرانس) الذي مثل في كثير من مسرحياتي ولم يلعب دوراً الا أنتزع به الإعجاب ، وقد مثل الشخصيات في أدق التفاصيل التي دارت في مخيلتي، ومن الصعب أن تعثر في المسرح الانكليزي على ممثل أكبر لباقة وأجدر وأذكى منه•ومن جهة أخرى شهدت كثيراً من مسرحياتي تُمَثَّل فلا يرى فيها النظارة ما أردت لهم أن يروه •

والأخطاء في توزيع الأدوار ، ولا سيما حين تحدث مع ممثلين مشهورين، لا سبيل الى إصلاحها ، وعلى المؤلف اذ ذاك أن يعاني من وطأة الحكم عليه لمجرد أن مقاصده أسيء تمثيلها • وليس في المسرحية أي مشهد يتمتع بحصانة ضد تشويه التمثيل •

وهناك أدوار مؤثرة وأدوار أخرى غير مؤثرة رغم أهميتها ، ولكن الدور مهما كان مؤثراً لاتظهر قيمته للجمهور الا اذا مثل تمثيلا متقنا • إن أمرح الكلام لا يمكن أن يكون مرحا إلا إذا قيل بطريقة صحيحة ، والمشهد مهما كان ناعماً يظل عُرْضة لأن تهدر قيمته إذا أُدي بغير نعومة •

وهناك وهدة أخرى قد يحفرها الممثلون للمؤلف ، ولكنها غير معروفة تماماً ومن الصعب تفاديها بسبب الأسلوب المتبع في اختيار الممثلين للأدوار • إن المؤلف يبدع الشخصية ثم يختار الممثل لأنه حائز على الصفات التي يبتغيها المؤلف ، وعند التمثيل تجتمع الصفات التي رسمها المؤلف مع مزاج الممثل لتنتج مبالغة سخيفة ، والشخص الذي اخترعه المؤلف ليكون طبيعيا ومعجبا يصبح مغالاة مسفة • وقد حاولت كثيرا أن أعطي بعض الممثلين أدوارا تناقض طبيعتهم ، ولا أعلم ان هذه المحاولة أصابت نجاحا ، انها تحتاج الى قدرة على التكيف تفوق ما يستطيعه الممثلون المحدثون • وقد تكون أفضل طريقة لتفادي هذه الوهدة هي أن يكتب المؤلفون فصول المسرحية ويرسموا حدوداً خفيفة للشخصيات تاركين للممثلين مجال التصرف الفردي • وهنا ينبغي أن يتأكد المؤلف من وجود الممثل الذي يمكن أن ينهض بهذا العبء •

إن المبالغة من هذا النوع والخطأ في توزيع الأدوار — وهما محتومان أحيانا — يؤديان الى تشويه مقاصد الكاتب التي كثيرا ما يشوهها المخرج أيضاً • وحين بدأت أكتب للمسرح كان المخرجون ينظرون الى مهمتهم نظرة أكثر تواضعاً مما يفعله مخرجو اليوم ، فقد قصروا مهمتهم على حذف ما قد ينصرف اليه المؤلف من إطالة ، وكذلك إخفاء أخطائه في البناء المسرحي بحسن تصرفهم ، وكانوا ينظمون أوضاع الممثلين ويساعدونهم على أن يؤدوا أدوارهم خير أداء • وأعتقد أن (راينهارت) هو اول من جعل للمخرج نصيباً راجحاً في هذا العمل المسرحي المشترك ، واقتفى أثره مخرجون كانوا يفتقرون الى موهبته ، ووقر في الأذهان الادعاء بأن مخطوطة المؤلف ليست أكثر من عربة يستخدمها المخرج لنقل أفكاره ، حتى وجدت أكثر من مرة شواهد على مخرجين تصوروا انهم كتاب مسرحيات وقد اخبرني (جيرالد

دى موريبه) نفسه ، وهو مخرج جيـد ، انه لم يكن يقبل على إخـراج مسرحية لا يستطيع ان يعيد كتابتها جزئيا • وهذه حالة متطرفة إلا أنه أصبح من الصعب جداً العثور على مخرج يقنع بفهم مسرحية المؤلف ، لان المخرج في الأغلب أخذ ينظر الى المسرحية على أنها فرصة لخلق جديد من إبداعه • انّ الجمهور لا بد أن يصاب بالدهشة إذا أدرك الى أي مدى يساء تمثيل أفكار الكاتب بسبب العناد الغبي عند المخرجين ، وكم من مواقف عاميـة غثة يلام الكاتب بسببها بدلاً من ان يلام المخرج • ان المخرج رجل أفكار ولكن ما أقل أفكاره ، وهنا المصيبة • ان تصور الأفكار أمر منعش ولكنه يظل سليما ما دام المرء قادراً على تصور الكثير من الأفكار وبذلك لا يعزو أهمية كبرى لأفكاره ويستطيع تقديرها حق قدرها • أما اذا كانت أفكاره محدودة فيصعب عليه أن ينظر اليها إلا باحترام غير عادي • فالمخرج الذي ينحصر تفكيره في قطعة من الحوار او في بعض شؤون العمل او في بعض المؤثرات الجانبية لا بد من ان يلحق بهذه الأمور أهمية عظمى حتى يندفع مبتهجا الى شل العمل المسرحي او تشويه المعنى من أجل تحقيقها •

وغالباً ما يكون المخرج مغروراً معتداً بنفسه قاصر الخيال ، وهو في بعض الأحيان حاكم فرد يـُكـرِه الممثلين على أداء نبراته وتصرفاته ، والممثلون لا يستطيعون الا أن يذعنوا لإرادته اما طمعاً بالحصول على الأدوار الجيدة التي يـُمنـّيهم بها أو رغبة في كسب رضاه ، وتكون النتيجة أن الممثل يفقد كل بداهة في الاداء •

إن أحسن المخرجين هو أقلهم تدخلا •

وقد أسعدني الحظ ، بين حين وآخر ، بمخرجين كانوا مهتمين باخلاص ان يبذلوا جهدهم ضمن حدود المسرحية ، حريصين على تنفيذ رغباتي ، على انه من الصعب ان يدخل إنسان الى عقل آخر ، واكثر المخرجين تعاطفا لا يستطيع ان يقدم أكثر من ظل لمقاصد الكاتب ، وأعتقد انه يعطي النظارة دائماً أشياء يمكن ان تحظى بمحبتهم أكثر مما تحظى به مقاصد الكاتب

الأصلية ، ولكن هذا ليس من هدف الكاتب في شيء ·

وعلاج هذه المسألة طبعاً ان يقوم الكاتب باخراج مسرحيته · وما أقل من يستطيع ذلك من الكتّاب ، أللهم إلا من كان قبلا ممثلا ، إذ لا يكفي أن تكون قادراً على إبلاغ الممثل ان هذه النبرة او تلك الاشارة خطأ ، بل عليك أن تريه بالقول والفعل ما هو الصحيح ، وهذا الأمر ضروري اليوم أكثر من أي وقت مضى ، لان ممثلي الأدوار الصغرى ليست لديهم مهارة فنية كافية · وقد اعتاد (جيرالد دي موربيه) أن يفعل ذلك بطريقة رادعة ناجعة وهي ان يقلد تقليداً ساخراً أداء الممثل لشيء ما ، ثم يريه الطريقة الصحيحة ، واستطاع ان يفعل ذلك لأنه كان مهرجاً ناجحاً وممثلا ناجحاً ، ولكن هذه المسألة بسيطة بالنسبة لمهمات الإخراج ·

إن الإخراج عمل معقد ·· إنه عمل ، او قل انه فن قائم بذاته لا يكتسب إلا بالدأب فعلى المخرج ان يعالج النواحي الآلية في المسرحية كالدخول والخروج والمواقف المعينة للشخصيات المختلفة بحيث يكون تجمعهم لائقاً ويتوزعون بطريقة تجعل توجيه أنظار الجمهور اليهم في الوقت المناسب ممكناً وسهلاً ، وهو يلقي بالاً الى الخصائص الفردية لكل ممثل ويسهل له سبيل التخلص وحسن التصرف إذا طُلِبَ اليه أن يؤدي عملاً ليس في مقدوره ، وعلى المخرج ان يدرك خصائص المثلين عامة فلا يعطي مثلاً أي ممثل إنكليزي كلاماً يتجاوز العشرين سطراً مخافة ان يعود اليه وعيه لنفسه إذ ذاك ، وعليه ان يتدبر الوسائل الكفيلة بتمكين الممثلين من التغلب على ضعف الثقة بالنفس، وعليه ان يوجه اهتمام النظارة الى النقاط الرئيسية في المسرحية ، ويحتال لجعلهم يتحملون المقاطع البليدة التي تفرضها الضرورة عند العرض او الوصل، وكذلك المقدمات التي تسبق الأحداث المسرحية ، وهي أمور لا تستطيع أية مسرحية ان تتجنبها ·

وعلى المخرج أيضاً ان يحسب حساباً لانتباه النظارة الذي لا يستقر وأن

يحتفظ به عند النقاط الحساسة بتدبير من إحكام العمل ، وان يحسب حساباً لرهافة الحس والحسد والغرور عند الممثلين ، ويحرص على أن لاتُخِلّ الأنانية الطبيعية بتوازن المسرحية وان يعمل على إعطاء كل دور قيمته الصحيحة فلا يسمح لأي ممثل ان يجور على زميله ليزيد من أهمية دوره ، وهو الذي يقرر متى يسير العمل بسرعة ومتي يسير ببطء ، ومتى ينبغي التأكيد ومتى ينبغي الاقتضاب ، ومتى يكون الهزل ومتى يكون الجد ، وهو الذي ينظم الأوضاع بحيث تكون عملية ومناسبة للأداء المسرحي ، وهو الذي يختار الثياب الملائمة للأدوار ويرقب باحتراس الممثلات اللواتي يفضلن أن يكن جميلات اللباس على أن يظهرن بالمظهر اللائق • وهو يهتم كذلك بالإضاءة •

إن الاخراج عمل أو فن يحتاج الى معرفة فنية ونظام دقيق ، ويحتاج كذلك الى المهارة والصبر ولطف المزاج والثبات والمرونة •

اما أنا فقد كنت واعياً تماماً أنني لا أملك شيئاً من المعرفة الفنية ، ولا أتمتع إلا بقليل من الصفات التي تلزم لإخراج مسرحية • وقد اعاقني عن ممارسة الإخراج أيضاً لعثمة في لساني وحادث آخر عانيت منه ، إذ بعد ان كتبت إحدى مسرحياتي وأنهيت تصحيح مسوداتها ، فقدت كل اهتمام لي بها ، وقد كنت قبلُ أتطلع بشغف الى يوم تمثيلها ولكن بعد أن سلمتها الى الآخرين لم أعد أستطيع أن أنظر اليها نظرة المرء الأليفة الى شيء يخصه ، تماماً كمثل الكلبة تكف عن الاهتمام بمصير جرائها حين تسلمها الى الآخرين• وقد وُجّه إليّ اللوم مراراً بسبب خضوعي السهل للمخرجين وقبولي آراءهم حين تتعارض مع آرائي ، وتأويل ذلك أنني دأبت دوماً على الاعتقاد بأن معارف الآخرين تفوق معارفي ، ولم أكن أُحب النزاع الا حين أخرج عن طوري ، ونادراً ما كان يحدث ذلك ، وأخيراً لم أكن شديد الحرص على شيء ولم تكن ضآلة كفاية المخرجين أحيانا هي السبب الذي أذكى اشمئزازي المستمر من المسرح ، بل ضرورة وجود المخرجين إطلاقاً •

ولنعد الى الجمهور .. ان أول ما يخطر لي هنا أنه لا يليق بي أبداً أن أشعر بغير الاعتراف بالجميل للجمهور الذي منحني الشهرة على الاقل — إن لم أقل السمعة الطيبة — وحباني ثروة أمكنتني من أن أعيش في المستوى نفسه الذي عاشه أبي من قبلي . ولقد تجولت في البلدان واقتنيت منزلاً مطلاً على البحر هادئاً منعزلاً فيه غرف واسعة وحوله بستان لائق ، وقد أيقنت دائماً ان الحياة أقصر من أن يقضيها الإنسان في عمل أمور يستطيع أن يكلف غيره القيام بها مقابل المال ، ويسرت لي ثروتي متعة التفرغ للقيام بالأعمال التي لا يستطيع غيري أن ينوب عني فيها واستطعت أن أرعى أصدقائي وأن أساعد من شئت مساعدته . إنني مدين بكل ذلك الى معروف الجمهور. على انني مع الأيام لم أعد أطيق صبراً على تلك الفئة من الجمهور التي تؤلف نظارة المسرح . وسبق أن ذكرت أنني أشعر بضيق غريب عند مشاهدة إحدى مسرحياتي ، وبدلاً من أن يتضاءل هذا الضيق مع كل مسرحية جديدة لي فقد أخذ يتفاقم خلافاً لما توقعته .. ان شعوري بوجود هذه الجمهرة من الناس التي تشاهد مسرحيتي أصبح مصدر رعب ونفور لي ، حتى وجدتني أتجنب المرور في الشارع الذي يتفق أن تمثل فيه إحدى مسرحياتي .

وانتهيت منذ زمن بعيد الى ان المسرحية غير الناجحة ليس فيها ما يلفت النظر ، وأحسبني عرفت حق المعرفة كيف أكتب المسرحية الناجحة ، أي عرفت ما يمكن أن يتوقعه الكاتب من الجمهور ، ولم أكن أستطيع الاستمرار بدون مشاركة الجمهور ، وعرفت إلى أي مدى يمكن أن تصل هذه المشاركة . لقد أخذت مع الايام أضيق ذرعاً بهذا الامر فعلى الكاتب المسرحي أن يكون شريك الجمهور في استعداداته العقلية كما كان شكسبير ولوب دوفيجا ،

ولن يستطيع مهما بلغت به الجرأة أن يفعل أكثر من أن يصب في كلماته تلك المعاني التي اكتفى الجمهور بالشعور بها ولم يقو على النطق بها بسبب الجبن أو الكسل ، وأتعبني أن أصرح بنصف الحقيقة فقط لأن الجمهور لا يتقبل أكثر من ذلك • وضقت ذرعا بالسخف الذي كان يجيز في الحديث ذكر مختلف أنواع الحقائق ويتنصل منها في المسرح ، وانهكتني ضرورة تكييف الموضوع ضمن نطاق معين باطالته أو بتقصيره الى ابعاد غير مقبولة لأن المسرحية لا تجذب الجمهور الا اذا كانت ذات طول محدود • وضايقتني محاولتي الدائبة لتجنب مضايقة الآخرين ، والحق انني لم أعد أرغب في مراعاة الاعراف الضرورية للمسرح ، وأخذت أرتاب في مدى تجاوب ذوقي مع أذواق الجمهور ، ولكي أتحقق من ذلك قصدت عدداً من المسرحيات التي كانت تمثل في المدينة فوجدتها مملة ولم أستطع أن أضحك للنكات التي سرّت الجمهور المبتهج ، أما المشاهد التي استدرّت الدموع فقد تركتني كالصخر الأصم •• وهكذا انتهيت الى قرار حاسم •

ثم صبوت الى حرية القصص وامتدت أبصاري بارتياح الى القارىء المترصد الذي يرغب في الإصغاء الى كل ما أقوله ، والذي أستطيع أن أخلق من الألفة بيني وبينه ما لم أستطع أن أحلم به في جو المسرح الصاخب •

لقد عرفت في حياتي كتّاباً مسرحيين امتد بهم العمر بعد أن نالوا الشهرة ، وأشفقت عليهم اذ شهدتهم منكبين على كتابة مسرحياتهم دون أدنى شعور بتغير الزمن من حولهم ، ورأيت آخرين يحاولون يائسين أن يلحقوا بركب الزمن ولكنهم يصابون بالأسى والمرارة حين تقابل جهودهم بالهزء ، ورأيت مؤلفين مشهورين يعاملون باحتقار اذ يقدمون مسرحيات الى منتجين سبق لهم أن غمروهم بالعقود ، وسمعت تعليقات الممثلين المستهزئة بهم ، وأتيح لي أن أشهد حيرتهم ودهشتهم ومرارتهم حين كانوا يدركون أخيراً ان الجمهور نفض يده منهم • وسمعت كلاً من (آرثر بنرو) و (هنري آرثر جونز) وهما اللذان نالا شهرة عظيمة في زمانهما يقولان بالحرف الواحد « إنهم ما عادوا يريدونني بعد الآن » •

قالها الأول بتهكم مر جارح وقالها الثاني بخَور حائر • وقررت اذ ذاك أن اغادر كريما قبل أن يفلت مني الزمام •

على أنه ظل في رأسي بضع مسرحيات ، اثنتان أو ثلاث منها لم تكن أكثر من مشروعات غامضة وددت لو أتخلى عنها •• وأربع كانت تطن في مخيلتي جاهزة للكتابة ، وكنت واثقاً انها لن تكف عن إثارتي الى ان أكتبها ، وقد قضيت سنوات عديدة أفكر في هذه المسرحيات ، ولم أحرك ساكناً بالنسبة لها لأني خشيت أنْ لا تلقى القبول • كنت دائماً أكره أن أسبب الخسارة للمنتجين ، ربما بسبب غرائزي البرجوازية ، وبوجه عام لم يحدث شيء من ذلك • ومن المعروف ان المسرحيات الصالحة للإنتاج لا يصيب الربح منها الا واحدة من كل أربع ، أما بالنسبة لمسرحياتي فلست أبالغ إذا قلت إن الأمر كان معكوساً • ثم توافرت على كتابة مسرحياتي الأربع على النحو الذي توقعت أن يزيد من حظها في النجاح • ولم أشأ ان أفسد سمعتي عند الجمهور قبل أن أتخلى عن المسرح نهائيا • وأدهشتني المسرحيتان الأوليان بما أصابتاه من نجاح مرموق ، اما الأخريان فقد كان نجاحهما ضمن الحدود التي توقعتها • وسأتكلم على واحدة منها وهي (اللهب المقدس) لاني خضت فيها تجربة قد يعتقد البعض من قرائي أنها جديرة ببضع دقائق من البحث • لقد جربت في هذه المسرحية أن أكتب حواراً أكثر شكلية مما جرت عليه عادتي • وكنت أنجزت أول مسرحية كاملة لي سنة ١٨٩٨ ، وآخر مسرحية سنة ١٩٣٣ وفي أثناء هذه المدة شهدت الحوار يتغير من كلام متحذلق صلب عند (بنرو) ومن صناعة متأنقة عند (أوسكار وايلد) الى العامية المتطرفة في هذه الأيام ، ثم إن نشدان الواقعية قاد المسرحيين الى طبيعية في الأسلوب أخذت تزداد يوماً فيوماً ، وبلغ بها (نويل كوارد) أقصى الحدود كما نعلم • ولم يكتف كتّاب المسرح بتجنب العبارة الأدبية بل أسرفوا في السعي وراء تقليد الواقع حتى طرحوا القواعد اللغوية جانبا وأوردوا الجمل محطمة بحجة أنّ الناس في الحياة اليومية لا يراعون قواعد اللغة ويتكلمون جملا ناقصة

مضطربة ، واستعمل الكتاب كذلك أبسط المفردات وأكثرها شيوعا ، وكان الحوار مصحوبا بهز الكتفين وتحريك اليدين والإيماء • وفي رأيي أن المسرحيين جنوا على أنفسهم باتباع هذه البدعة لأن هذا الكلام العامي المضطرب الذي اعتمدوا عليه ليس إلا لغة طبقة معينة ، طبقة الموسرين الشباب الذين لم ينالوا حظاً من التعليم حسنا والذين تسميهم الصحف أهل المجتمع وتغص بأخبارهم أعمدة القيل والقال في الجرائد وفي صفحات المجلات الأسبوعية المصورة • وقد يكون صحيحاً أن الانكليز قوم معقودو الألسنة ، ولكنني أعتقد ان هذه الصفة قائمة على المبالغة ، وفي انكلترا أعداد ضخمة من الناس من مختلف المهن ومن النساء المثقفات ، وهؤلاء يحرصون على تقديم أفكارهم بلغة فصيحة منتقاة ويستطيعون أن يقولوا ما يشاؤون في كلمات صحيحة يحسنون سبكها في عبارات لائقة راقية • والبدعة الشائعة اليوم تسيء تمثيل الحقيقة وتشوهها اذ تكره القاضي والطبيب المرموق أن يعبرا عن أفكارهما تعبيراً مخلا على نحو ما يفعل متسكعو الخمارات ، ونتج عن ذلك ان ضاق نطاق الشخصيات التي يستطيع الكاتب المسرحي معالجتها لان الكلام هو وسيلة لتقديمها ، ومن المستحيل تصوير أناس ذوي عقل سليم وعاطفة مرهفة بحوار لا يعدو أن يكون من الهيروغليفية الناطقة • ثم ان الكاتب أخذ يميل دون وعي الى اختيار الشخصيات التي تتكلم بصورة طبيعية على النحو الذي اعتاد الجمهور أن يعتبره طبيعيا وهذه الشخصيات تكون حتما بسيطة وواضحة ، يضاف الى ذلك أن الموضوعات نفسها أصبحت محدودة مادام الكاتب لا يستطيع أن يعالج القضايا الأساسية للحياة الإنسانية ويستحيل عليه أن يحلل عقد الطبيعة الإنسانية – وهما موضوعان مسرحيان – حين يقيّد نفسه بهذا الحوار المسرف في تقليد الطبيعة •

إن هذه الطريقة قضت على المسرحية التي تعتمد على النباهة الكلامية ، التي تعتمد بدورها على العبارة المسبوكة سبكاً ذكياً ، وهكذا دُقّ مسمار آخر في نعش المسرحية النثرية •

في (اللهب المقدس) حاولت ان لا أدع شخصياتي تتكلم على نحو ما تتكلم في الحياة اليومية بل جعلتها تتكلم بطريقة أكثر شكلية ، واستعملت العبارات التي يجدر بالشخصيات أن تستعملها لو أتيح لها أن تهيء كلامها مسبقاً وان تعرف كيف تصب ما تريد قوله في لغة دقيقة مختارة ، ولعلي لم أحسن اتقان هذه الطريقة فقد وجدت أثناء المراجعات أنّ الممثلين ممن لم يعتادوا على هذه الطريقة ، كان يخامرهم شعور غير مريح ، كأنما يؤدون قطع استظهار ، واضطررت إثر ذلك الى تحطيم جملي، ولكنني تركت منها ما يكفي لإعطاء النقاد مبررات لمهاجمتي ! ! وقد وجه إلي اللوم في عدة مجالات بحجة أنّ لغتي أدبية ، وقيل لي ان الناس لا يتكلمون على هذا النحو وهو أمر ما كنت لأجهله . ولكنني لم أصر على موقفي وكنت أشبه بمستأجر دار أوشكت مدته أن تنفذ ، وليس ثمة ما يعنيه كي يحدث تغييرات في البناء . وفي مسرحيتيّ الأخيرتين عدت الى الحوار المسرف في تقليد الطبيعة كما كنت أفعل سابقاً .

وإذا قدر لك أن تقضي أربعة أيام مخترقا شعابا جبلية ، فستأتي عليك لحظة تكون فيها متأكداً من أنك ستفضي الى السهل ما ان تتخط الكتلة الصخرية الماثلة أمامك ، ولكنك تواجه بدلا من ذلك شعباً جديدا يستنفد قواك كرة أخرى ، ثم تصبح على يقين من أنك سترى السهل تواً ؛ كلا إنّ الشعب يفضي بك الى جبل جديد يعترض طريقك ، وفجأة ينبسط السهل أمامك فينتعش فؤادك ، انه سهل فسيح مشمس يزيح عن كاهلك عناء الجبل ، ويقدم لأنفاسك الهواء سائغاً ويغمرك بشعور عجيب بالحرية .وهذا ما كان عليه شعوري بعد أن أنجزت مسرحيتي الأخيرة ، ولم أستطع أن أطمئن الى أنني تحررت من المسرح نهائيا لأن المؤلف عبد لـما يمكن أن أسميه بالإلهام ، وهي كلمة اضطررت لاستعمالها ولا أجد كلمة متواضعة بدلا منها ، ولم أكن في مأمن من أن يخطر لي يوماً ما موضوع لا أستطيع إلا أن أعالجه في قالب المسرحية ، وتمنيت أن لا يحدث ذلك لأنني كنت واقعاً تحت تأثير فكرة لا أتوقع من القارىء الا أن يعتبرها غروراً أحمق ، فقد كنت حائزاً

على أقصى مايمكن أن يقدمه المسرح لي من الخبرة ، وجمعت من المال ما يكفي لتوفير حياة ترضيني ولسد كل مطلب يواجهني ، وأصبت شهرة واسعة وربما سمعة حسنة عابرة ، وكنت جديراً أن أقنع بذلك ، ولكنني صبوت الى إحراز أمر لم أكن آمل أن يتحقق عن طريق المسرحية ، ذلك هو الكمال ، ولم أقلب النظر في مسرحياتي فقط – وهي التي كنت أشعر بوطأة أغلاطها أكثر من أي شخص آخر – بل نظرت في المسرحيات التي توارثناها من الماضي • ان العظماء لهم نقائصهم الخطيرة ، وعلينا أن نلتمس لهم المعذرة بحجة ظروف عصرهم وظروف المسرح الذي كتبوا له • والمآسي اليونانية القديمة ضعيفة الصلة بمدنيتنا وغريبة عنا مما يجعل إطلاق الاحكام العادلة بحقها عملا صعباً وربما بدا لي ان (أنتيجون) أقربها الى الكمال • وفي المسرح الحديث لاأظن أحداً يشق غبار (راسين) على علاته الكثيرة ، فقد صاغ مسرحياته بمهارة لا حد لها • ان عبادة الأوثان وحدها هي التي تحول دون أن يدرك المرء النقائص الكبرى في مجرى مسرحيات شكسبير أو في تشخيصها وهذا أمر يسهل فهمه إذ تتذكر أن شكسبير كان يضحي بكل شيء فيسعيه وراء المشهد المؤثر ، على انه كتب مسرحياته بشعر لا تمتد اليه يد الفناء • أما المسرحية النثرية الحديثة فهي بعيدة جداً عن الكمال وأحسب أنّ إبسن يعد أحسن كاتب مسرحي خلال السنوات المئة الاخيرة ، وبالرغم من المزايا الكثيرة لمسرحياته ما كان أهزل إبداعه وما أكثر ما كانت شخصياته رتيبة ، وما أسخف ما تبدو أكثر موضوعاته أمام النظر العميق الذي لا يحط على السطوح ، فكأنما النقص على اختلاف أنواعه خاصة موروثة في فن المسرحية فإذا أراد الكاتب أن يضمن ناحية اضطر الى أن يضحي بأخرى ، وهكذا يكون من المستحيل إنجاز المسرحية الكاملة بكل حذافيرها ، بأهمية موضوعها وجدارته ، وبأصالة التشخيص ودقته ، وبجاذبية عقدتها وجمال حوارها • وخيل اليّ أنّ الكمال أمكن الوصول اليه أحيانا في الرواية وفيالأقصوصة، وما كنت لآمل بان أبلغ الكمال فيهما ولكن خطر لي أنني أستطيع انْ أقترب منه أكثر مما أسعفني الحظ به في المسرحية •

أول رواية كتبتها هي (ليزا من لامبث Liza of Lambeth) وقد قبلها أول ناشر أرسلتها اليه .. وكان (فشر أنوين) في فترة ما يصدر ما يدعى سلسلة (بسودنيم) ، وهي مجموعة من الروايات القصيرة حظيت باهتمام عظيم ، ومن بينها قصص لجون أوليفر هوبس اعتبرت بارعة جريئة ، وكان لها الفضل في ذيوع اسم المؤلف وتثبيت نجاح السلسلة . وقد كتبت قصتين قصيرتين أملت أن تؤلفا معاً مجلداً من الحجم المناسب لهذه السلسة وأرسلتها الى (فشر أنوين) ، ولكنه ردهما اليّ بعد مدة ومعهما كتاب يسألني فيه عما إذا كنت أستطيع أن أقدم اليه رواية ، وكان ذلك تشجيعاً عظيماً حتى انني شرعت على الفور بكتابة رواية ، وما كنت أستطيع الكتابة الا في المساء ، لانني كنت أعمل في المستشفى طوال النهار . واعتدت أن أصل البيت بعد السادسة بقليل ، فأقرأ جريدة (ستار) التي كنت أشتريها من زاوية جسر (لامبث) ثم أشرع في العمل حالما تنظف مائدتي بعد وجبة مبكرة .

وكان (فشر أنوين) قاسيا مع مؤلفيه ، واستغل حداثة سني وقلة تجربتي ورغبتي في نشر كتاب ، كي يوقّع عقداً معي لا أنال بموجبه أي ايراد إلا بعد أن يبيع عدداً كبيراً من النسخ ، ولكنه كان يعرف كيف يصرف بضاعته، وأرسل روايتي الى عدد من الأشخاص ذوي النفوذ . وقد كتب عنها الكثيرون على اختلافٍ فيما بينهم ، وتحدث عنها باسيل ولبرفورس في كنيسة (أبي) وهو الذي أصبح فيما بعد رئيس شمامسة وستمنستر ، وتأثر بها رئيس أطباء التوليد في مستشفى سانت توماس تأثراً شديداً حتى انه عرض عليّ وظيفة تحت إشرافه ، وصادف أن اجتزت الامتحانات النهائية في ذلك الوقت،

ولكنني رفضت العرض بحمق ، مبالغاً في تقدير نجاحي ، مصمماً على هجر مهنة الطب ، ثم طبعت الرواية ثانية بعد شهر من الطبعة الاولى وأيقنت انني أستطيع ان أكسب رزقي عن طريق الكتابة • وقد هزني نوعاً ما أن استلمت بعد سنة ، وإثر عودتي من اشبيلية شيكا من فيشر أنوين يحتوي على نصيبي من إيراد القصة الذي بلغ عشرين جنيهاً •• إنّ حركة مبيع (ليزا من لامبث) اذا جاز لي أن أتخذ منها أساساً للحكم ، تدل على انها مازالت تلقى قبولا لدى القراء ، ولكن كل مالاقته من تقدير راجع الى الحظ الذي توفر لي - بتأثير مهنتي الطبية - لطرح جانب من الحياة بكر بالنسبة للرواية في تلك الأيام ، وكان آرثر موريسون بكتابيه (حكايات من شوارع وضيعة Tales of Mean Streets) و (طفل من الجاغو A Child of the Jago) قد لفت أنظار الجمهور الى ما كان يسمى في ذلك الحين بالطبقات الدنيا ، فاستفدت من الاهتمام الذي أثاره ••

وما كنت أعرف شيئاً عن الكتابة آنذاك ، مع أنني قرأت كمية كبيرة بالنسبة لسني •• قرأت دون تمييز منكباً على الكتب التي سمعت عنها واحداً بعد الآخر ، لأعرف ما تحتويه ، ومع انني أحسب انني حصلت على بعض الفائدة منها ، أذكر ان روايات غي دوموباسان وأقاصيصه هي التي كان لها التأثير الأول في نفسي عندما شرعت بالكتابة وقد بدأت بقراءتها وأنا في السادسة عشرة • وكنت كلما ذهبت الى باريس أقضي الأصائل في أروقة الأوديون أتفحص الكتب هناك • وقد ابتعت عدداً من كتب موباسان التي أعيد طبعها في أجزاء صغيرة ، ثمن الواحد منها خمسة وسبعون سنتيما ، أما كتبه الأخرى فكانت تكلف ثلاثة فرنكات ونصفاً ، وهو مبلغ أعجز عن تدبيره ، وهكذا اعتدت أنْ أختار كتاباً من أحد الرفوف وأقرأ منه أقصى ما أستطيع ، ولم يكن المستخدمون ببزاتهم الرمادية الشاحبة يلتفتون اليّ ، وكان في وسعي حين أشعر بغفلتهم عني أن أقتطع ورقة وأستمر في قراءة القصة دون توقف ، وهكذا عملت على قراءة معظم ما كتبه موباسان قبل أن أبلغ

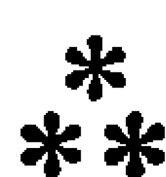
العشرين • ورغم انه لايتمتع اليوم بالشهرة التي كانت له من قبل ، ينبغي أن نعترف بمزاياه العظيمة ، فقد كان واضحاً ومباشراً يحس بالشكل ويعرف كيف يبرز القيمة الدرامية القصوى للقصة التي يرويها • ولا أستطيع إلا أن أقر بانه كان أجدر من الكتاب الانكليز الذين كانوا يؤثرون في الناشئة اذ ذاك ، وأحق أن يقتدى به •

في (ليزا من لامبث) وصفت دون تزيّد ، أو مبالغة ، الناس الذين قابلتهم في قسم المرضى الخارجيين في المستشفى ، أو في المنطقة خلال خدمتي ككاتب فيقسم التوليد ، وقد سَرَدْتُ الحوادث التيجابهتني حينكنتأتتقل من دار الى دار كما يتطلب العمل ، أو حين كنت أتسكع دون أن أجد مـا أعمله • وقد أُكرهت بسبب افتقاري الى الخيال (والخيال ينمو بالمران ، وهو – خلافاً للاعتقاد السائد – أقوى عند الناضجين منه عند الأحداث) أُكرهت على أن أروي بأسلوب مباشر ما كنت أراه بأم عيني وأسمعه بأذني، والنجاح الذي لاقاه الكتاب إنما يعود الى الحظ الحسن ، ولكنه ما كان ليمهد لي شيئاً من طريق المستقبل • على انني لم أدرك هذه الحقيقة آنذاك•

وضغط عليّ (فشر أنوين) ، لكي أكتب رواية أخرى مطولة جداً عن الأحياء الفقيرة • وأخبرني ان هذا هو ما يريده الناس مني ، وتنبأ أنها ستحوز نجاحاً يفوق بكثير نجاح (ليزا من لامبث) ولاسيما بعد أن كَسَرَتْ هذه الرواية الطوق من حولي ، ولكن هذه الخطوة لم تكن جزءاً من خطتي ، إذ كنت طموحاً وفي نفسي شعور لا أدري من أين أتاني ، بأنّ المرء ينبغي أن لا يركض وراء النجاح وإنما ينبغي أن يهرب منه ، وكنت قد تعلمت من الفرنسيين أنّ الكاتب يجب أن لايعطي أهمية كبرى للرواية المحلية ، وتوقف اهتمامي بالأحياء الشعبية لدى كتابة أول كتاب عنها ، وبالفعل أنجزت في تلك الأثناء رواية من نوع مختلف تماماً ، وأخال ان (فشر أنوين) أصيب بأسى شديد لدى استلامها • فقد كانت رواية تدور حوادثها في إيطاليـا خلال عصـر النهضة ، وبنيتُ على قصة قرأتها في (تاريخ) فلورنسة

لميكيافيلي • وقد كتبتها متأثراً بمقالات قرأتها بقلم آندرو لانج حول فن القصة ، وفي إحداها برهن بطريقة مقنعة جداً بالنسبة لي ، أنّ الرواية التاريخية هي النوع الوحيد من القصة الذي يمكن للكاتب الناشيء أن يأمل فيه نجاحاً ، لأن خبرته غير الكافية في الحياة لاتسمح له أن يكتب عن السلوك المعاصر له ، والتاريخ يمده بالقصة والشخصيات ، والحماسة الرومانتية في دمه تعطيه الدفقة اللازمة لإنشاء هذا النوع من القصص • وأعرف اليوم أنّ هذا الكلام هراء ، ففي الدرجة الأولى ليس صحيحاً أنّ الكاتب الناشيء تنقصه المعرفة الكافية ليكتب عن معاصريه ، ولا أظن ان أيّ إنسان يستطيع مهما امتدت به الحياة ، أن يعرف الناس معرفة أوثق من معرفة المرء للناس الذين قضى طفولته ويفاعته معهم من مثل أسرته ، والخدم الذين يمضي بعض الأطفال أغلب الوقت معهم ، ومعلمي المدرسة ، والأتراب من صبيان وبنات ؛ إن المرء في يفاعته يعرف الشيء الكثير عن هؤلاء •• إنه يراهم رؤية مباشرة • والراشدون يكشفون أنفسهم عن وعي، أو دون وعي للشبان الصغار ولايفعلون ذلك مع أترابهم ، والطفل أو الصبي يشعر ببيئته وبالمنزل الذي يعيش فيه وبطرق الريف وشوارع المدينة شعوراً مفصلا لايستطيع أن يستعيده فيمابعد، اذ تخفف من حدة إحساسه جمهرة الانطباعات التي تتراكم عليه عبر السنين • إنّ القصة التاريخية تتطلب بالتأكيد خبرة عميقة بالناس تُمَكِّنُ الكاتب من أن يخلق أشخاصاً أحياء من أولئك الاشخاص الذين يبدون للوهلة الأولى غرباء عنا بسلوكهم المختلف وآرائهم المختلفة ، وإعادة خلق الماضي لاتتطلب معرفة واسعة فقط ، بل تتطلب إعمال الخيال ، وهو أمر لا يكاد يُنْتَظَر من الشبان • ولقد كنت خليقاً أن أقول ان الحقيقة هي عكس ما قاله «لانج» تماماً • وللروائي أن يلتفت الى الرواية التاريخية في المرحلة النهائية من إنتاجه اذ تكون أفكاره وتقلبات حياته الخاصة قد أمدته بمعرفة كافية للعالم واذ يكون بعد قضاء سنين طويلة في تفحص شخصيات الناس من حوله قد اكتسب حدساً يؤهله لفهم الطبيعة البشرية وفهم شخصيات العصور

السالفة وإعادة خلقها . وقد كتبتُ روايتي الاولى حول ما أعرفه ، ولكنني بعد أن خضعت لهذه النصيحة السيئة شرعت أعمل في الرواية التاريخية ، وكتبتها في كابري خلال العطلة الطويلة وكانت حماستي لاهبة فعملت على ان أستيقظ في الساعة السادسة من كل صباح ، وكنت أكب على الكتابة حتى يكرهني الجوع على الانقطاع لتناول الفطور ، وكانت تراودني الرغبة في قضاء باقي الصباح في البحر .



لا أرى حاجة للكلام عن الروايات التي كتبتها خلال السنوات القليلةالتي تلت ، على أن واحدة منها وهي (السيدة كرادوك) لم تمنَ بالإخفاق ، وقد أعدت طبعها في نسخةٍ حوت مجموعة مؤلفاتي ، واثنتان منهـا أخذتا عن مسرحيتين لي لم أستطع أن أظهرهما على المسرح ، وقد ظلتا تثقلان ضميري زمناً طويلا ، وكنت مستعداً لأن أدفع الكثير لأبطل انتشارهما ، ولكنني الآن أعلم أنّ ندامتي لا محل لها ، فالكتّاب العظام أنفسهم كتبوا عدداً من المؤلفات الضعيفة جداً ، وبلزاك نفسه ترك كمية كبيرة من الكوميديات الإنسانية (Comédie Humaine) ، وأكد ان من بينها ما لا يمكن أن يتجشم أحـد قراءته سوى التلاميذ ، وللكاتب أن يطمئن الى أن الكتب التي يود لها أن تنسى لا بد من أن تنسى . وقد كتبت أحد هذه الكتب لأنني كنت بحاجة الى نقود تقيم أودي خلال السنة التالية ، والكتاب الآخر كتبته حين كنت واقعاً في غرام فتاة متطرفة الأذواق مبذرة وأخفقت في تحقيق رغائبي معها بسبب التفاف معجبين أثرياء حولها استطاعوا أن يقدموا لهـا أسباب المتع المترفة التي تطفىء ظمأ روحها الطائشة . ولم يكن لدي ما أقدمه لها سوى تعلق جديّ بها وروح مرحة . وصممت على أن أضع كتاباً يساعدني على كسب ثلاثمئة ، أو أربعمئة مـن الجنيهات ، تتيـح لي أن أقف في وجـه المنافسين ، لأن الفتاة كانت محط إعجابهم . ولكن كتابة الرواية تستغرق وقتاً طويلا رغم كل ما يبذله المرء من جهد ، وبعد كتابتها تأتي عملية النشر ، ثم ان الناشرين لايدفعون لك الا بعد انقضاء عدد من الأشهر ، وكانت النتيجة أنني ما كدت أستلم النقود ، بعد لأي ، حتى كانت عاطفتي تجاه الفتـاة قد ذابت بعد أن حسبتها مخلدة ، ولم تخالجني أية رغبة في صرف النقود

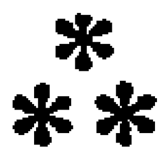
على النحو الذي عزمت عليه سابقاً بل سافرت بها الى مصر •

وفيما عدا الحالتين السابقتين ، كان كل ما ألفته من كتب خلال السنوات العشر التي تلت احترافي الكتابة ، وسيلة لزيادة تمكني من العمل الفني ، وذلك ان من بين الصعوبات التي تواجه الكاتب المحترف اضطراره الى اكتساب الصنعة على حساب الجمهور ، اذ تدفعه غريزية الى الكتابة بينما يعج ذهنه بالموضوعات التي يفتقر الى المهارة في معالجتها ، فتجربته ضيقة وخبرته ناقصة لا تؤهله للاستفادة من مواهبه على الوجه الأفضل ، وعليه ، بعد أن يضع الكتاب ، أن ينشره إذا استطاع ، لانه من جهة يحتاج الى النقود ليعيش ، ومن جهة ثانية لا يستطيع أن يقدر طبيعة كتابه الا بعد أن يطبع ، ولا يستطيع بالتالي أن يدرك أخطاءه الا من خلال آراء أصدقائه ودراسات النقاد ، ولطالما سمعت ان جي دو موباسان كان يعرض كل ما يكتبه على فلوبير ولم يسمح له فلوبير أن ينشر قصته الأولى الا بعد أن مارس الكتابة بضع سنين ، وكانت هذه القصة الصغيرة (بول دوسويف Boule de Suif) إحدى الروائع في نظر العالم أجمع ، ولكن هذه الحالة استثنائية ، فموباسان كان يحتل منصباً في الحكومة أتاح له مورداً كافياً للعيش ، وفراغاً كافياً للكتابة • وما أقل الذين يستطيعون أن يصبروا هذا الصبر الطويل قبل أن يجربوا حظهم مع الجمهور ، وأقل منهم أولئك الذين يتيح لهم الحظ أن يكتبوا تحت إشراف كاتب عظيم نامي الوجدان مثل فلوبير • وفي معظم الحالات يفسد الكتّاب في مقتبل عمرهم موضوعات كانوا خليقين أن يحسنوا معالجتها لو أجلوا الكتابة عنها حتى تنمو معرفتهم للحياة وتزداد خبرتهم بأساليب فنهم • وأحياناً أتمنى لو ان الحظ لم يحالفني حال تقديم كتابي الأول للناشر ، اذن لكنت تابعت دراسة الطب ، وحصلت على الأعمال المعتادة في المستشفى ، وعينت مساعداً للأطباء العموميين في أنحاء متفرقة من البلاد، ونبت عنهم أثناء غيابهم ، وبذلك كنت أكتسب مجموعة من الخبرات القيمة• ولو أنّ كتبي رُفِضَت واحدا بعد الآخر لكنت واجهت الجمهور بعد لأي

بكتب أقل عيوباً ، وما كان أشد أسفي لأنني لم أجد من يرشدني ، إذن لكنت وفرت كثيراً من الجهود الضائعة ، ولكنني لم أعرف الا قليلا من المشتغلين بالأدب ، لأنني كنت أشعر حتى في ذلك الوقت أن صحبتهم ، على ما فيها من مسرة ، لاتجدي المؤلف نفعاً ، وكان لي من حيائي وانطوائي وكبريائي ما يمنعني من طلب مشورتهم • وقد درست الروائيين الفرنسيين أكثر من الانكليز ، وبعد أن أخذت من موباسان كل ما استطعته التفت الى ستندال وبلزاك والأخوين غونكور وفلوبير وأناتول فرانس •

وقد خضت تجارب عديدة ، امتازت إحداها في تلك الايام بجدة معينة، فقد أوحت إلي تجربة الحياة التي كنت ألهث في اثرها ، ان أسلوب الروائي في اختيار شخصين أو ثلاثة او حتى مجموعة من الناس ، ووصف مغامراتهم ونفسياتهم وكل ما يتعلق بهم كما لو ان العالم خالٍ إلا منهم ومن الأحداث التي تنتابهم ، انما هو أسلوب يعطي جانباً جزئياً جداً من الواقع • وأنا نفسي كنت أعيش ضمن مجموعات عديدة لم يكن لإحداها صلة مباشرة بالأخرى، وخطر لي انني أستطيع أن أقدم صورة أصدق للحياة إذا وفقت في سرد القصص المختلفة ، ذات الأهمية المتساوية التي كانت تحدث خلال فترة معينة من الزمن ، ضمن مجموعات مختلفة • وقد اخترت عدداً من الاشخاص أكثر مما اعتدت أن أن أختاره من قبل ، كما اخترعت أربعاً أو خمساً من القصص المستقلة يربط بينها خيط رفيع جداً ، ألا وهو امرأة عجوز تعرف شخصاً واحداً على الأقل من كل مجموعة • وسميت الكتاب (الجولة المرحة The Merry - Go - Round) وكان أقرب الى السخف ، لانني جعلت كل بطل من أبطاله جميلا الى درجة لاتصدق ، متأثراً في ذلك بالمدرسة الجمالية التي انتعشت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، كما ان الكتاب سبك سبكا محكما ، ولكن عيبه الرئيسي هو افتقاره الى خط مستمر يتجه اليه اهتمام القارىء ، وكذلك لم تكن القصص ذات أهمية متساوية ، وبدا من المتعب أن يتشعب الانتباه الى مجموعات مختلفة من الناس • وقد أخفقت

لانني أهملت الحيلة البسيطة جداً ، أعني رؤية الحوادث المتفرقة والأشخاص الذين اشتركوا فيها من خلال عين شخص واحد فقط . وهذه الحيلة استخدمتها ، بالطبع، رواية السيرة منذقرون ، ولكن هنري جيمس طورها تطويراً مفيداً جداً ، فقد أظهر كيف يمكن أن تعطى القصة الوحدة وقابلية الاحتمال ، وذلك من خلال العملية البسيطة القائمة على كتابة (هو) بدلا من (أنا) ، وبالتنازل عن اطلاع القاص الفريد الذي يعرف كل شيء ، الى المعرفة الناقصة للمشارك في الحوادث .



أعتقد أنني كنت ابطأ نموا من معظم الكتّاب ، ففي السنوات الأخيرة من القرن الماضي والسنوات الأولى من هذا القرن كان الناس يعدونني كاتباً ناشئاً ذكياً لا يخلو من نبوغ ، خشنا ومستكرها نوعا ما ، ولكن له بعض شأن ، ولم أجن ربحاً كبيراً من وراء كتبي ، ولكنها مع ذلك روجعت من قبل النقاد مراجعة مفصلة منصفة • على أنني حين أقارن رواياتي الأولى مع الروايات التي يكتبها الشبان اليوم ، لا أستطيع إلا أن أعترف بأن رواياتهم أكمل بكثير من رواياتي ، وإنه ليحسن بالكاتب المسن أن يظل على اتصال بما يكتبه الشباب ، فأنا اقرأ رواياتهم من وقت لآخر • وان الفتيات اللواتي مازلن في العقد الثاني من عمرهن ، والشباب الذين مازالوا في الجامعات لينتجون كتباً تبدو لي متقنة في أسلوبها وتأليفها ، ناضجة في تجربتها • ولست أدري هل الشباب اليوم أسرع نضجاً من الشباب قبل أربعين عاماً ، أم أن فن القصة تقدم منذ ذلك الحين حتى أصبحت الآن كتابة رواية جيدة عملا فيه من السهولة بقدر ما كانت تكلف من الصعوبة كتابة رواية متواضعة في تلك الأيام •

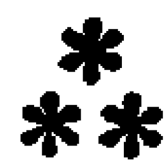
وإذا كلف امرؤ نفسه مشقة إلقاء نظرة على (الكتاب الأصفر) الذي كان يعد في تلك الأيام أقصى ما يمكن أن يبلغه الذكاء المثقف ، فسوف يذهله أن يكتشف مبلغ ما وصلت اليه معظم أبحاث الكتّاب من تدهور • ورغم مظاهر الأبهة عند هؤلاء الكتّاب إلا انهم لم يكونوا أكثر من دوامة في ماء ضحل ، وليس من المحتمل أن يمنحهم تاريخ الأدب الإنكليزي أكثر من نظرة عابرة • وتصيبني رعشة خفيفة حين أقلب هذه الصفحات القديمة

وأسأل نفسي هل ستبدو ، بعد أربعين عاما ، الأشياء الطريفة الزاهية في عالم الأدب كما تبدو الأشياء التي سلفت في (الكتاب الاصفر) •

لقد أغناني الحظ واكتسبت بسرعة شهرتي ككاتب مسرحي ، مما وفر عليّ ضرورة كتابة رواية كل عام لأكسب أودي ، ووجدت كتابة التمثيليات عملية سهلة ، وكانت تكسبني شهرة لا بأس بها ، وتدر عليّ أموالا تكفيني لان أعيش في مستوى أقل ضيقا من ذي قبل ، ولم أوهب أبداً تلك الخاصة البوهيمية التي تجعل المرء لا يكترث للغد ، وما أكثر ماكرهت اقتراض النقود والوقوع في أسر الدين ، ولم تجتذبني أبدا حياة الصعلكة واللامبالاة ، ولم أنشأ في ظروف من هذا النوع ، فقد ابتعت داراً في (مايفير) حالما أمكنني ذلك •

من الناس من يحتقر المتلكات ، ويزعمون ان الفنان ينبغي ان لا يشغل باله بها ، وقد يكون رأيهم صائبا ، ولكن الفنانين أنفسهم لا ينظرون هذه النظرة ، ولم يقبل أي منهم مختاراً أن يعيش في الملاحق التي يلذ لمعجبيه أن يروه فيها • وكثيراً ماانتاب الفنانين الإفلاس بسبب إسرافهم في التبذير، وهم الى ذلك مخلوقات تقتات من الخيال ولا بد أن تستهويهم الدور الانيقة والخدم الذين يسهرون على راحتهم والسجاد الثمين والرسوم البديعة والرياش الفخمة • لقد عاش تيتيان وروبنز كأميرين ، وكان لبوب قصران هما « غروتو » و « كونيكنكس » ، وللسير ولترقصر « ابو تسفورد » القوطي الطراز ، ومات آل غريكو مفلسا بعد أن كان ينعم بالغرف المنوعة والمكتبة والملابس الفاخرة وحوله الموسيقيون يعزفون له حين يتناول طعامه • وليس طبيعيا أن يعيش الفنان في دارة مقسومة الى قسمين ويأكل فطائر تصنعها الخادمة كيفما اتفق ، انها معيشة النفس الوضيعة الجافة لا معيشة اللامبالاة ، وما الترف عند الفنان إلا نوع من اللهو ، وداره وأراضيه وسياراته ولوحاته عبارة عن ألاعيب تداعب خياله ، إنها تذكارات مرئية لسلطانه لا تدخل في صميم سموه الجوهري • وأما بالنسبة لي فيمكن أن

أقول إنني أستطيع التخلي بدون لوعة عن كل ما امتلكه بعد أن اقتنيت كل الطيبات التي يمكن أن تشترى بالمال ، وهي تجربة كغيرها من التجارب • اننا نعيش في زمن غير مستقر وقد يؤخذ منا كل ماعندنا ، وما كنت لأندم على شيء اذ يتاح لي الطعام الذي يسد شهيتي المحدودة ، وغرفة أقيم بها ، وكتب أستعيرها من المكتبة العامة وأقلام وورق• وقد سررت لأنني استطعت أن أكسب مالا وفيراً من مسرحياتي ، وقد حرصت على هذا المال لأنه حررني ووقاني شر الوقوع في وضع لا يتيح لي ، بسبب الحاجة ، حرية فعل ما أريد •



اتخذت الكتابة مهنة لي ، كما كان ممكنا ان أمتهن الطب أو المحاماة ، وهي مهنة ممتعة جداً ، فلا غرو إذن أن يتقبل عليها عدد كبير جداً من الناس ، وفيهم من هو غير مؤهل لها . انها مهنة مثيرة ومنوعة ، فللكاتب أن يعمل في أي مكان يشاء وفي أي وقت يختار ، وله أن يسترخي مع كسله اذا أحس بالسقم أو الضجر . ولكن للمهنة مساوئها أيضا ، ومن بين هذه المساوىء كونك مكرَهاً على أن تحصر معالجتك بما يتمشى مع ما في طبيعة نفسك من نزعات خفية ، رغم ان العالم كله بناسه ومناظره وأحداثه هو مادة مهنتك . ان ثروة المنجم أغنى من أن تحصى ، ولكن كلا منا لا يمكن أن يستخرج منه إلا كمية محدودة من المعدن ، وهكذا قد يتضوَّر الكاتب ويموت جوعا والموضوعات وافرة من حوله ولكن لا تواتيه مادته ، ويقال عنه حينذاك انه استنفد ما عنده ، وما أقل الكتّاب الذين لا يعيشون في رعب من هذه النهاية . أما السيئة الثانية ، فهي ان الكاتب المحترف ينبغي أن يرضي القراء ، وإذا لم يقبل على قراءته عدد كاف منهم فنهايته الموت جوعاً .. وأحياناً يكون ضغط الظروف من حوله عنيفاً في نفسه ولكنه يذعن الى رغائب الجمهور والهياج يملأ صدره . إن الطبيعة البشرية لا يُعوَّل عليها كثيراً، ولربما كان علينا أن نتسامح مع الفنان إذا اضطر أن يكتب من أجل النقود بين حين وآخر . ان على الكتّاب الذين يعيشون في ظروف مستقلة أن يتعاطفوا ، لا أن يشمخوا على إخوانهم الذين تجبرهم الظروف على أداء إنتاج غير متقن . وقد بَيَّنَ مرة أحد ضعاف العقول من (شلسي)[1] انه لا يعترف بالكاتب الذي يكتب

(١) شلسي : حي في لندن يسكنه الفنانون . (المعرب)

من أجل النقود ، وقال أشياء كثيرة حكيمة (على نحو ما يفعل العقلاء) ، ولكن هذا الرأي بليد جداً ، لان القارىء لا شأن له بالدوافع التي تدفع المؤلف للكتابة ، وان ما يعنيه أولا وآخراً هو النتيجة •

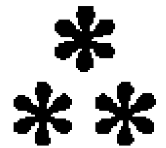
ان بعض الكتاب لا يكتبون الا بتأثير حافز ضروري (وكان بينهم صموئيل جونسن) ولكنهم لا يكتبون من أجل النقود ، وما كان أحمقهم لو فعلوا ذلك ، لان هناك مهناً قليلة جداً لا تعطيك من الربح أكثر مما تعطيه الكتابة اذا وفرت لها مثل الموهبة والجهد اللذين تبذلهما في الكتابة • على ان أعظم اللوحات في العالم رسمت بعد أن دفع لراسميها الثمن ، وفي الرسم كما في الكتابة ما أن تشتعل الشرارة الأولى من إثارة العمل حتى ينغمس فيه الفنان بأقصى ما يستطيع ، وكذلك لا يتلقى الفنان عروضا ما لم يرض الذين يرعون فنه ، ولا تقرأ كتب الكاتب ما لم تلذ للقراء عامة • ولكن الكتاب غالباً ما يشعرون ان كتبهم ينبغي أن تقرأ وإذا لم يبع منها الكثير ، فالذنب يقع على عاتق الجمهور لا عليهم ، ولم ألق في حياتي كاتباً يعترف ان الجمهور لم يقبل على كتبه لأنها بليدة • ولكن هناك شواهد كثيرة عن كتاب لم تحظ كتبهم بالتقدير المناسب مدة طويلة ولكنهم بعد ذلك نالوا الشهرة ، اما الذين بقي إنتاجهم في عتمة الإهمال فمن الطبيعي أن لا تسمع عنهم شيئاً ، وعددهم كبير جداً •• أين ما قدمه ، وفاء للموهبة ، أولئك الكثيرون الذين قضوا دون ان نسمع عنهم ؟ وإذا كان صحيحاً ان الموهبة تتألف من قابلية معينة تمتزج مع نظرة خاصة الى العالم ، فمن المفهوم جداً أن الأصالة لن تلقى من الناس احتفالا لائقا بادىء ذي بدء ، ففي هذا العالم المتغير دائما تتعرض الجدة لشكوك الناس الذين يستغرقون وقتا طويلا حتى يتقبلوها ، والكاتب ذو المزاج العقلي الخاص يجب أن يهتدي شيئاً فشيئاً الى القراء الذين يستجيبون لعقليته ، وهو يستغرق وقتا طويلا حتى يبني نفسه ، لأن حدود النفس في الشباب تكون مائعة ، وكذلك يستغرق وقتا لإقناع تلك المجموعة من القراء الذين يسميهم جمهوره بالفعل ، لا بالتباهي ،

بانه قادر على إعطائهم ما يريد ، وكلما ازدادت فرديته ازدادت الصعوبات في وجه بلوغه هذا الهدف واستغرق وقتا أطول في كسب معيشته ، والأنكى من ذلك انه لا يستطيع ان يطمئن الى استمرار النتيجة ، لانه بكل ما فيه من فردية قد لا يعطي سوى عمل فني او عملين ، وبعد ذلك يغوص في أعماق الظلمة التي نجم منها بصعوبة •

من السهل ان تقول ان الكاتب يجب ان يكون له عمل يمده بالخبز والأدام ، ثم يكتب في حدود الفراغ الذي تسمح به وظيفته • وقد كان الكتاب في الماضي مضطرين الى سلوك هذا السبيل ، يوم كان الكاتب ، مهما بلغت شهرته وشعبيته ، لا يستطيع ان يكسب بكتابته من النقود مايكفل بقاء روحه وجسمه معاً • وما زال الكتّاب في الأقطار التي يقل عدد قرائها يضطرون الى كسب عيشهم بالعمل في الوظائف المكتبية ، ولا سيما الحكومية ، او بالعمل في الصحافة • ولكن الكاتب بالانكليزية لديه جمهور هائل يمنحه إمكانات معقولة جدا لاحتراف الكتابة ، ولولا وجود شيء من الشعور باحتقار تتبع الفنون في الأقطار الناطقة بالانكليزية ، لكان لدى الكاتب جمهور أشد ازدحاما • وفي هذه الأقطار شعور واضح بأن فن الكتابة او الرسم ليس من عمل الرجال • ان القوة الاجتماعية لهذا الشعور تسببت في بقاء الكثيرين خارج هذا النطاق ، ولن يدخل المرء في مهنة تعرضه لأدنى ريبة أخلاقية إلا إذا كانت حوافزه حاسمة جدا ، اما في فرنسا وفي ألمانيا فالكتابة مهنة شريفة ويتبناها الأبناء بموافقة الآباء حتى لو كانت مواردها المالية غير كافية ، وفي المانيا تستطيع دوما ان تعثر على أم تصرح لك برضى ان ابنها سيصبح شاعرا ، وفي فرنسا تعتبر الأسرة زواج ابنتها ذات المهر الكبير من روائي شاب موهوب ، تحالفاً موفقاً •

ولكن الكاتب لا يكتب حين يكون وراء مكتبه فحسب ، بل يكتب سحابة يومه ، وهو يفكر ، وهو يقرأ ، وهو يخوض التجارب ، وكل ما يراه ويحس به ضروري لغرضه ، وهو يخزن أبدا بوعي ، وبغير وعي ، مشاعره وانطباعاته،

ولا يستطيع ان يمنح أي داع آخر كامل انتباهه ، او يسخره لإرضاء نفسه أو رؤسائه • إن الداعي الوحيد الذي يمكن ان ينسجم معه هو الصحافة لان لها فيما يبدو صلة كبرى بعمله الأصلي ، ولكنها خطرة جدا ، ما دامت تعتمد على عزل للـذات يؤثر في الكاتب دون ان يشعر ، ويظهر ان الذين يكتبون للصحافة يضيعون موهبة رؤية الأشياء من أجل أنفسهم ، وينظرون إليها من زاوية معممة جذابة غالباً ، وشاحبة البريق في بعض الاحيان ، ولكنها على أي حال خالية من تلك الخاصية العقلية التي تعطي جانبـا جزئيا من الصورة مشبعا بشخصية المراقب • والحق ان الصحافة تقتل فردية العاملين بها ، وحتى الكتابة عن النتاج الجديد ليست أقل ضررا ، لأن الكاتب لا يجد من الوقت ما يكفي لقراءة الكتب التي تتصل بحقله ، وهذه القراءة العرضية لمئات الكتب ، لا لأجل الفائدة الروحية ، بل لإعطاء تقرير أمين عنها ، تميت إحساس الكاتب ، وتعيق الانسياب الحر لخياله •• ان الكتابة وظيفة تستغرق كل الوقت ، وينبغي ان تكون الهدف الرئيسي لحياة المؤلف ، أي انه ينبغي ان يكون كاتباً محترفاً • وما أسعده حين تتوفر له موارد كافية تغنيه عن أرباح الكتابة ، ولكن هذا لا يمنعه عن احتراف الكتابة •• لقد كان سويفت بعمادته ، ووردزورث بمنصبه الفخري ، محترفين تمامـا بدرجة احتراف بلزاك وديكنز •



من المعروف ان صناعتي الرسم ، والتلحين الموسيقي ، لا تكتسبان إلا بالجهد المتواصل ، وإنتاج الهواة فيهما يعامل باحتقار مصحوب بالهزء أو بالتذمر ، ونحن جميعا نهنىء أنفسنا لان المذياع والحاكي أزاحا عن كاهلنا الهواة من عازفي البيان او المغنين . وكذلك فن الكتابة لا يقل صعوبة عن الفنون الأخرى ، ومع ذلك يخيل لكل من يستطيع ان يقرأ الحرف ، أو يكتبه ، أن أي إنسان يمكن ان يقوى على تأليف كتاب ، ويبدو ان الكتابة أصبحت هواية للجنس البشري اليوم ، وهناك أسر كاملة تقبل عليها كما كانت في الأيام القديمة الهائئة تقبل على دور العبادة ، والروايات اليوم تكتبها النساء ليخففن عن انفسهن أعباء الحمل ، ويلجأ الى القلم اليوم ـــ كما يلجأ المرء الى الزجاجة ـــ أنماط من الأشراف المتضايقين والضباط المسرحين ، والموظفين المتقاعدين . وهناك انطباع سائد في الخارج بأن لدى كل إنسان ما يدفعه إلى تأليف كتاب ، ولكن إذا قصد بذلك الكتاب الجيد فهذا الانطباع خاطىء . وقد يتفق ان يؤلف الهاوي إنتاجاً ذا مزية ، إذا أسعفه الحظ بقابلية طبيعية للكتابة الحسنة ، او بتجارب ممتعة في ذاتها ، أو بشخصية فاتنة او غريبة ، فيكون له من قلة خبرته نفسها معين على صب أفكاره في الحرف المطبوع ، ولكن يحسن به ان يتذكر ان هذا القول (لدى كل انسان ما يدفعه إلى تأليف كتاب) لا يشير الى كتاب ثان ، وحري بالهاوي ان يستجيب لهذه الحكمة فلا يجرب حظه ثانية ، لان كتابه الثاني سيكون على وجه التأكيد غير ذي قيمة .

ومن الفروق الكبرى بين الهاوي وبين المحترف ان الأخير يملك القدرة على التقدم ، وأحب ان أعيد هنا ان أدب الأمة لا يبنى ببعض الكتب

الممتازة ، بل بمجموعة كاملة من الإنتاج ، وهذا مالا يقوى عليه سوى الكتاب المحترفين •• ان أدب الأمم التي تعتمد في الإنتاج على الهواة ، يعد هزيلا اذا قيس بأدب الامم التي انتجها كتّاب اتخذوا الأدب حرفة لهم ، رغم الصعوبات التي عانوا منها في سعيهم الى كسب الرزق • وان العمل الأدبي ينتج عن الجهد الدائب المصمم ، والمؤلف كغيره من الناس يتعلم بطريقة المحاولة والخطأ ، وتتسم مؤلفاته الأولى بالتجريبية ، إذ يجرب في بادىء الأمر قلمه في مختلف الموضوعات والأساليب وينمي شخصيته في الوقت نفسه حتى يتاح له ان يكتشف نفسه ، باعتبار ان نفسه هي الشيء الذي سيعطي منه للآخرين ، وبالتدريج يتعلم كيف يعرض هـذا الاكتشاف محرزاً أفضل النتائج ، فيعطي ، وقد أمسك تماما بزمام ملكاته ، أفضل ما عنده • وما دامت الكتابة مهنة غير محفوفة بالخطر فالاغلب أن يمتدّ به العمر حتى يحقق ذلك ، وإذ ذاك تكون الكتابة قد أصبحت عنـده عادة ملحة فلا يجد مندوحة عن الاستمرار في انتاج أعمال ليس لها عظيم شأن ، وقد يهملها الجمهور بحق•• وقليل جداً مما ينتجه الكاتب خلال حياته الطويلة يمكن أن يعد عند القارىء أساسيا (وأعني بكلمة أساسي ذلك الجانب الصغير الذي يعبر عن فردية الكاتب ، ولا أرمي الى إعطاء هذه الكلمة أية قيمة مطلقة) •

على أنني أعتقد ان المؤلف لا يستطيع أن ينتج أفضل ما في وسعه إلا بالتحصيل الطويل ، وبالصبر على الإخفاق المتواصل ، وذلك بأن يجعل الأدب عمله الأول في الحياة ، فيكون كاتبا محترفا •

*
**

بعد أن تحدثت عن مساوىء حرفة الكتابة أحب ان أعرض الآن أخطارها.

من الواضح ان الكاتب المحترف لا يمكنه ان يكتب حين يحلو له ذلك فقط ، وإذا انتظر حتى تواتيه نفسه ، ويهبط عليه الإلهام كما يقول ، فسوف يطول به الانتظار وينتهي إلى إنتاج ضئيل أو لا ينتهي إلى شيء . إن الكاتب المحترف هو الذي يخلق الجو المواتي ، وان له إلهامه أيضا ، ولكنه يخضع هذا الإلهام لإرادته إذا عود نفسه العمل في ساعات منظمة .. ومع مرور الزمن تصبح الكتابة عادة ، فكما يهتز الممثل المتقاعد حين تأتي الساعة التي اعتاد فيها ان يهبط الى المسرح ، ويتهيأ لاستعراض المساء ، كذلك يتوق الكاتب الى قلمه وورقه كلما حانت الساعة التي اعتـاد أن يكتب فيها . وهكذا تصبح الكتابة عملا آليا وتنثال الكلمات على القلم بسهولة ، وتوحي له بالأفكار ، وقد تكون الأفكار قديمة سطحية ، ولكن يده المدربة تستطيع ان تخلق منها قطعة مقبولة . ومن ثم يتناول الكاتب عشاءه او يأوي الى فراشه مطمئنا الى انه قد أدى واجبه اليومي . إن كل إنتاج للفنان ينبغي أن يكون تعبيرا عن مغامرات روحه ، وهذه علامة الكمال ، ولكن في عالم غير كامل كعالمنا يمكن ان يعامل الكاتب المحترف بشيء من التسامح ، وإن كان هذا لا يعفيه من ان يضع الهدف نصب عينيه دائما . انه يحسن صنعا عندما يكتب لكي يحرر نفسه من موضوع طالما شغله وأثقل كاهله ، وإذا كان حكيما اكتفى بان يكتب من أجل ان يريح نفسه . ولعل أبسط طريقة تعين الكاتب على كسر طوق العادة ، هي تغيير البيئة الى بيئة أخرى لا تتيح فرصة لأداء القسط اليومي المعتاد ، ولن تستطيع ان تكتب كتابة جيدة او غزيرة (وأجازف بالقول ان المرء لا يكتب جيداً الا اذا كتب كثيراً) ما لم

تكون لنفسك عادة ، ولكن العادة ، في الكتابة كما في الحياة ، لا تفيد الا اذا كسر طوقها حالما تصبح غير مثمرة •

ولكن اعظم خطر يواجه الكاتب المحترف هو النجاح ، ولسوء الحظ لا يستطيع أن يحترز منه الا القلة القليلة من الكتّاب •• انه أصعب معضلة يتعرض الكاتب لمعالجتها ، وحين يحرز الكاتب النجاح بعد كفاح مرير طويل ، يجد أن النجاح يمد شباكه ليصطاده ويقضي عليه ،وما أقل الذين يعقدون العزم على وقاية انفسهم من مخاطره ، وهي عملية تتطلب حذراً شديداً •• ان الفكرة الشائعة التي تقول بأن النجاح يفسد الناس ويجعلهم مغرورين وأنانيين وراضين عن انفسهم ، هي فكرة خاطئة ، بل على عكس ذلك يؤدي النجاح بالمرء الى ان يصبح في معظم الحالات متواضعا معتدلا عطوفا ، والإخفاق هو الذي يجعل الناس قساة حاقدين •• ان النجاح يحسن شخصية الإنسان وان كان لا يحسن ، دوما ، شخصية المؤلف ، بل لعله يحرمه من تلك القوة التي أوصلته الى النجاح • لقد تشكلت فرديته من تجاربه ، ونضاله ، وآماله الخائبة ، ومن جهوده لتكييف نفسه مع عالم معادٍ ، ولكن هذه الفردية ستكون طاغية ان لم تعتدل بتأثير النجاح الملطف •

والنجاح الى ذلك ، يحمل في ذاته بذور الدمار ، لأنه قد يبعد المؤلف عن المادة التي أتاحت له النجاح ، ويدخل به في عالم جديد له فيه شأنٌ مرموق ، ولا بد ان يكون إنسانا خارقا إذا لم يؤخذ بالتفاف العظماء حوله ، والتفاف الملاح واحتفالهن به • ثم إنه يألف أسلوبا جديدا في العيش أكثر ترفا من أسلوب حيــاته السابق ، ويختلط بأناس لهم مكانة اجتماعية أرفع من مكانة زملائه السابقين ، يمتازون بالذكاء وبالبريق السطحي الأخاذ ، وكم يشق عليه ان يتحرك بحرية بعد ذلك في الأوساط التي كان يألفها والتي أمدته بموضوعاته • انه يتغير في عيون زملائه السابقين بسبب نجاحه فلا يستطيعون ان يعودوا الى ألفتهم السابقة معه ، وقد يرمقونه بنظرة حسد او نظرة إعجاب ، ولكنهم في الحالتين يكفون عن اعتباره واحدا منهم •• ان

العالم الجديد الذي جره النجاح اليه يثير خياله ويملي عليه ان يكتب ، ولكنه يرى هذا العالم من الخارج ، ولا يستطيع أبداً ان يتغلغل فيه كجزء أصيل منه • ولا أجد مثالا لهذه الحالة افضل من (آرنولد بنيت) الذي لم يتعمق معرفة اي شيء الا حياة (المدن الخمس) التي ولد ونشأ فيها ، وكانت كتابته عنها ذات شخصية واضحة ، ولما قاده النجاح إلى صحبة أهل الأدب والأغنياء والنسوة الأنيقات ، حاول ان يعالج الأمور فكان ما كتبه غير ذي قيمة •• اقد قضى عليه النجاح •

***

وهكذا ترى أن الكاتب الحكيم يحترز من النجاح ، وينظر بفزع الى مطالب الآخرين الناتجة عنه ، والمسؤوليات التي يفرضها عليـه ، وأنواع النشاط المعرقل التي يأتي بها • ولن يعطيه النجاح سوى شيئين جيدين : الأول والمهم الى أقصى حد ، هو حرية الكاتب في ان يخط طريقه بنفسه والثاني ثقته بنفسه • وبصرف النظر عن الادعاء والغرور الشديدين ، لن يستطيع المؤلف ان ينجو من سوء التقدير حين يقارن بين إنتاجه الراهن وبين ما كان ينوي إنتاجه أصلا ، وهناك فرق كبير جدا بين ما وضعه نصب عينيه سابقاً وبين أقصى ما استطاع أن ينتجه ، حتى ليبدو الأمر عنده مجرد تعويض لا أكثر ، وقد يرضى عن صفحة هنا وأخرى هناك ، وقد يستحسن حادثة أو شخصية ، ولكن من النادر ، في رأيي ، أن ينظر الفنان الى عمله بمجموعه نظرة الرضى الكامل • وقد تدور في مؤخرة ذهنه ريبة تحدثه بأن إنتاجه غير صالح البته ، وان ثناء الجمهور ــ حتى لو كان ميالا لأن يشك في قيمته ــ نعمة هبطت عليه من السماء •

ومن هنا كان الثناء ضرورياً للفنان ، والتوق اليه وجه من وجوه ضعفه قد يمكن اغتفاره ، على أن الفنان ينبغي ألا يتأثر بالثناء أو اللوم مادام يعنيه من إنتاجه علاقته بنفسه فقط ، واما طريقة تأثير الإنتاج في الجماهير فذلك أمر قد يعنيه من الناحية المادية لا من الناحية الروحية ، إذ ان الفنان ينتج بغية تحرير نفسه ، ومن طبيعته أن يخلق ، كما أن من طبيعة الماء ان ينحدر من الأعالي ، والفنانون لم يقدموا عبثاً على تسمية أعمالهم الفنية بنات أفكارهم ، وعلى تشبيه آلام الإنتاج بآلام المخاض ، كأنما العمل الفني شيء عضوي لا ينمو في أدمغتهم فحسب بل في قلوبهم وفي أعصابهم وفي أحشائهم ،

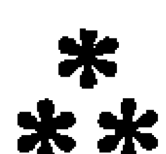
إنه شيء تنميه غريزة الخلق عندهم من تجارب أرواحهم وأجسامهم ، ثم يشتد ضغطه حتى يضطروا الى تخليص نفوسهم منــه ، وعند ذلــك يستمتعون بإحساسهم بالتحرر ، وتخلد نفوسهم الى السكينة في لحظة لذيذة ، ولكنهم، خلافاً للأمهات ، سرعان ما يفقدون شغفهم بالمولود الذي لا يظل جزءاً منهم ، بعد أن أدى دوره ومنحهم رضى النفس ، لتتهيأ أرواحهــم بعــد ذلك لحمل جــديد •

إن الكاتب يحقق ذاته في إنتاجه الفني ، وهذا لا يعني أن إنتاجه ذو قيمة عند غيره ، وقارىء الكتاب ومتفحص الصورة لا شأن لهما بمشاعر الفنان الذي نشد الراحة عند خلقهما ، إنهما ينشدان الاتصال مع الأثر الفني ولهما الحق في تقدير قيمته عندهما ، ولكن الاتصال عند الفنان ليس إلا عملا جانبياً ، ولست أقصد في حديثي الذين يمارسون الفن لغرض التعليم ، فهؤلاء دعاة والفن عندهم قضية جانبية •• ان الخلق الفني فعالية نوعيــة تبلغ غايتها في ممارستها الخاصة ، والعمل المنتج يكون جيداً أو رديئاً وهذا أمر يقرره الرجل العادي • إنه يقرر القيمة الجمالية بتأثير الاتصال الــذي يقدمه له العمل الفني ، فإذا كان يسوقه للهرب من عالم الواقع فإنه يرحب به ، وان كان أميل الى ان يعده فناً أدنى ، واما اذا أغنى روحه ونفخ فــي شخصيته ، فهو أجدر أن يعتبره فناً عظيماً ، ولكنني أصر ثانية على ان هذا الامر لا شأن له بالفنان الذي يسره من حيث هو إنسان أن يمنح الآخرين المتعة والقوة ، ولكنه يجب أن لا يمتعض اذا لم يجدوا في إنتاجه ما يتناسب مع ما يهدفون اليه ، فقد سبق له أن نال نصيبه عندما فاضت غريزته الخلاقة• وهذا الذي أقوله ليس مقياساً للكمال ، بل هو الشرط الوحيد الذي يمكن أن يتوصل الفنان بمراعاته الى الكمال الذي لا يجارى وهو هدف الفنان• فاذا كان روائياً استفاد من خبرته بالناس وبالبلاد ، ومن مخاوفه النفسية ، ومن كرهه وحبه ، ومن أعمق أفكاره ، ومن تهويماته العابرة ليرسم فــي مؤلف إثر آخر صور ةللحياة،وهذه الصورة ان تكون أكثر من صورة جزئية،

ولكنه إذا كان محظوظاً نجح في النهاية في إبداع شيء آخر ، في إبداع صورة كاملة لنفسه .

ومثل هذا التفكير ، وعلى أي حال ، هو عزاء للنفس إزاء ما تقع عليه أعيننا من إعلانات الناشرين . وحين تقرأ تلك القوائم الطويلة من الكتب ، وحين تكتشف ان النقاد قد أشادوا برجاحة هذه الكتب وعمقها وأصالتها وجمالها ، يهبط قلبك وتتساءل عن حظك في منافسة مثل هذه العبقريات . والناشرون سيخبرونك ان معدل حياة الرواية تسعون يوماً ، ومن الصعب أن تطمئن نفسك الى ان الكتاب الذي صببت فيه – بالإضافة الى نفسك كلها – أشهراً عديدة من الجد المضني ، يقرأ في ثلاث ساعات أو أربع ، وينسى بعد هذه المدة القصيرة جداً . ولن تجد فناناً تقصر به آماله عن أن لا يؤانس في نفسه بصيصاً من أمل ، في أن يخلد من بعده جزء من مؤلفاته عبر جيل أو جيلين ، رغم ان ذلك لا يجديه نفعاً ؛ إن التفكير في الشهرة بعد الوفاة نوع من الغرور ، لا يؤذي ، بل يلطف من خيبة الفنان وإخفاقه في الحياة . أما أنه هدف يصعب التوصل إليه ، فذلك ظاهر من مصير الكتّاب الذين بدأوا منذ عشرين سنة فقط متأكدين من خلودهم . أين قراؤهم الآن ؟ وما أصعب أن يعود الناس ثانيةً – في غمرة من الكتب التي تؤلف باستمرار، وفي غمرة هذه المنافسة من قبل الكتب المعمرة – الى تذكر كتب سبق أن طغى عليها النسيان . وهناك أمر شاذ تُقْدِمُ عليه الأجيال ، وربما عدهُ بعض الناس غير سليم ، ذلك هو إقبالها على الاعتناء بإنتاج المؤلفين الذين اشتهروا في عصرهم ، وأما الكتاب الذين يمتعون الخاصة ولا يتوصلون الى الجمهور الكبير فلا ينالون شغف الأجيال لان الأجيال لاتسمع عنهم أبداً . وفي هذا عزاء للمؤلفين المشهورين الذين أُلقي في روعهم ان شعبيتهم نفسها برهان كاف على ضآلة قيمة إنتاجهم ، ولعل شكسبير وسكوت وبلزاك لم يكتبوا لبسطاء

العقول في (شلسي) بل يبدو أنهم كتبوا للعصور التي تلتهم • وهكذا فإن الضمانة الوحيدة للفنان تأتي من قناعته النفسية بما يؤديه ، وهو يستطيع أن يقف موقف اللامبالاة لهذه النتيجة ، إذا أدرك أنه سيكافأ على جهده لتحرير روحه بواسطة أداء العمل الفني ، وبواسطة تشكيل هذا العمل بطريقة خليقة أن ترضي حاسته الجمالية على الأقل •



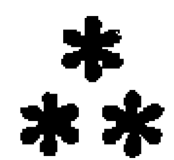
— ٥٠ —

على ان كل المساوىء والاخطار التي تعترض مهمة الكاتب ليست بشيء أمام تلك الميزة التي تتضاءل أمامها أهمية جميع الصعوبات والخيبات وربما المشقات ، لانها تمنحه الحرية .

ان الحياة عند الفنان مأساة يلذ له أن يتطهر بها ، عن طريق موهبة الخلق فيه .. إنها المطهر الذي وصفه أرسطو بأنه هدف الفن ، والذي يستطيع الفنان بواسطته أن يتخلص من الحسرة والرعب .. ان خطايا الفنان وحماقاته والتعاسة التي تحل به ، وحبه الذي لا يلقى تجاوباً ، وعيوبه الجسدية ، ومرضه وحرمانه ، كل أولئك يتحول بقوة الكاتب الى شيء مادي ، حين يكتبه الكاتب يستطيع أن يتغلب عليه .. وكل مافي الوجود غذاء لطاحونته من لمحة وجه في الشارع ، الى حرب تدمر العالم المتمدن ، ومن عبير وردة الى موت صديق ، وكل شيء يحل به يمكن أن يتحول الى مقطوعة أو أغنية أو قصة وذلك يخلصه من وطأته . ان الفنان هو الانسان الوحيد الحر .

وربما كان هذا هو السبب فيما نعرفه من ارتياب العالم عامة بالفنان ، وليس من المؤكد أن يكون موضع ثقة حين يستجيب للدوافع المشتركة عند الناس بمثل هذه اللامبالاة .. والفنان بالفعل لايحس أبداً بأنه مقيدبالمقاييس المعتادة وبذلك يثير حفيظة الناس .. وفيم يفعل ذلك ؟ أما الرجال عامة فالنهاية الأساسية لتفكيرهم وسعيهم هي إرضاء الحاجة وحفظ البقاء ، واما الفنان فانه يسد حاجاته ويحفظ بقاءه باقتفاء فنه . وما يعتبرونه تسلية عابرة يكون موضع جد عابس عنده ، وبذلك لا ينطبق موقفه من الحياة مع مواقفهم . إنه يخلق قيمه الخاصة . والناس يعتقدون أنه جاحد لأنه لا يوقر

فضائلهم المألوفة ولا يثور علـى الرذائل التـي تثيرهم •• والحق انه ليس بجاحد •• ولكن مايسمونه الفضيلة وما يسمونه الرذيلة من نوع لا يعنيه أبداً ، من نوع لا يمت بصلة الى مجموعة العناصر التي يبني الفنان منهـا حريته ، ومن الطبيعي اذاً أن يسخط عليه الناس العاديون ولكن هذا لايصلح من شأنه •• إنه غير قابل للإصلاح •



لم أُقدر الأمر حق قدره حين صممت على أن أقف بقية حياتي على كتابة المسرحيات بعد أن أصبت نجاحا في هذا المضمار •

لقد كنت سعيداً ، ناجحا ، منهمكا في العمل ، ورأسي يعج بالمسرحيات التي أردت أن أكتبها •• ولست أدري أهو نجاحي الذي لم يمنحني ماتوقعته، أم أن ذلك رد فعل طبيعي للنجاح • فما كدت أثبت قدمي وأنال الشهرة في ميدان كتابة المسرحية حتى بدأت تساورني ذكريات متدفقة من حيـاتي الماضية ، من وفاة والدتي وما أعقبه من انهيار اسرتي ، إلى بؤس سنواتي الأولى في المدرسة التي أساءت تهيئتي لها طفولتي الفرنسية وزادتها لعثمتي صعوبة ، الى بهجة تلك الايام السهلة الرتيبة المثيرة في هيدلبرج ، الى أول مراحل اقتحامي للحياة الثقافية ، الى ضيق السنوات القليلة التي قضيتها في المستشفى ، الى ضجيج لندن ، وهذه الذكريات كلها كانت تخطر لي ملحـة جداً ، سواء في نومي أو أثناء نزهاتي ، أو حين أحضر تجارب المسرحيات ، أو حين أكون في حفلة ، وأصبحت حملا علي حتى قررت أنني لن أستعيد السلام النفسي إلا إذا دونتها جميعا في رواية ، وعرفت انها ستكون طويلة وأردت أن لايزعجني شيء ، فرفضت العقود التي كان المنتجون يلحون علي لقبولها واعتزلت المسرح مؤقتا •

وكنت قد كتبت رواية في الموضوعات نفسها حين قصدت إشبيلية بعد أن أنهيت دراستي للطب • ومن حسن حظي أن « فشر أنوين » رفض أن يعطيني الجنيهات المئة التي طلبتها ثمنا ، ورفض الناشرون الآخرون قبولها بأي ثمن ، ولولا ذاك لفقدت موضوعا كنت في ذلك الحين غير جدير بأن

أحسن معالجته بسبب حداثة سني • وما زالت المخطوطة موجودة ولكنني لم أنظر اليها منذ ذلك الحين ، وقد صححت النسخة المطبوعة ولا أشك في أنها تفتقر الى النضج افتقاراً شديداً • وتبين لي انني لم أستطع أن أصف الحوادث بطريقة معقولة لأنني كنت حديث العهد بها ، وكانت تنقضي تلك الألوان من التجارب التي عملت على إغناء الكتاب الذي ألفته فيما بعد • ويبدو لي أنه إذا كانت كتابة هذه الرواية الأولى لم تستطع في النهاية أن ترسي فـي لاشعوري تلك الذكريات التعيسة التي عالجتهـا فما ذلك إلا لأن المؤلف لايستريح نهائيا من وطأة موضوعاته ، الا اذا نشر الكتاب الذي يعالجها ، فحين يطرح الكتاب على الجمهور يكف عن كونه ملكا للمؤلف ، مهما كان الجمهور غير مكترث به ، ويتحرر الكاتب من العبء الذي أثقل كـاهله •• كان اسم كتابي (جمال من الرماد) وهي جملة مقتبسة من (حزقيـال) ولكنني وجدت ان هذا العنوان مسبوق اليه ، فاخترت بدلا منه عنوان أحد كتب سبينوزا في علم الأخلاق وسميته (في الرباط الإنساني) •

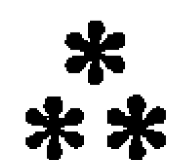
وليس الكتاب سيرة ذاتية ولكنه رواية تعتمد على السيرة ، وتختلط فيها الحقيقة والخيال ، والانفعالات هي انفعالاتي ، ولكن الحوادث لا تروى كما حدثت تماما ، وبعضها نسبته الى بطل القصة اقتباسا من حياة أناس عاشرتهم، لا من حياتي • وقد أدى الكتاب مهمته ، فعندما صدر الى العالم (عـالم في غمرة حرب رهيبة مشغول بمآسيها الى درجة لاتتيح له أن يتكلف الالتفاف الى مغامرات مخلوق روائي) شعرت أنني تحررت إلى الأبد من تلك الآلام والذكريات التعيسة • وقد ضمنته كل ما عرفته حينذاك ، وبعد أن فرغت منه هيأت نفسي لانطلاقة جديدة •

— ٥٢ —

لقد وقعت فريسة للتعب • ولم يكن تعبي من الناس والأفكار التيشغلتني طويلا ، بل تعبت أيضاً من الناس الذين عشت معهم ، والحياة التي كنـت أخوضها • وشعرت انني حصلت على أقصى ما في وسعي أن أحصل عليه من العالم الذي كنت أتحرك فيه •• أعني نجاحي في كتابة المسرحية والوجود المشرف الذي تبع ذلك كالوسط الاجتماعي والولائم الضخمة في بيـوت العظام والحفلات الراقصة الأخاذة ، وحفلات نهاية الأسبوع في البيـوت الريفية ، وكذلك صحبة اللامعين الأذكياء من الناس ، كتابا ورسامينوممثلين، والمغامرات الغرامية التي خضتها والصداقات المريحة التي أنشأتها ، ورغـد الحياة وطمأنينتها ، وشعرت بالاختناق من جراء ذلك وصبوت الـى طراز مختلف من العيش وتجارب جديدة ، ولكننيلم أدر أين ألتمس ذلك، ففكرت في السفر • وكنت قد تعبت من شخصي ، وخيل إليّ ان رحلة طويلة الى بلد ناء جداً قد تجددني • وكانت روسيا ملء أذهان الناس وقتئذ فخطر لي أن أقصدها مدة سنة واحدة ، وأتعلم لغتها التي كنت أعرف مبادئها ، وأغمر نفسي بجو تلك البلاد الشاسعة وأسرارها ، واعتقدت انني ربما وجدت هناك شيئا يمد روحي بالقوة والغنى •• لقد كنت في الأربعين من عمري ، ولو أنني أردت الزواج وإنجاب الاطفال لأحسست ان القطار فاتني ، على انني أخـذت أسلي نفسي بعض الوقت بتخيل صور مـن الحيـاة الزوجية ، ولم أكن أهدف الى الزواج من امرأة معينة ، وما شغلني هو حالة الزواج نفسها، فقد بدا الزواج دافعاً ضرورياً لنمط الحياة الذي صممته لنفسي ، وخيل إليّ انه يمنحني الأمان (لانني كنت ساذجا في بعض الأمور لدرجة لاتصدق، رغم أنني جاوزت سن الحداثة ، واعتقدت أنني فهمت العالم جيدا) ، الأمان

الـذي يحميني من اضطرابات المغامرات الغرامية التي ربما تبدأ عرضية ثم تجلب في مجراها تلك التعقيدات المزعجة (لأنها تحتاج عادة الى شخصين ، وما يمتع الرجل قد يكون سماً للمرأة) ، الأمان الذي يمكنني من كتابـة كل ما أردت كتابته دون أن أبعثر وقتي الغالي أو أتعرض للاضطراب الفكري، لقد نشدت الأمان والعيش الكريم واعتقدت انني أنال الحرية التي أبغي ، وقد داعبتني هذه الخواطر المتعلقة بزواجي حين كنت ما أزال أعمل في رواية (في الرباط الانساني) ، وعلى نحو مايفعل الكتّاب حولت رغائبي الى قصة رسمت في آخرها صورة للزواج الذي صبوت اليه ، وقد وجده القراء عامة أقل أقسام كتابي كفاية •

ولكنّ ترددي حَسِمَ أخيرا بحادث لم يكن في قدرتي أن أتحكم به ، فقد أعلنت الحرب ، وانتهى فصل من فصول حياتي وابتدأ فصل جديد •



— ٥٣ —

كان لي صديق من الوزراء كتبت له أسأله أن يفعل شيئا ليساعدني إذا دعيت الى تقديم نفسي الى مكتب الخدمة العسكرية ، وخوفا من أن أُكلف بعمل كتابي في انكلترا ، ورغبة في أن أخدم في فرنسا فقد التحقت رأسا بوحدة من سيارات الإسعاف ، ومع اعتقادي بانني لا أقل وطنية عن غيري الا ان وطنيّتي كانت ممزوجة بتوقي الى التجربة الجديدة التي تقدمها لي الحرب ، فاقتنيت مفكرة منذ أن وطئت قدماي أرض فرنسا ، وكنت أسجل فيها ما يحدث لي حتى اشتدت وطأة العمل الذي كان يكرهني على الارتماء في الفراش عند نهاية كل يوم . وقد استمتعت بالحياة الجديدة التي دفعت اليها ، وبخلوها من المسؤولية ، وأسعدني أن أتلقى الأوامر لأداء هذا العمل أو ذاك ، وأنا الذي لم اعتد على الأوامر منذ أن كنت في المدرسة ، حتى اذا مانفذت الأمر شعرت أن وقتي ملك مشيئتي ، وهو شعور لم أعرفه خلال عملي في الكتابة ، وعلى عكس ذلك ، كنت أشعر انه ينبغي عليّ ألا أُضيع دقيقة واحدة ، اما في هذه الحالة فقد كنت أُبذر ساعات طويلة في محادثات فارغة وضميري مرتاح . وقد أحببت ان التقي بجماعات كبيرة من الناس ، واختزنت غرائبها في ذاكرتي ، رغم انني لم أمارس الكتابة حينذاك . ولم أتعرض لأي خطر معين وكنت تواقاً لأن أختبر شعوري عند تعرضي له ، وما كنت أعتقد أنني شجاع ، وما كنت أظن أن بي حاجة لأن أكون كذلك ، والفرصة الوحيدة التي أتاحت لي أن أختبر نفسي هي انفجار قنبلة في جدار (الجراند بلاس) في (إيبر) ، فقد انهار الجدار الذي كنت أستند اليه لكي أُلقي نظرة على (قاعة صانعي الأقمشة) التي دمرتها القنابل ، وكانت المفاجأة أقوى من أن تتيح لي مراقبة حالتي العقلية .

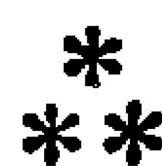
وبعد ذلك انتسبت الى دائرة المخابرات ، حيث بدا انني قد أكون أكثر فائدة مما لو بقيت أقود سيارة إسعاف دون كفاية ، وقد استهوى هذا العمل حاستي الخيالية وحاستي الساخرة • فالأساليب التي تعلمت أن أستخدمها لمراوغة الاشخاص الذين يلاحقونني ، والمقابلات السرية مع العملاء في أماكن كريهة ، ونقل الرسائل بطرق ملفعة بالغموض ، والتقارير التي تهرب عبر الحدود ، كل ذلك كان ضروريا بدون شك ، ولكنه كان يذكرني بما سمي حينذاك طريقة (مدخر الشلن) لان هذه الامور انتزعت واقعها من خارج نطاق الحرب ، ولم أستطع أن أعدها أكثر من مادة يمكن أن أستفيد منها يوما ما ، وقد انتهى عملي بعد أن قضيت سنة في سويسرا ، وكنت قد تعرضت لاخطار كثيرة حيث كان علي أن أعبر بحيرة جنيف مهما كانت حدة الجو في ذلك الشتاء المرير • وتدهورت صحتي ولم يكن أمامي ما أعمله ، فيممت شطر أمريكا حيث كانت اثنتان من مسرحياتي على وشك أن تنتجا • وأحببت أن أستعيد سكينة ذهني الذي اضطرب بسبب حمقي وغروري بأحداث لم يكن من الضروري ان أخوضها ، وهكذا قررت أن أقصد البحار الجنوبية • وكنت منذ أن قرأت في شبابي (المد والجزر) و (الحطام) أرغب في هذه الزيارة وأردت كذلك أن أفتش عن مادة لرواية تستند على حياة بول غوغان طالما شغلت نفسي بها •

وسافرت باحثا عن الجمال والخيال ، سعيدا لان المحيط العظيم يفصلني عن المشكلات التي ضايقتني • ووجدت الجمال والخيال وشيئا آخر لم أتوقعه أبدا • لقد وجدت نفساً جديدة ، فمنذ أن غادرت مستشفى سانت توماس عشت مع أناس جعلوا للثقافة قيمة ، وانتهيت معهم الى أن الفن لا يضاهيه أمر آخر في هذا العالم ، وبحثت عن المعنى في هذا الكون فلم أجد سوى الجمال الذي خلقه الانسان هنا وهناك • وعلى السطح كانت حياتي منوعة ومثيرة ، ولكنها كانت ضيقة في الاعماق ، والآن دخلت عالما جديدا وانتعش كل ما فيّ من غريزة روائية ليتشرب الجديد الذي رأيت •

ولم يكن جمال الجزر وحده هو الذي أسرني فقد هيأني لذلك (هيرمان ملفيل) و (بيير لوتي) ، وهو ، على كونه جمالاً من نوع مختلف ، لا يفوق في رأيي جمال اليونان أو ايطالية الجنوبية ، ولم تأسرني كذلك حياة الناس السهلة البدائية التي لا تخلو من المغامرة ، وإنما أثارني أن أصادف أناساً غرباء بالنسبة لي واحدا إثر الآخر . وكنت كعالم طبيعي يأتي الى بلاد تكثر فيها الحيوانات وتتنوع بشكل لا يحصره خيال . وقد عرفت بعض هؤلاء الناس، اذ كانوا نماذج قديمة قرأت عنها ، وقد أعطوني شعوراً بالمفاجأة المبهجة هو الشعور نفسه الذي خالجني في أرخبيل الملايو حين رأيت على غصن شجرة طائراً لم أره من قبل الا في حديقة الحيوان ، وتوهمت للوهلة الاولى انه ربما كان هاربا من قفص . ولم آلف بعض السكان واتتابتني هزة منهم كما انتابت (والاس) حين اكتشف نوعا من المخلوقات جديدا ، ولكنني وجدت مخالطة الناس على العموم سهلة ، وكانوا من جميع الانواع ، والحق أن تنوعهم كان خليقاً بأن يحيرني ، ولكن قوى الملاحظة عندي كانت مدربة تدريبا جيدا ووجدت من الممكن ، ودون جهد ، أن أختزن كلاً منهم في شعوري ؛ وقليلون منهم عرفوا الثقافة ، وجلهم تعلموا الحياة من مدرسة تختلف عن مدرستي ، ووصلوا الى نتائج مختلفة وسلكوا نهجا آخر في الحياة ، ولم أستطع ، بفضل روح الدعابة عندي ، ان أظل معتقدا ان حياتي أعلى مستوى منهم ، لقد كانت تختلف عنهم .. ان حيواتهم أيضا كونت نفسها ضمن نمط قائم على نظام خاص وتناسق نهائي لا تخطئه العين النافذة .

لقد هبطت من عليائي وبدا لي ان هؤلاء الناس يتمتعون بحيوية أكثر من الرجال الذين عرفتهم من قبل ، إنهم لا يسطعون كلهيب جوهري صلب ، وإنما كنار حارة آكلة ذات دخان ، وفي عقولهم ضيق واضح وفي نفوسهم تحزب ، وهم أميل الى الغباء والبلادة . ولم أكترث لذلك كله .. لقد كانوا من طبيعة مختلفة وكفى . وفي البلدان المتحضرة تلطف الحاجة الى التكيف مع قواعد سلوكية معينة ، المنحى العقلي للأفراد ، وتقوم الثقافة بوظيفة القناع

الذي يخفي وجوههم . اما هنا فالناس يظهرون على حقيقتهم ، وهذهالمخلوقات المتباينة ، في حياتها التي تحتفظ بقدر وافر من البدائية ، لا تشعر بالحاجة الى التكيف مع المقاييس العرفية ، وقد اتيح لخصائصها ان تنمو دون أية رقابة . واما في المدن الكبرى فيشبه الناس مجموعة من الحجارة رصت في حقيبة وأخذت اطرافها تتآكل بسبب الاحتكاك ، حتى أصبحت في النهاية ناعمة كالرخام . أما هؤلاء الناس فلم يتح لأطرافهم ان تتآكل ، وأحسست أنهم أقرب الى عناصر الطبيعة البشرية من أي قوم آخرين ، وخفق قلبي لهم كما فعل منذ سنوات أمام زوار العيادة الخارجية في مستشفى سانتتوماس. وقد ملأت مذكرتي بأوصاف مختصرة لمظهرهم وشخصيتهم ، وإن خيالي ليلتهب بهذه الانطباعات الغفيرة على أثر إشارة أو حادثة أو مصادفة سعيدة ، فتبدأ القصص بنسج خيوطها حول فئات منهم كانت أكثر حيوية من غيرها .



عدت الى أمريكا و'أرسلت بعد مدة في مهمة الى بتروغراد ، وقد ترددت في قبول هذا العمل الذي بدا لي أنه يتطلب مؤهلات أعتقد أنني لا أملكها ، ولكن تبين أنه لا يوجد في ذلك الحين من هو أجدر مني ، واعتُبرتْ مهنة الكتابة تغطية ناجحة للعمل الذي أنيط بي ، ولم أكن في حالة صحية جيدة ، وخمنت مما تبقى لي من معرفة طبية ، معنى النزيف الدموي الذي عانيتمنه، واثبتت صورة الاشعة بوضوح انني مصاب بسل في الرئتين ، ولكنني لم أطق تفويت فرصة قضاء مدة طويلة بالتأكيد فيبلد تولستويودوستويفسكي وتشيخوف ، وخطر لي انني أستطيع ان أجد لنفسي أشياء ذات قيمة خلال فترات الراحة التي يتيحها لي عملي ، وهكذا أثبتُّ قدمي بعناد في ميدان الوطنية ، واقنعت الطبيب الذي استشرته ان مخاطرتي لم تكن في غير محلها في مثل الظروف المأساوية التي كانت تحيط بالبلاد ، وبدأت رحلتي بروح معنوية عالية ، وكمية غير محدودة من النقود تحت تصرفي ، وأربعة من التشيك يمثلون دور ضباط اتصال بيني وبين الاستاذ مازاريك الذي كان يسيطر في انحاء مختلفة من روسيا على ما يقرب من ستين الفا من مواطنيه . وقد انتعشت لشعوري بمسؤولية المنصب . وقمت بمهمة مخبر خاص ، يمكن التنصُّل منه عندالضرورة،وزودت بتعليمات للاتصال بالفئات المعادية للحكومة وأن أجد طريقة لإبقاء روسيا في الحرب ومنع البولشفيك وأنصارهم من (القوى المركزية) من استلام السلطة . وليس من الضروري ان أخبرالقارىء انني أخفقت في هذه المهمة إخفاقاً مؤسفاً ، ولا أدعوه لتصديقي إذا قلت إنه كان من الممكن أن تنجح مهمتي لو أرسلت قبل ستة شهور على الاقل ، وقد انفجرت الثورة بعد ثلاثة شهور من وصولي وقضت على كل خططي .

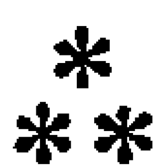
ورجعت الى انكلترا مزودا بتجارب ممتعة • وقد سنحت لي الفرصة لاعرف معرفة جيدة رجلاً من أغرب الرجال الذين قابلتهم في حياتي ، ذلك هو « بوريس سافينكوف » الإرهابي الذي اغتال « تربوف » والدوق الكبير « سرجيوس » ، ولكنني عدت من روسيا وقد كشفت بصيرتي وأسقمتني روسيا والروسيون لما رأيته في كل مكان من إغراق في اللغو حيث ينبغي العمل ، وتخاذل ، وخمول حيث لا ينتهي الخمول إلا الى الدمار ، وادعاءات لا تعرف حدوداً وبعد عن الصدق ونضوب في الإخلاص • واشتدت عليّ وطأة المرض أيضاً لانني كنت في منصب لا يساعدني على الاستفادة من المؤن الوافرة التي كانت تتدفق على السفارات لتؤهل رجالها لخدمة الاوطان ببطون ممتلئة ، واكتفيت (كالروس تماماً) براتب غذائي هزيل • وحين وصلت الى استكهولم حيث كان علي أن أنتظر يوما كاملا وصول المدمرة التي ستنقلني في بحر الشمال ، قصدت بائع حلوى واشتريت رطلا[1] من الشوكولاته وأكلته في الشارع • ثم جاءت خطة لإرسالي الى رومانيا لامر يتعلق بمؤامرة بولونية نسيت تفصيلاتها ، ولكن الامر لم يتم ، ولم آسف لانني كنت أسعل من اعماقي ، وجعلتني الحمى المستمرة قلقا طيلة تلك الليالي ، وقصدت أبرز اختصاصي في لندن فأرسلني الى مصحة في شمالي اسكتلندا حيث كانت مصحتا دافوس وسانت مورتز غير ملائمتين في ذلك الحين ، ودام مرضي سنتين •

كان الوقت متراخياً جداً وشعرت للمرة الاولى في حياتي بمتعة الاستلقاء في السرير • وما أدهش ما تبدو الحياة غنية عند من يضطجع في السرير سحابة نهاره ويجد أمامه أموراً كثيرة تشغله ، وقد أبهجتني غرفتي الخاصة بنافذتها الرحبة المفتوحة في ليالي الشتاء ذات النجوم • وأحسست إحساساً ممتعاً بالامان والانعزال والحرية ، وكان الصمت ساحراً كأنما يشمل فراغاً لا حد له ، وبدت روحي في وحدتها مع النجوم قادرة على خوض أية مغامرة،

(١) المقصود هنا هو الرطل الانكليزي . (المعرب)

وكان خيالي ناشطاً بشكل لم أعهد مثله في حياتي كأنه زورق يندفع مــع الريح تحت ضغط الشراع • ومرت الايام الرتيبة بسرعة يصعب تصورها وليس فيها من إثارة سوى خواطري والكتب التي أقرؤها ، وتركت فراشي بحرقــة •

ودخلت عالماً غريباً بعد أن تحسنت صحتي ، وكنت أقضي جزءاً من نهاري مع زملائي المرضى الذين أحسست انهم يشبهون أهالي البحار الجنوبية في تفردهم وطرقهم المختلفة في الحياة ، وفيهم من أمضى عدة سنوات في المصح، وقد حرفهم مرضهم وحياتهم الغريبة الشجية ، مما أحدث التواءً وتقويــة وإنهاكاً في شخصياتهم كما كانت شخصيات الاهالي في ساموا وتاهيتي تضعف وتقوى وتتلوى بفعل الطقس الرخو والبيئة الغريبة • وأعتقد انني تعلمت الكثير عن الطبيعة البشرية في ذلك المصح ، وما كان لي أن أتعلم ذلــك لولاه •



شفيت من مرضي بعد أن انتهت الحرب، ويممت شطر الصين وشعوري هو شعور أي مسافر مهتم بالفن ، تواق لرؤية ما يستطيع رؤيته من سلوك شعب غريب ، له حضارة قيمة مترامية في القدم ، ولكنني ذهبت وفي نفسي الرغبة في أن أقابل أناساً من مختلف الأنواع لأوسع تجربتي بالتعرف اليهم ، وقد فعلت ذلك وملأت مذكرتي بأوصاف أمكنة وأشخاص ، وبالقصص التي أوحوا إليّ بها ، وأخذت أشعر بالفائدة النوعية التي أجنيها من السفر بعد أن كانت قبلُ شعوراً غريزيا • وهذه الفائدة تحرير للروح من جهة وجمع للأنماط المختلفة من الشخصيات ، خدمة لأهدافي ، من جهة أخرى • وبعد ذلك سافرت الى عدة بلدان ، وقطعت دزينة من البحار في مختلف أنواع السفن ، وسافرت بالقطار ، وبالسيارة ، وبالعربة ، وعلى الاقدام ، أو على متون الخيل ، وتركت عينيّ مفتوحتين على الشخصيات، والنفوس ، والشذوذ ، وأخذت أعرف بسرعة الاماكن التي يمكن أن تفيدني ، واستقر فيها حتى أنجز ما أريد ، وأما الاماكن الاخرى فكنت أمر بها مرور الكرام ، وقد خضت كل تجربة اعترضتني •• وفي حدود مقدرتي ، كنت أوفّر لنفسي أسباب الرخاء في أسفاري ، وبدا لي أنّ تعمّد الخشونة من أجل الخشونة سخافة ليس لها مبرر ، ولكنني لا أذكر انني ترددت في عمل أي شيء لانه خطير أو غير مريح • ولم أكن متفرجا بارعا ، فقد خلع الآخرون حماسة هائلة على مناظر عالمية عظيمة لم أكترث بها الا قليلا عند رؤيتها ، ولذلك فضلت الاشياء العادية كبيت من الخشب يعشش بين أشجار الفاكهة ، أو التواء خليج صغير تحف به أشجار جوز الهند ، أو مجموعة من الخيزران على حافة الطريق • وكان اهتمامي الاول بالناس وأساليب حياتهم ، وإني لأخجل

من التعرف على الغرباء ولكن الحظ أسعفني برفيق ذي لباقة اجتماعية لاتقدر، في نفسه ميل محبب مكنه من ان يكسب الاصدقاء بسرعة في السفن والنوادي والمقاصف والفنادق ، وبفضله استطعت أن أظل على اتصال مع عدد هـائل من الاشخاص ما كنت لأعرفهم ، لولاه إلاّ عن بعد •

وكنت أوسع تعارفي معهم ضمن الحدود التي رغبت فيها ، وكان تآلفهم معي ناتجاً عن وحدتهم وضجرهم ، ولا ينطوي إلاّ على أسرار قليلة ، وتقطعه الفرقة الى غير رجعة ، كان وثيقاً لان حدوده مقررة سلفاً • والآن أعود بالذكرى الى ذلك الموكب الحافل فأجد انه ما من أحد إلاّ كان لديه شيء يفضي به إليّ وأنا مسرور ، وخيّل إليّ أن نفسي تنبض بمثل حساسيةعدسة المصور ، وما كان يعنيني كثيراً أن تكون الصور التي آخذها حقيقية ، وإنما حصرت اهتمامي في أن اكوّن بمساعدة خيالي ، من كل شخص صادفته ، انسجاماً متقناً ، وكانت تلك لعبة سارة جداً لا تضاهيها أية لعبة أخرى شغلت بها في حياتي •

وكثيراً ما نقرأ انه ما من انسان يشبه تماماً انساناً آخر ، وان كل انسان فريد من نوعه ، وهذا صحيح في بعض النواحي ، ولكنه من نوع الحقائق التي يسهل أن تدخلها المبالغة ، وفي التجربة العملية تجد الناس جميعـاً متشابهين • وهم يقسمون الى أنماط قليلة متباينة ، والظروف المتشابهةتصبهم في قالب واحد ، ان هناك صفاتمعينة تستتبعدوماً صفات أخرى ، وتستطيع، كعالم الاثريات الحيوانية ان تعيد بناء هيكل الحيوان من عظمة واحدة •• ان الشخصيات التي كانت نمطاً شائعاً في الادب منذ ثيوفراستسوالشخصيات المسلية في أدب القرن السابع عشر تبرهن على ان الناس موزعون على بضعة أصناف متمايزة ، وهذا هو في الحق أساس الواقعية التي تعتمد في جاذبيتها على العرفان • ان الاسلوب الابتداعي يصرف اهتمامه الى الشاذ في حـين يعنى الواقعي بالعادي • والظروف المنحرفة انحرافاً خفيفاً ، والتـي تحيط

بالذين يعيشون في أقطار تميل فيها الحياة نحو البدائية أو تكون بيئتها غريبة ، هذه الظروف تؤكد انهم عاديون ذوو شخصية خاصة ، وحين يوجد فيهم شيء من الشذوذ ، وهو أمر يحدث دائماً ، فانه يتيح لهم انعدام الضوابط المعتادة لتنمية انحرافهم بحرية لا سبيل اليها في الاقطار الاكثر تمدنا إلاّ بمشقة عظيمة ، فإذاً هناك مخلوقات يصعب أن تعالج باسلوب الواقعية ؛ وقد اعتدت أن أواصل سفري الى ان استهلك طاقتي على التلقي ، وعند ذاك أجد انني أقابل الناس مفتقراً الى القدرة على إعمال خيالي لإكسابهم شكلاً وانسجاماً ، فأعود الى إنكلترا لأصنف انطباعاتي وأستريح ، حتى أشعر أنني استعدت قدرتي على الهضم والتمثّل •

وأخيراً ، بعد سبع من الرحلات فيما أظن وجدت الناس سواء في معنى من المعاني ، فقد قابلت أنماطاً من الناس بعد أنماط ، وتقلصت قدرتهم أخيراً على إثارة شغفي • واستنتجت انني وصلت الى نهاية قدرتي على ان انظر بحماسة وفردية الى الناس الذين قطعت المسافات لأراهم ، لأنني ما شككت قط انني كنت اضفي عليهم من عندي الأمزجة العقلية التي اكتشفتها فيهم ، وهكذا قررت ان السفر لم يعد مجدياً لي • فقد كدت أموت مرتين من الحمى ، وكدت أغرق ، وأُطلقت عليّ النيران من قاطعي الطرق ، وأخيراً سرّني أن استأنف أسلوباً في الحياة أكثر تنظيماً • وكنت أعود من كل رحلة وأنا مختلف بعض الشيء •• وقد قرأت كثيراً في شبابي ، لا لأنني حسبت ان ذلك مفيد لي ، ولكن بتأثير حب الاستطلاع والرغبة في التعلم • وسافرت لأن السفر يسليني ، ولأنه يمدني بمادة قد تنفعني ، ولم يخطر لي ان تجاربي الجديدة تترك آثاراً في نفسي ، ومضى زمن طويل قبل أن اكتشف كيف عملت هذه التجارب على تشكيل شخصيتي • وأثناء اتصالي بهؤلاء الناس الغريبين فقدت الليونة التي اكتسبتها حين كنت أعيش حياة الأديب الرتيبة كحجر من الحجارة داخل حقيبة ، وأتيح لي ان أستعيد أطرافي المتآكلة ، وثُبْتُ الى نفسي أخيراً •

لقد كففت عن السفر لانني اقتنعت أن السفر لم يعد قادراً على إطرافي بأي جديد ، وأنا نفسي ، أصبحت عاجزاً عن أي تطور ، فقد خلعت ثــوب الغرور الثقافي وأصبحت في حــالة تقبل كامل ، ولم أطلب من أي إنسان أكثر مما يستطيع أن يعطي ، وتعلمت الاعتدال ، وارتحت الى طيبة زملائي ولم تضايقني رداءتهم • لقد اكتسبت استقلال الروح ، وتعلمت أن أسلك طريقي الخاص دون أن أهتم بما يقوله الآخرون ، ونشدت الحرية لنفسي وكنت على استعداد لان أمنح الآخرين حرياتهم • ومن السهل أن تضحك وتهز كتفيك حين يسيء الناس التصرف مع غيرهم ، وأصعب من ذلك بكثير أن تفعل الشيء نفسه حين يسيئون إليك ، غير انني لم أجد هــذا الموقف مستحيلاً • وقد وضعت ما انتهيت اليه بشأن الناس على فم رجل قابلته على ظهر سفينة في بحار الصين : (يا أخي سأعطيك رأيي في الناس بجملة واحــدة) وجعلته يقول : (إن قلوبهم في مكانها الصحيح ولكن عقولهم أعضاء عديمة الكفاية) •

***

أحببت دوماً ان أترك الأشياء تتخمر في ذهني مدة طويلة قبل ان أدونها على الورق ، ولم أكتب مجموعتي القصصية الاولى عن البحار الجنوبية إلاّ بعد أربع سنوات من تسطير ملاحظاتي عنها ، وقد بدأت عملي الأدبي بكتابة هذه القصص وكان كتابي الثالث مجموعة أخرى من ست قصص لم تبلغ مستوى جيداً • وبعد ذلك جربت أن أكتب القصص للمجلات بين حين وآخر وضغط علي وكلائي كي أكتب بأسلوب مرح ولكنني لم أوهب هذه القابلية ، وكنت عابساً ، ساخطاً ، هجّاء ، وهكذا لم تنجح جهودي في إرضاء المحررين وكسب شيء من النقود إلاّ نادراً •

وأول قصة كتبتها في هذه المرحلة سميتها (المطر Rain) وبدا انني لن أنال حظاً منها أكثر مما نلته في القصص التي كتبتها في المرحلة الاولى من شبابي ، لان المحررين رفضوها واحداً بعد الآخر ، ولكنني لم أبال بذلك وأصررت على الاستمرار ، فكتبت ستا من القصص نشرت جميعها في المجلات، ثم جمعتها معا في كتاب فلاقت نجاحاً مرضياً لم أكن أتوقعه ، وقد أعجبني شكلها الفني ، ونعمت مدة اسبوعين أو ثلاثة بصحبة الاشخاص الذين خلقهم خيالي في هذه القصص ثم انتهى أمرهم •• إن الوقت لا يتسع أمام المؤلف كي يعيش طويلاً مع أشخاصه الذين انتهى منهم ، بعكس الاشهر الطويلة التي يقضيها معهم في مرحلة التأليف • وهذا النوع من القصص ، حيث تتألف القصة الواحدة من حوالي اثني عشر الف كلمة ، أتاح لي مجالاً كافياً لطرح موضوعي ، ولكنه اضطرني الى اقتضاب ارتحت له بفضل تمرسي بكتابة المسرحية •

ومن سوء حظي انني بدأت بكتابة القصص القصيرة جديا حين اخذت الطبقة الاولى من كتاب إنكلترا وامريكا تذعن لتأثير تشيخوف ، ذلك ان عالم الادب يفتقر الى التوازن ، فإذا استهوته طريقة ما ، مال الى اعتبارها قانونا منزلا من السماء ، لازياً عابراً ، وفي ذلك الحين كان الرأي السائد هو ان كل من وهب ميولا فنيه وأراد أن يكتب القصة القصيرة ، ينبغي أن يحذو حذو تشيخوف، وكثيرون من الكتاب بنوا شهرة لانفسهم بتطعيم(سورى Surrey أو (متشيغان) أو (بروكلين) أو (كلافام) بالسوداوية الروسية ، والتصوف الروسي والضياع الروسي ، واليأس الروسي ، والعقم الروسي ، وتشتت الغرض الروسي • وينبغي أن نقر ان تقليد تشيخوف ليس شاقا ، فعلى حد معرفتي هناك عشرات من الروس اللاجئين يقومون بهذا العمل على حسابي ، لانهم يرسلون الي قصصهم لكي اصحح لغتها الإنكليزية ، ثم ينقمون علي لأنني لا أستطيع أن أحصل لهم من المجلات الأمريكية كميات وافرة من النقود • لقد كان تشيخوف كاتباً ممتازاً للقصة القصيرة وقد عرف نقائصه فحاول أن يحسب حسابها في فنه ، ومنها انه كان عاجزاً عن تأليف قصة درامية مترابطة كتلك القصص التي تستطيع أن تسردها على مائدة العشاء (التراث L'Héritage) او (القلادة La Parure) ، وكان تشيخوف ، الرجل ، ذا ميول متفائلة عملية ، ولكن تشيخوف ، الكاتب ، كان من طبيعة سوداوية مرهفة ، جعلته يشيح باشمئزاز عن أعمال العنف والترف الاسلوبي • وما مرحه اللاذع غالباً إلا رد فعل منهك لإنسان استثيرت احاسيسه المستوفزة بطريقة خاطئة ، وقد نظر الى الحياة نظرة رتيبة ، ولم تتضح الحدود الفردية لجمهوره ، وكأنه لم يكن شديد الاهتمام بهم كأشخاص ، ولعل هذا يفسر قدرته على ان يشعرك بأن كلاً منهم جزء من الآخر ، كالخلايا الغريبة ، تتلمس طريقها لتتحد بعضها مع بعض ، وهذا الإحساس بغموض الحياة وعمقها اعطى تشيخوف ميزته الفريدة التي لم يدركها مقلدوه •

لست ادري ان كان في وسعي ان اكتب القصص على طريقة تشيخوف•• على انني لم ارد ذلك ، واحببت ان اكتب قصصا محكمة العقدة تسير في خط لا ينكسر من مستهلها حتى نهايتها • وقد رأيت في القصة القصيرة سردا لحادثة واحدة روحية أو مادية ، تكتسب وحدة درامية ، بحذف كل ما هو غير ضروري لإيضاحها • ولم اخش ما يسمونه اليوم فنيا (بالنقطة the Point) وبدا لي أنها تستدعي الخشية في حالة واحدة فقط ، عندما تكون غير منطقية ، واعتقدت ان سوء التقدير الذي لحقها ناتج فقط عن كونها في الاغلب مصطنعة لمجرد التأثير دون اسباب مشروعة ، وباختصار احببت ان انهي قصصي القصيرة بنقطة واحدة لا بنقاط مبعثرة •

ولهذا السبب ، فيما أعتقد ، لاقت قصصي في فرنسا تقديرا يفوق ما لاقته في إنكلترة • إن رواياتنا الكبرى فضفاضة لا شكل لها ، وقد سر الإنكليز ان يضيعوا انفسهم في هذه المؤلفات الضخمة المتطاولة الأليفة ، ولكن رخاوة النسج ، والسلوك غير المرسوم في القصة غير المنظمة ، وتجوال الشخصيات العجيبة ودخولها في القصة وخروجها دون ان يكون لها صلة قوية بالموضوع الاساسي ، كل اولئك اعطى القصة الانكليزية معنى واقعيا خاصا ، وعلى نقيض ذلك تعطي القصة الفرنسية إحساسا حادا بعدم الارتياح• إن المواعظ التي وجهها هنري جيمس إلى الإنكليز على شكل قصص اثارت اهتمامهم ولكنها أثّرتْ تأثيرا ضئيلا في سلوكهم العملي ، وما ذاك إلاّ لأن شكلها الفني مدعاة للريبة ، ويجدونها مفتقرة الى الهواء الطلق ، ويتضايقون من شدة ضبطها ويشعرون ان الحياة تنسل من يد المؤلف حين يفرض على مادته قالبا متعمدا • والناقد الفرنسي يطلب من القطعة الروائية ان تقسم الى بداية ، فعرض ، فخاتمة ، وان تفضي إليك مباشرة بما يتعلق بالموضوع الاساسي ، ولعلي اكتسبت إحساسا بالشكل يرضي ذوق الفرنسيين من ألفتي المبكرة جدا مع موباسان ، ومن تمرسي بالفن المسرحي ، وربما بتأثير من مزاجي العقلي ، وقد وجدوا ، على أي حال أنني لست مسرفا في الرقة ولا شديد الاعتناء باللفظ •

نادرا ما تمد الحياة الكاتب بقصة جاهزة تماما ، وفي اغلب الاحيان تكون الحقائق متعبة جدا ، وهي تعطي إيحاءات تثير الخيال ولكنها ميالة عندئذ إلى ممارسة سلطة لا تكون إلاّ هدامة ، والمثال التقليدي لهذه الحالة واضح في (الأحمر والأسود Le Rouge et le Noir) وهي رواية عظيمة ، ولكن هناك إجماعا على ان نهايتها غير كافية ، وليس صعباً العثور على السبب، فإن ستندال استقى فكرتها من حادث كان له دوي عظيم في ذلك الحين ، إذ قتل كاهن شاب خليلته وحوكم وأُعدم ولكن ستندال لم يضع في بطله جوليان سوريل جزءا كبيرا من نفسه فقط ، بل كثيرا مما ود لو يكونه وهو يشعر بأنه لم يكنه ، وبذلك خلق واحدا من أمتع الاشخاص في القصة ، وسارت قصته متماسكة معقولة حتى ربعها الأخير ، ولكنه وجد نفسه في النهاية مضطرا للعودة الى الحقائق التي استوحى منها قصته . ولم يتحقق له ذلك إلا بإكراه بطله على ان يسلك سلوكا لا يتفق مع شخصيته وذكائه . والصدمة هنا قوية لدرجة تجعلك تكف عن التصديق ، وحين تكف عن التصديق في الرواية ينتهي أسرها لك . والمبدأ الصحيح هو أن تطرح الحقائق جانبا إذا كانت لا تتفق مع منطق شخصيتك ، ولست ادري كيف كان يجب ان ينتهي ستندال من روايته ، ولكنني اعتقد انه يصعب تصور نهاية أردأ من الخاتمة التي اختارها .

وقد وُجه إليّ اللوم لانني اخترت شخصياتي الروائية من اشخاص احياء ، وخيل إليّ بعد ما قرأت النقد الكثير الذي كتب عني ان هذا العمل لم يقم به احد قبلي ، وهذا هراء . لقد جرت العادة منذ بدأ الناس يؤلفون ان تكون هناك أصول واقعية لما يخلقه المؤلفون ، وأعتقد ان الباحثين يعطون

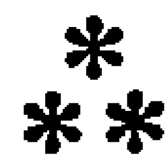
اسما للغني النهم الذي استخدمه « بيترونيوس » نموذجاً في « تريما لكيو »، كما أن تلامذة شكسبير يجدون اصلا للسيد (جستيس شالو) وكذلك (سكوت) الذي كان مستقيماً وفاضلا جداً فقد رسم صورة مريرة لأبيه في أحد كتبه ثم جعلها في كتاب آخر أكثر إرضاء بعد أن لطف كر السنين من حدته ، وقد كتب ستندال في إحدى مخطوطاته اسماء الاشخاص الذين استوحى منهم شخصياته ، وصوّر ديكنز ـ كما نعلم ـ أباه في السيد (ميكوبر) ، وكذلك (لي هنت) في (هارولد سكمبول) ، وصرح تورجنيف، انه لم يستطع أن يخلق شخصية ما لم ينطلق خياله في البدء من شخص حي. وإني لأرتاب في الكتاب الذين ينكرون اعتمادهم على اشخاص واقعيين ، واظنهم يخدعون انفسهم (وهذا ليس مستحيلاً مادمت تستطيع أن تكون قاصاً ناجحاً دون أن تكون شديد الذكاء) أو انهم يخدعوننا .. وحين يَصْدُقون القول ولا يكون في ذهنهم فعلا أي شخص واقعي معين ، احسب انهم إذ ذاك يكونون قد استقوا شخصياتهم من ذاكرتهم لا من غريزة الخلق عندهم . وما أكثر ما قابلنا (دارتانان) و (السيدة برودى) و (القس غرانتلي) و (جين أير) و (جيروم كوانيارد) تحت أسماء وأثواب مختلفة ، ولي أن اقول إن اختيار الشخصيات من نماذج إنسانية موجودة فعلا ليس امراً مشتركا بين جميع الكتاب ، بل هو شيء ضروري . ولست أدري لِمَ يخجل أي كاتب من الاعتراف به ، وكما قال تورجنيف : لن تستطيع أن تعطي لما تخلقه حيوية ومزاجاً عقلياً ، ما لم يكن في ذهنك إنسان معين .

وأُصر على أنه خلق .. فنحن نعرف القليل جداً حتى عن الاشخاص الذين تربطنا بهم معرفة وثيقة ، ولسنا نعرفهم معرفة تؤهلنا لأن نحوّلهم إلى صفحات كتاب يبدون فيها مخلوقات إنسانية كاملة . ان معالجة الناس في حياتهم العادية صعبة جداً ، لانهم مضللون ، غامضون ، متناقضون غير منسجمين ايضاً . والكاتب لا ينسج اشخاصه من الحياة بل يأخذ منهم ما يشاء ، كخاصة معينة استرعت انتباهه ، أو نفتة ذهنية ألهبت خياله ،

ومن ثم يبني الشخصية الفنية ، ولا يعنيه وجود تشابه حقيقي بين الاصل والصورة ، وإنما يهمه أن يخلق انسجاماً متقناً ملائماً لاهدافه • وربما كـان الفرق بين العمل المنجز والاصل عظيماً ، حتى ان الكاتب ليتهم بتقليد شخص ما في حين يكون في ذهنه شخص آخر ، واحسب أن الكتّاب ينبغي ان يكونوا معتادين على مثل هذه التهم • يضاف الى ذلك ان المصادفة هي التي تجعل الكاتب يختار شخصياته من بين اناس يعرفهم معرفة وثيقة او سطحية ، وقـد يكفيه أحياناً أن يكون قد لمح أحدهم في مقهى ، أو ثرثر معه ربع ساعة في غرفة التدخين في الباخرة • إن كل ما يحتاجه هو تلك القاعدة الخصبة المرنـة التي يستطيع أن يبنيها معتمداً على تجربته في الحياة ، ومعرفتـه بالطبيعة البشرية ، وحدسه الخاص •

ومثل هذا العمل خليق بأن ينساب بسهولة ، لولا حساسية الاشخاص الذين يتخذهم المؤلف نماذج لفنه •• إن أنانية الإنسان ضخمة جداً ، بحيث ان كل من قابل مؤلفاً يأخذ في البحث عن صورته في كتابات ذلك المؤلف ، وإذا اقنعوا انفسهم ان هذه الصورة او تلك مأخوذة عنهم فلا بد ان يشعروا بمرارة الخيبة حين يجدون فيها بعض النقائص • ومع انهم يكشفون اخطاء اصدقائهم بحرية ، ويضحكون من سخافاتهم ، إلا ان غرورهم الهائل يحول دون اعترافهم بأن لهم بدورهم ، اخطاء وسخافات • ويزداد الامر سوءاً بسبب اصدقائهم الذين يؤذونهم ، إذ يظهرون بمظهر المتعاطف معهم عنـد نقمتهم • ولا يخلو الامر كذلك من الدجل ، واحسبني لست الكاتب الوحيد الذي ناله الاذى من النسوة اللواتي ادعى بعضهن انني اقمت معهن ، ثم جحدت ضيافتهن فيما كتبته عنهن ، مع انني لم اعرفهن ابداً ، بل لم اسمع بهن فضلا عن ان اكون اقمت معهن ! إنهن مسكينات يقتلهن الغرور، وحياتهن فارغة ، وقد تعمدن أن يشبهن انفسهن ببعض الشخصيات المؤذية فيقصصي كي يعطين لانفسهن بعض الشهرة في الحلقات المحدودة التي يغشَينها •

واحياناً يختار الكاتب إنساناً عادياً ويخترع منه شخصية شريفة متزنة شجاعة ، وذلك لانه يرى فيه بعض المزايا التي لا يراها أقرانه ، وفي هـذه الحالة الشاذة لا يمكن التعرف على الشخصية الاصل ، ولكن حين يعرض الكاتب شخصاً ذا نقائص ومثالب مضحكة يسارع الناس الى تعيين اسم له ، مما اضطرني أن أستنتج أننا نعرف أصدقاءنا بعيوبهم لا بمزاياهم • والكاتب نادراً ما يرغب في إلحـاق الاذى ، فهو يستخدم كـل الوسائل لحمايـة الشخصيات الاصلية ، كأن يضع الشخصيات الفنية في أماكن مختلفة عـن الاصل ، ويعطيها وسائل اخرى للعيش ، وربما يغير من طبقتها الاصلية ، ومالا يسهل عليه هو تغيير مظهرها • ان الخصائص الجسدية للانسان تؤثر في شخصيته ، وبالمقابل يعبر مظهره عن شخصيته ضمن الخطوط العامة على الأقل ، وليس في وسعك أن تجعل الطويل قصيراً وتبقي له خصائصه النفسية السابقة ، إذ ان طول الرجل يسبب له نظرة خاصة الى بيئته وبالتالي يؤثر في شخصيته • وليس في وسعك ان تجعل السمراء شقراء لتمسح الآثار ، وما عليك إلا ان تبقي الاشخاص كما هم وإلا اضعت الخصائص النفسية التي دفعتك لاختيارهم دون غيرهم ، وليس لاحد حق في ان ينتقي شخصية في كتاب ويزعم انه المقصود بها ، وجلّ ما يستطيع قوله انه كان المادة التي اوحت بالشخصية ، وإذا كان فيه فضلة من عقل فلا بد ان يسر بذلك لا أن يتضايق منه ، وقد يوحي اليه إبـداع الكاتب وحدسه بأمور يحسن به أن يعرفها عن نفسه •



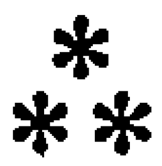
لا يخامرني أي وهم حول مكانتي الأدبية ، وفي بلدي لم يتجشم مشقة الحديث الجدي عني سوى ناقدين مهمين ، اما الشبان الاذكياء فلا يلقون بالا إلي حين يكتبون مقالات عن القصص المعاصر ، ولست احقد عليهم ، فذلك أمر طبيعي جداً . إنني لم امارس الدعاوة في حياتي الأدبية ، وقد ازداد جمهور القراء زيادة هائلة خلال السنوات الثلاثين الاخيرة ، ونشأت كتلة ضخمة من القراء الجاهلين الذين يبحثون عن معرفة تكتسب بأقل جهـد ، ويحسبون انهم يتعلمون شيئاً حين يقرؤون روايات تقدم فيها الشخصيات آراء حول موضوعات الساعة ، فإذا ما طعمت هذه الروايات ببعض المغامرات الغرامية هنا وهناك ، اصبح القراء اقدر على هضم ما يهيأ لهم من معلومات وآراء . لقد كانت الرواية تعد ميداناً صالحاً لعرض الافكار ، فرغب عـدد كبير من الروائيين ان ينظر اليهم كقادة للفكر وجاء إنتاجهم اقرب الى الصحافة منه الى فن القصص بما انطوى عليه من قيمة إخبارية ، وعيبه انه اصبح بعد برهة قصيرة غير مقروء ، كصحيفة الاسبوع الماضي تماماً ، على ان حاجة هذا الجمهور الكبير الجديد الى المعرفة ادت الى ظهور عدد من الكتب تعالج بلغة مبسطة الموضوعات ذات الفائدة العامة ، كالعلم ، والتربية ، والشؤون الاجتماعية ، وغير ذلك . ولاقت هذه الكتب نجاحاً كبيراً قضى على رواية الدعاوة . على ان هذا الطراز من الرواية حين يوجد فانه يقدم مادة للمناقشة أوفر مما تقدم رواية الشخصية او المغامرة .

وقد أخذ النقاد المثقفون وقراء الرواية الجديون يولون أكثر انتباههم الى الكتاب الذين يظهرون قدرة على تقديم جديد في الطرق الفنية ، وحق

لهم ذلك ما دامت التجديدات التي يقدمونها تعطي نوعا من النضارة للمـادة المستهلكة وتتيح مجالا خصبا للنقاش •

وقد بدا غريبا ان تلاقي هذه الأمور كل هذا الانتباه •• إن الطريقة التي ابتكرها هنري جيمس وبلغ بها درجة عالية من الإتقان ، والتي يروي فيها الكاتب قصته باحاسيس مراقب له دور ما في الاحداث ، كانت حيلة ذكية وفرت اللمسة المسرحية التي ينشدهـا القاص ، ونوعـاً من مشاكلة الواقع يعود الفضل فيه الى مؤلف تأثر كثيراً بالطبيعيين الفرنسيين ، ووسيلة للتغلب على بعض صعوبات الروائي الذي يتخذ موقف المحدث المطلع الحكيم، وما لا يعرفه هذا المراقب يمكن ان يتركه غامضا بشكل مناسب •• والطريقة على أي حال ، لا تختلف إلا قليلا عن قالب السيرة الذاتية التي تتمتع بمزايا كثيرة مشابهة ، ومن السخف ان نعدها اكتشافا جمالياً عظيماً • ومن بـين التجارب الاخرى التي ظهرت في فن الرواية استخدام تيار الفكر ، وقد أغرم الكتاب غالبا بالفلاسفة الذين ابدوا قيما انفعالية ، واتوا بفلسفة لا يصعب فهمها ، ولا سيما بشوبنهور فنيتشه فبرغسون ، وكان محتما ان يأسر التحليل النفسي خيالهم لانه يقدم امكانيات وفيرة للروائي الذي يعرف كم هـو مدين الى لاشعوره في خير ما يكتب ، وقد زين له أن يكتشف أعماقا نفسية جديدة في الشخصيات التي اخترعها ، وذلك بتصور خيالي لمـا يجري في لاشعورها ، ولقد كانت حيلة ماهرة مسلية لا أكثر ، وثبت انها تصبح مملة حين يتخذها الكتاب قاعدة لإنتاجهم بدلا من استخدامها بين حين وآخـر وسيلة لأغراض معينة تهكمية أو درامية أو إيضاحية • وأظن ان ما هو مفيد من هذه الطريقة وغيرها من الطرق سيدخل في التقنية العامة للقصة ، ولكن الآثار الادبية التي قدمت هذه الطرق ستفقد أهميتها سريعا • ويبدو ان اولئك الذين أخذوا بهذه التجارب العجيبة فاتهم ان المادة التي عولجت في مؤلفات من هذا النوع تافهة الى أقصى حد ، وكذلك يظهر ان المؤلفين عمدوا الى هذه الطرق بسبب شعورهم المتعب بفراغ نفوسهم •• إن الاشخاص الذين وصفوا

بكل هذه الحرارة ليس لهم قيمة ذاتية ، والموضوعات التي طرحت لم تكن ذات أهمية ، وهو أمر قد يكون متوقعا ، لأن الفنان يوجه كل ملكاته الى الصنعة الفنية حين يكون الموضوع ضئيل الاهمية عنـــده ، أما حين يشغف بالموضوع فإنه لا يجد وقتا للتفكير في المهارة الفنية لما يقدمه ، فكتاب القرن السابع عشر مثلا التفتوا الى الاساليب المتكلفة والتوريات بعد أن استنفدوا جهودهم العقلية في النهضة ، ومنعهم طغيـــان الملوك وسلطان الكنيسة من معالجة القضايا الكبرى في الحياة ، وقد يكون هـــذا الشغف الذي أظهره الكتاب أثناء السنوات الاخيرة بكل شكل من أشكال التجربة التقنية في الفن، مشيراً الى حقيقة واقعة هي ان حضارتنا في دور التبدد ، والموضوعات التي بدت ذات أهمية في القرن التاسع عشر تضاءل الإقبال عليها اليوم ، والفنانون لا يدركون حتى الآن ما هي القضايا الكبرى التي ستحمل الاجيال المقبلة على خلق الحضارة التي توشك أن تخلف حضارتنا ..



هكذا ، أرى من الطبيعي جدا أن لا يمنح عالم الادب أعمالي أهمية كبرى، ففي المسرحية لجأت الى القالب التقليدي ، وفي القصة أعود القهقرى عبر أجيال لاتحصى إلى مهمة راوي الحكايات حول النار في الأكواخ التي آوت انسان العصر الحجري • وقد كان عندي نوع من القصص وجدت لذة في روايته ، وهذا بالنسبة لي هدف كاف بذاته ، ولسوء حظي قوبل بعض قصصي أحيانا باحتقار المثقفين ، وقد قرأت عدداً كبيرا من الكتب التي تبحث في فن القصص ، وكلها تعزو قيمة ضئيلة الى العقدة (وبالمناسبة أود أن أقول إنني لا أستطيع أن أفهم هذا التمييز الدقيق الذي يقيمه بعض النظريين الاذكياء بين القصة والعقدة ، والعقدة ليست إلا النمط الذي تبنى عليه القصة) ، ومن تلك الكتب تنتهي الى ان تلبية الكاتب لمطالب الجمهور الغبية ليست إلا عائقا في وجه الكاتب الذكي ، ونوعا من الاستسلام ، وبالفعل قد تعتقد أحيانا ان أفضل الروائيين هو كاتب المقالة ، وان القصص القصيرة الوحيدة الكاملة كتبت بيد شارلز لامب وهازلت •

ولكن بهجة الإصغاء الى القصص شيء أساسي في الطبيعة البشرية ، كبهجة النظر الى الرقص والمحاكاة اللذين تنجت عنهما المسرحية • وهذه البهجة تبدو خالصة في الرواية الجنائية وأعظم المثقفين يقرؤونها ، مع التواضع طبعاً ، ولكنهم يقرؤونها ! ، ولماذا يقرؤونها ؟ أليس ذلك لأن الروايات النفسية والتحليلية والتعليمية التي تحظى وحدها برضى عقولهم عاجزة عن سد هذه الحاجة الخاصة في النفس ؟ إن هناك عدداً من الكتاب الاذكياء تعج رؤوسهم بأحسن ما يقال ، ولهم موهبة في خلق الأشخاص ، ولكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بالاشخاص بعد أن يخلقوهم ، إذ لا يستطيعون أن يبدعوا قصة بارعة ،

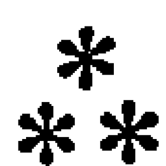
فيقلبون هذا النقص الى مزية كما يفعل كل الكتاب (وعند الكتاب دوما كمية معينة من الدجل) فإما أن يتركوا للقارىء أن يتخيل ما سوف يحدث ، وإما أن يؤنبوه لأنه يحب أن يعرف ذلك ، وهم يزعمون ان القصص في الحياة لا تتم ، والاوضاع ليست محكمة ، والنهاية تظل معلقة فضفاضة ، وهذا غير صحيح دائماً ، لأن الموت على الاقل ينهي كل قصة في الحياة ، وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإنه ليس حجة قوية •

فالروائي يدعي أنه فنان ، والفنان لا ينسخ الحياة ، ولكنه يكوّن منها كلاً منظما يلائم أغراضه •• وكما يفكر الرسام بريشته ويرسم ، كذلك يفكر الروائي بقصته وتتمثل فيها، كسلسلة من الأعمال الإنسانية، شخصيته ونظرته الى الحياة مع انه قد لا يكون واعياً لها • وحين تنظر الى الفن في الماضي فلن يفوتك أن تلاحظ ان الفنانين نادراً ما عزوا للواقعية قيمة كبيرة • واستعملوا الطبيعة بوجه عام زينة شكلية ، ولم يقدموا على نسخها مباشرة بين وقت وآخر إلا اذا شط بهم خيالهم عنها فشعروا ان العودة اليها ضرورية • وفي الرسم وفي النحت يمكن أن نحتج بأن الاقتراب الدقيق جدا من الواقع كان دائماً علامة انحطاط المدرسة الفنية ، ففي نحت (فيدياس) نرى مثلا بلادة أبولو بلفيدير ، وفي(معجزة رافائيل) في بلزانو نشهد سخف بوغورو ، وهذا يعني أن الفن لا يستطيع أن يكسب قوة جديدة إلا بفرض انسجام جديد على الطبيعة •

ولكن هذا الذي قلته كان بوحيٍ من المناسبة •

إن هناك رغبة طبيعية عند القارىء في معرفة ما يحدث للناس الذين تعلق بهم ، والعقدة هي الوسيلة التي تحقق مثل هذه الرغبة ، ومن الواضح ان اختراع القصة الجيدة عمل صعب ، ولكن صعوبتها سبب غير معقول لاحتقارها • إن القصة ينبغي أن توفر التماسك والاحتمال الملائم لمتطلبات الموضوع ، وينبغي أن تكون من طبيعة تكشف تطور الشخصيات ، وهذا هو

الهدف الاساسي للقصة المعاصرة ، وكذلك يجب أن تكون كاملة ، حتى إذا طويت عند الانتهاء منها ، لم تكن هناك حاجة لأسئلة حول الاشخاص الذين اشتركوا فيها ، ويجب أن تقسم الى مقدمة وعرض وخاتمة على نحو مأساة ارسطو • ومعظم الناس لا يدركون الفائدة الاساسية من العقدة التي هي خط لتوجيه اهتمام القارىء ولعلها أهم ما في القصص ، لأن المؤلف بفضل توجيه الاهتمام يستطيع أن يقود القارىء من صفحة الى صفحة ، وأن يبث فيه الحالة النفسية المنشودة • والمؤلف يعبىء قواه دائماً ولكنه ينبغي أن لا يدع القارىء يشعر بذلك ، وأن يشغله ويصرف أنظاره الى العقدة التي يحوكها بإحكام •• ولست أكتب الآن بحثا فنيا عن الرواية ، ولذلك لا حاجة بي الى تعداد الحيل المختلفة التي تعين الكاتب على تحقيق هذا الهدف •• وأظهر ما ترى جدوى توجيه الاهتمام ، وخطر إهماله ، في القصتين التاليتين : (عقل وعاطفة Sense and Sensibility) و (التربية العاطفية L'Education Sentimentale) ، ففي الاولى تقود جين أوستن القــارىء مع خط القصة البسيطة ، فلا يقف ليفكر في ان إيلينور لصة ، وماريان حمقاء ، والرجال الثلاثة دمى لا حياة فيهم • اما فلوبير ، في سعيه الى موضوعية حاسمة ، فإنه يخفق في توجيه اهتمام القارىء ، حتى يجعله غير مبال بمصير الشخصيات المختلفة ، وهذا يجعل قراءة الرواية صعبة جداً ، ولست أظن ان هناك رواية توازيها في كثرة المزايا وفي ضآلة تأثيرها في النفس •



في العقد الثالث من عمري قال النقاد إنني فظ ، وفي الرابع قالوا إنني طائش ، وفي الخامس قالوا إنني جـامد ، وفي السادس قالوا إنني كفء ، والآن في العقد السابع يقولون إني سطحي .. لقد شققت طريقي الخاص واتبعت الخط الذي رسمته لنفسي وحاولت في مؤلفاتي ان احقق النمط الذي صبوت له ، واعتقد ان المؤلفين الـذين لا يقرؤون النقد تنقصهم الحكمة ، ويحسن بالمرء أن يدرب نفسه على عـدم التأثر بالذم أكثر مما يتأثر بالمدح لأنه يسهل بالطبع أن يهز المرء كتفيه استخفافاً إذا وصف بأنه عبقري ، ولكن ليس من السهل عليه أن يغضي عن ذلك حين يعامل معاملة الضعيف الفاشل . وتاريخ النقد يُظهر أن النقد المعاصر قابل للوقوع في الخطأ ، وجميل ان يقرر الكاتب الى أي حد يأخذ بوجهة نظر النقد والى أي حد يهمله ، وهي نقطة اشتد الخلاف حولها حتى أصبح يصعب على المؤلف نفسه أن ينتهي الى أي قرار حول مزاياه . وفي إنكلترا ميل طبيعي لاحتقار الرواية ، وبينما تنال سيرة سياسي بارز أو حياة أحد رجال البلاط مواقف نقدية جدية فان نصف دزينة من الروايات تراجع بالجملة من قبل ناقد لا يهمه في أغلب الاحوال إلا تسلية القراء على حسابها ، وتأويل ذلك ببساطة هو ان الانكليز شغوفون بالاعمال التي تعطي المعلومات ، أكثر من شغفهم بالاعمال الفنية ، وفي هذه الحالة يصعب على الروائي أن يستخلص من نقد إنتاجه ما يفيده في تطوير فنه .

ومن سوء حظ الآداب الانكليزية اننا لم نحظ في هذا القرن بناقد من مرتبة سانت بوف أو مثيو آرنولد مثلا ؛ أو حتى برونتيير ، وصحيح ان مثل هذا الناقد ما كان ليشغل نفسه كثيراً بالادب الحديث ، وإذا حق لي أن أحكم في ضوء ما فعله هؤلاء النقاد الثلاثة أقول إنه لو عني بالادب الحديث فلن

يقدم خدمة مباشرة للكتاب المعاصرين •• ان سانت بوف - كما نعلم - لم يستطع ان ينصف معاصريه لانه كان يحسد أشكالا من النجاح طالما صبا إليها واخفق في احرازها •• وكان دوق مثيو آرنولد شديد الانحراف في معالجة معاصريه من الكتّاب الفرنسيين ، وليس من سبب يجعلنا نفترض أن معالجته للكتاب الإنكليز ــ لو حدثت ــ يمكن أن تكون أفضل •• أما برونتيير فكان ينقصه الاعتدال ، وقد حكم على النقاد بمقاييس قاسية متسرعة وعجز عن تقدير الكتّاب الذين رموا الى اهداف لاتنال عطفه ، وأعطته قوة شخصيته من التأثير أكثر مما تسمح به موهبته • ولكن الكتّاب ، بصرف النظر عن كل شيء ، يستفيدون من الناقد الذي يقبل على الأدب بجد ، حتى لو نقموا عليه ، فقد يقودهم عداؤهم الى تحديد أوضح لاهدافهم لانه يثير فيهم إحساسا بضرورة بذل مزيد من الجهد الواعي ويتخذون منه عبرة ، فينظرون الى الفن نظرة جدية عميقة •

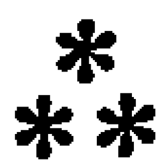
وقد حاول افلاطون في إحدى محاوراته أن يظهر استحالة النقد ، ولكنه في الحقيقة لم يكشف إلا عن الإفراط الذي يمكن أن تؤدي اليه أحيانا طريقة سقراط • وهناك نوع واحد من النقد ، واضح عقمه ، وذلك هو النقد الذي يكتبه الناقد تعويضا عن إهانات لحقته في مطلع شبابه ، وبذلك يعطيه النقد فرصة لاستعادة تقديره لنفسه ، لانه كان في المدرسة عاجزا عن التكيف مع ذلك العالم الضيق ، وتعرض للضرب والرفس ، فإذا به يعمد الى الضرب والرفس بدوره حتى يهدىء مشاعره الجريحة ، وما يعنيه هو موقفه النفسي من العمل الذي ينقده ، لا قيمة العمل الحقيقية بالنسبة له •

إننا الآن نحتاج أكثر من أي وقت مضى الى ناقد ذي سلطان ، لانالفنون اليوم اختلط حابلها بنابلها ، فمن ملحنين يؤلفون القصص ، الى رسامين يتفلسفون ، الى روائيين يتشدقون بالمواعظ ، الى ناثرين يحاولون أن يفرضوا على النثر جرس الشعر •• إننا في أمسّ الحاجة الى شخص يحدد من جديد الصفات المميزة للفنون المختلفة ، ويفهم الضالين ان محاولاتهم لن تقودهم الا

الى الفوضى النفسية ، ومن الإسراف ان تتوقع ظهور شخص يستطيع أن يتكلم في جميع الفنون بجدارة متساوية ، ولكن ، مادام العرض على قدر الطلب ، يظل الامل يخامرنا بأن يعتلي ناقد عظيم في يوم ما ، السدة التي استوى فوقها يوماً سانت بوف ومثيو آرنولد ، ولعله يقدر ان يفعل الكثير • وقد قرأت مؤخراً كتابين أو ثلاثة تدعو الى انشاء علم للنقد دقيق ، ولم اقتنع بامكان تحقيق هذا الطلب ، لان النقد في رأيي مسألة شخصية ، ولكنني لا أعترض اذا كان الناقد ذا شخصية قوية • انه من الخطر أن يعد الناقد عمله خلاقاً ، لان وظيفته الإرشاد والتشجيع والتوجيه نحو آفاق للخلق جديدة ، ولكنه اذا عد نفسه خلاقاً فسوف يشغل بالخلق ، وهو أبعد غوراً من كل الفعاليات الإنسانية ، وبذلك يغفل عن وظيفته الاساسية • وربما كان خيراً له لو كتب قصيدة أو رواية أو تمثيلية ، لانه بهذه الطريقة دون سواها يمكن أن يتقن التقنية الادبية ، وليس له أن يعد نفسه ناقداً كبيراً مالم يقتنع بان الخلق لا يدخل في مهمته ، ومن بين الاسباب التي تجعل النقد الحديث غير مجد ، كونه يأتي كقضية جانبية عند الكتاب الخلاقين الذين يعتقدون ان العمل الذي يقومون به هو أفضل مايجدر بهم أن يفعلوه وهذا أمر طبيعي • والناقد العظيم يجب أن تكون عاطفته شاملة بقدر معرفته ، مبنية على أساس من الشعور الحي بالتمييز بين الحسن والسيء ، لا على أساس من الحياد الذي يجعل الناس متسامحين في القضايا التي لاتعنيهم ، وعليه ان يكون عالما نفسيا وعالما عضويا (فيزيولوجيا) لانه يجب أن يدرك الصلة بين العناصر الرئيسية في الادب ، وبين عقول الناس واجسادهم ، وعليه ان يكون فيلسوفا لأنه يتعلم من الفلسفة (الوداعة) والإنصاف، وشدة تغير الأشياء الإنسانية ، ويجب أن لاتقتصر معرفته على أدب بلاده ومقاييسه المبنية على أدب الماضي •• انه بواسطة اطلاعه على الادب المعاصر في الاقطار الاخرى يستطيع ان يرى بوضوح المنحى الذي يتجه اليه الادب ، وبذلك يصبح في وسعه أن يوجه أدب مواطنيه توجيها مثمرا • وعليه ايضا ان ينهل من التراث لان التراث هو

تعبير عن الامزجة العقلية الحتمية في ادب الامة ، ولكنه يجب ان يبذل جهده ليطور هذا التراث في الاتجاه الطبيعي لان التراث مرشد لاسجان • وينبغي ان يتحلى الناقد بالصبر والثبات والحماسة • وكل كتاب يقرؤه إنما هـــو مغامرة عنيفة يجب ان يحكم عليها بعمق معرفته وقوة شخصيته ، وهكذا يكون الناقد العظيم رجلا عظيما الى حد انه يعترف ، بثبات متفائل ، بأن عمله ، على اهميته ، لا يمكن ان ينال سوى قيمة وقتية ، لان مزيته تكمن في استجابته لحاجات جيله وإرشاده الى الطريق ، وبعد ذلك ينشأ جيل جديد بحاجات جديدة وتمتد أمامه طريق جديدة ، فلا يبقى للناقد ما يقوله ، ويلقى مع مؤلفاته تحت ستار من الغبار •

ولن يقدم امرؤ على تكريس حياته لينتهي على هذا النحو ، إلا إذا أيقن ان الادب مرفق من اهم مرافق الحياة الإنسانية •



تلك دعوى طالما ردّدها المؤلف ، وأضاف إليها دعوى ثانية حين أكد : « انه ليس كالآخرين ، وبالتالي لايخضع لقوانينهم » • وقد قابل الآخرون هذا المطلب بالاشمئزاز والهزء والاحتقار ، وقابلهم هو بأساليب مختلفة وفقا لمزاجه العقلي ، وأحيانا كان ينزه رأيه عما ود ان يسميه القطيع العامي بشذوذ مقصود ، او لكي يصدع البرجوازية تجلى في وشاح تيوفيل غوتييه الاحمر، او قاد ، كما فعل جيرار دونيرفال ، عبر الشارع سرطانا مربوطا بشريط أحمر، وأحيانا وجد متعة تهكمية في التظاهر بأنه كأي إنسان آخر ، أو كما فعل براوننغ ، ألبس الشاعر الكامن في نفسه ثوب ثري صاحب مصرف • وربما نكون جميعا حزمة من النفوس تتبادل التناقضات ، ولكن الكاتب ، الفنان ، هو الذي يدرك ذلك إدراكا عميقا • والحياة التي يعيشها الآخرون تبرز فيهم جانبا معيناً يطغى ويطغى حتى يصبح الرجل كله ، وربما باستثناء أعماق اللاشعور ، ولكن الرسام والكاتب والقديسماينفكون يتعمقون ذواتهم بحثا عن وجوه جديدة ، ويملون تكرار انفسهم ، ويجهدون — دون أن يعلموا ذلك أحيانا — لئلا يصبحوا ذوي جانب واحد ، ولذلك لا يتاح للفنان أن ينمو مخلوقا متماسكا مستقر النفس •

ويثور الآخرون عادة حين يكتشفون الهوة بين حياة الفنان وعمله ، ولا يقدرون مثلا أن يوفقوا بين مثالية بيتهوفن ودناءة نفسه ، وبين إشراق فاغنر العلوي وانانيته وغدره ، وبين انحراف سيرفانتس الاخلاقي ورقته وسماحته ، وهم يميلون أحيانا إلى إقناع نفوسهم ، في فورة سخطهم ، بأن إنتاج أمثال هؤلاء الرجال لايمكن ان يكون في المستوى الذي كانوا يظنونه ، وحين

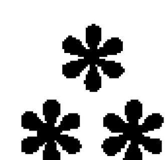
يقال لهم ان الشعراء العظام الخلص خلفوا وراءهم مجموعة كبرى من الاشعار البذيئة ، يدب فيهم الرعب وينقمون على مايظنون انه خداع ، ويقولون : ما أشد نفاق هؤلاء الناس •

ولكن مشكلة الكاتب انه ليس رجلا واحدا بل عدة رجال ، ولانه عدة رجال ، فهو يستطيع ان يخلق العديد من الناس ، ومقياس عظمته هو عدد النفوس التي يصممها • وحينما يبدع شخصية لاتحمل عبء الحياة فإنك تستنتج ان نفسه خالية من تلك الشخصية مما دفعه لان يعتمد على الملاحظة فوصف فقط ، ولم يخلق •• إن شعور الكاتب داخلي لا خارجي ، وهو ليس تعاطفا من ذلك النوع الذي يؤدي غالبا الى الرقة ، بل هو كما يقول علماء النفس « إضفاء عاطفي » • وقد تمثل ذلك في شكسبير بدرجة عظيمة جدا ، فإذا هو أكثر الكتاب خلوداً وأقلهم عاطفية •• واعتقد ان غوته اول كاتب وعى هذا العدد في الشخصية الواحدة ، فاضطربت حياته كلها إثر ذلك ، وكان دوماً يقارن بين غوته الكاتب ، وغوته الرجل ، ولم ينته الى حل لهذا التباين • وغاية الفنان تختلف عن غاية غيره من الناس ، لان غايته هي الإنتاج الفني ، وغاية غيره هي العمل المباشر ، وبذلك يكون موقف الفنان تجاه الحياة خاصاً جداً ، ويقول علماء النفس ان الصورة عند الرجل العادي أقل حيوية من الإحساس ، وهي تجربة مصغرة عن الواقع وظيفتها ان تعطي معلومات عن الموضوعات التي تسهد فيها الحواس ، وان ترشد الى العمل في عالم الحس ، اما عند الفنان فأحلام اليقظة تسد حاجاته العاطفية وتحقق الرغبات التي خابت في دنيا العمل ، ولكنها ظلال شاحبة للحياة الواقعية تجعل الفنان يحس دائما في قرارة ذهنه بأن متطلبات عالم الحس تحتاج الى كفايات من نوع آخر ، على ان لأحلام اليقظة عنده حيوية مثل حيوية الإحساس ، وهذه الاحلام تمثل في نفسه عالما حسيا ممزوجا بالظلال ، وهو لاينفذ الى هذا العالم إلا بالعزم الصادق ، وليست القصور التي يبنيها الفنان في إسبانيا بغير أساس ، بل هي قلاع واقعية يقيم فيها •

إن انانية الفنان هائجة ، وكذلك ينبغي أن تكون ، فهو بالطبيعة متركز حول ذاته وما وُجد العالم إلا من أجله ، إلا ليتيح له ممارسة قواه الخلاقة . وهو يشرك الحياة في جزء من نفسه فقط ولا يشعر أبدا بالانفعالات المشتركة بين الناس بكل وجوده ، ومهما تكن الضرورة ملحة لذلك ، فانه يغشى الحياة مراقبا بمقدار ما يغشاها فاعلاً فيها ، حتى ليبدو أغلب الاحيان بلا قلب ، ومن اجل هذا تظل النساء ، بإحساسهن الخفي ، على حذر منه ، يتعلقن به ويشعرن بغريزتهن ان لا سبيل الى تحقيق رغبتهن في السيطرة الكاملة عليه لانهن يعرفن انه لا بد من ان يتملص بطريقة ما من هذه السيطرة . ألم يخبرنا غوته ، ذلك المحب العظيم ، كيف كان ينظم الاشعار بين ذراعي حبيبته ويوقع بأصابعه نغمات العروض على ردفيها البارزين ؟ ان الحياة مع الفنان مدعاة للمرض ، لانه يستطيع ان يخلص إخلاصا كاملا بانفعاله الخلاق ، ومع ذلك يظل في داخله انسان آخر في مقدوره ان يقابل هذا العمل بإيماءة ساخرة ، إنه شخص لايعتمد عليه .

ولكن الآلهة لا تمنح موهبة الا وتشفعها بنقيصة ، وتركيب الفنان المتضارب الذي يمكنه من أن يخلق الانام كالآلهة ، يمنعه من بلوغ الحقيقة الكاملة في خلقهم . ان الواقعية نسبية ، واشد الكتاب واقعية يزيف مخلوقاته حسب اتجاه اهتمامه ، انه يراهم بعينيه فقط ، ويجعلهم أشد وعيا لذواتهم مما هم عليه في الواقع ، وأكثر تفكيرا وأشد تعقيدا . وهو يطرح ذاته فيهم محاولا ان يجعلهم اناسا عاديين ولكنه لاينال أبدا النجاح التام ، لان الخاصية التي تمنحه الموهبة ، وتصنع منه كاتبا ، تمنعه من أن يعرف ماهو الرجل العادي بالضبط ؟ ان ما ينجزه ليس الحقيقة ، بل هو تركيب جديد من خلال شخصيته ، وكلما كانت موهبته أعظم كانت فرديته أقوى وكانت الصورة التي يرسمها للحياة أروع فتنة ، وقد خطر لي أحيانا ان الاجيال المقبلة ، إذا أحبت أن تعرف كيف كان عالمنا ، لا يصح أن تعود إلى أولئك الكتاب الذين سيطروا على المعاصرين بمزاجهم العقلي الخاص ، وانما يحسن أن تعود

الى الكتاب المتواضعين الذين أتاح لهم التصاقهم بالعادي أن يصفوا ماحولهم بإخلاص أشد . ولا اذكرهم لان الناس لايحبون ان يوصموا بأنهممتوسطون حتى لو تأكدوا من تقدير الاجيال المقبلة لهم ، على انني يمكن ان أُقر بأن المرء يحس في روايات أنتوني ترولوب بصورة للحياة أصدق مما يحس به في روايات تشارلز ديكنز .



على الكاتب أن يسأل نفسه أحيانا : هل لإنتاجه أية قيمة عند سواه ، وربما يكون السؤال ملحا في هذه الايام إذ يبدو العالم ، على الاقل عندنا نحن الذين نعيش فيه ، في حالة من عدم الاستقرار والبؤس لم يشهد لها مثيلا من قبل . ولهذا السؤال وقع خاص عندي لانني لم ارغب قط في ان أكون كاتباً وكفى ، بل أحببت ان اعيش حياتي كاملة ، وما برحت أشعر شعورا مقلقاً بأن واجبي المشاركة في الاعمال المتعلقة بالصالح العام ، مهما كانت المشاركة ضئيلة ، وقد آنست في نفسي ميلا طبيعيا الى الابتعاد عن كل نوع من أنواع النشاط العام ، وما اشتركت في بعض اللجان التي شكلت من أجل تحقيق أهداف اجتماعية عابرة إلاّ مكرهاً مضطراً ، لأنني كنت أعتقد ان الحياة — على طولها — لا تعطي المدى الكافي لتعلم الكتابة الجيدة، فلم أرغب في إعطاء الفعاليات الأخرى جزءا من وقتي الذي احتاج إليه لكي احقق الهدف الذي رسمته لنفسي ، ولم اتوصل الى اقناع نفسي بأن تهتم لأي شيء سواه . ولكن حين يعيش ملايين الناس على شفا المجاعة ، وحين تنتهك الحرية وتموت في اجزاء كثيرة من الكرة المسكونة ، وحين تتلو الحرب الرهيبة سنوات تظل السعادة خلالها بعيدة المنال عن الكتل البشرية الهائلة ، وحين يدب اليأس في الناس لانهم لا يستطيعون ان يروا أية قيمة في الحياة بعد أن تبين ان الآمال التي ساعدتهم على احتمال بؤسها طوال القرون المتعاقبة تكشفت عن وهم خادع .. في مثل هذه الظروف لا يستطيع المرء إلا أن يسائل نفسه : اليس ما اكتبه من تمثيليات وقصص وروايات سوى عقم لا طائل تحته ؟ والجواب الوحيد الذي يحضرني الآن هو ان بعضنا خلقوا هكذا ، وليس في وسعنا ان نفعل شيئا آخر ، ونحن

لا نكتب ما نكتبه مختارين بل مجبرين ، وفي الحياة أشياء ينبغي ان تؤدى قبل غيرها : علينا ان نحرر نفوسنا من عبء الخلق • وعلينا ان تتابع المسير ولا نبالي بروما التي تحترق ، وقد يحتقرنا الآخرون لأننا لانعينهم على حمل سطل الماء ، وليس الأمر في يدنا ، إننا لا نعرف كيف نحمل السطل ، ثم إن لهيب الإلهام يعصف بنا ويثقل رؤوسنا بالعبارات •

ومن وقت لآخر ، انخرط بعض الكتاب في السياسة فكان تأثيرها فيهم مؤذيا ولم ألاحظ انهم كانوا ذوي شأن في تسيير الامور ، ولا أستثني من ذلك سوى « دزرائيلي » ، ولكن في حالته يمكن ان تقول إن الكتابة لم تكن غاية في ذاتها ، بل وسيلة للخطوات السياسية • وفي الوقت الحاضر الذي تبنى فيه الحياة على الاختصاص ارى انه من الأفضل لكل امرىء ان يلتزم حدود اختصاصه •

وبعد ان سمعت ان « درايدن » تعلم كتابة الانكليزية من دراسته لـ (تلوتسون) قرأت صفحات معينة لهذا المؤلف وعثرت على مقطع اعتبره عزاء لي في هذا الصدد ، يقول المؤلف : (علينا أن نسر لأن أولئك الذين يصلحون للحكم يقبلون احتمال هذا العبء حين يدعون اليه •• نعم ، وعلينا ان نشكرهم كثيرا لانهم سيتعرضون للآلام وسيتذرعون بالصبر إذ يحكمون ويعيشون أمام عيون الناس • ان العالم سعيد لان فيه من يولد ويربى ليقبل الحكم الذي أصبح عند هؤلاء ، بسبب العادة ، سهلا أو على الاقل محتملا)•

والفائدة التي يجنيها الناس من حياة تتيح مجالا أكبر للتكريس والانعزال والتأمل ، هي أن نفوسهم لا تتشتت حول أمور متعددة ، وعقولهم وقلوبهم تتركز حول شيء واحد ، ورغائبهم بكل ما فيها من قوة ودفق تجري في تيار واحد ، وتتحد أفكارهم وجهودهم في تصميم واحد ، وغاية واحدة ، مما يجعل حياتهم كلا واحدا منسجما مع ذاته •

حذرت القارىء في مستهل الكتاب قائلاً : ان الشيء الوحيد الذي ربما كنت متأكداً منه هو انني لست متأكدا من أي شي آخر .. وقد حاولت ان ابسط أفكاري بالترتيب حول موضوعات مختلفة ، ولم أطلب من أي إنسان ان يقبلها ، وإذا راجعت ما كتبته وجدت انني بترت الكلام في مواضع عديدة على ماأظن ، لانني وجدته مملا مع أنه كان ينساب على قلمي انسيابا طبيعيا ، وعلى أي حال ينبغي ان يفهم انه ممثل لكل أوضاعي . والآن ، وقد وصلت الى هذا الجزء الأخير من كتابي ، أجد لزاماً عليّ أكثر من أي وقت مضى ان أكرر القول بأن ما افضي به ليس الا آرائي الخاصة تماما ، وقد تكون هذه الآراء سطحية ، وقد يكون في بعضها شيء من التناقض ، وليس من المحتمل ان تكون هذه الآراء ــ التي هي حصيلة أفكار ومشاعر ورغبات بنيت على أنواع شتى من التجارب العرضية ولونت بلون شخصي معين ــ متمشية مع الدقة المنطقية في نظرية إقليدس . وعندما كتبت عن المسرحية والقصة فقد كنت أكتب عن شيء خبرته بعض خبرة عملية ، ولكنني إذ اتعرض الآن لقضايا يعالجها الفلاسفة ، فان معرفتي لا تتعدى ما يستطيع تحصيله إنسان عاش عددا من السنين حياة دائبة منوعة . ان الحياة أيضا مدرسة فلسفية ، ولكنها اشبه بإحدى رياض الاطفال الحديثة التي يترك فيها الاطفال أحرارا في ابتكار وسائلهم الخاصة ، وفي العمل بالموضوعات التي تثير اهتمامهم دون غيرها ، فينصرف انتباههم الى كل ما يكون ذا معنى عندهم ، ولا يلتفتون الى مالا يعنيهم . وفي مختبرات علم النفس تــدرب الفئران على شق طريقها خلال متاهة ، وهكذا تتعلم بطريقة التجربة والخطأ ان تسلك الممر الذي يؤدي بها الى الطعام الذي تبحث عنه ، وانا أشبه ــ

حين ابحث في هذه القضايا التي تشغلني الآن ـ احد هذه الفئران في بحثها عن الممر السليم في المتاهة المعقدة ، ولكنني لا أعرف لمتاهتي مركزا أجد فيه ضالتي وكأنما كل الممرات مسدودة أمامي •

لقد عرفني بالفلسفة « كونو فيشر » الذي تابعت محاضراته في هيدلبرغ، وكانت له شهرة عظيمة ، وكان يلقي سلسلة دراسات عن شوبنهور في ذلك الشتاء ، واشتد الزحام عليها مما اضطر الناس الى التبكير في الانتظام في الصف أمام القاعة ، علهم يحصلون على مقعد جيد • وكان فيشر قصيرا ، مهيبا ، أنيقا ، نظيف الملابس ، مستدير الرأس ، أحمر الوجه ، له عينان براقتان وأنف ظريف افطس متجه إلى الأعلى ، كأنما اصابته لطمة فتحسبه ملاكما قديما من المتصارعين في سبيل الجوائز اكثر مما تظنه فيلسوفا ، وكان يملك روح الدعابة ، وقد كتب بالفعل كتابا عن سرعة البديهة قرأته في ذلك الوقت ونسيته الآن تماما •• وكنت تسمع بين حين وآخر دوي ضحكة ينفجر في القاعة على اثر نكتة يلقيها ، وكان صوته قويا وفي كلامه حيوية وسيطرة وإثارة • وكنت اصغر واجهل من ان أفهم كثيرا مما يقوله ، ولكنني خرجت بانطباع واضح جدا عن شخصية شوبنهور الاصلية الشاذة ، وشعور مضطرب بالقيمة الدرامية والطبيعة الإبداعية لإنتاجه، وإني لأتردد في الإدلاء بأي رأي بعد كل تلك السنوات العديدة ، وإن كنت اشعر ان (كونو فيشر) عامله كإنتاج أكثر مما عامله كإسهام جدي في ما وراء الطبيعة (الميتافيزياء) •

ومنذ ذلك الحين اقبلت على قراءة الفلسفة ووجدتها قراءة مجدية • وبالفعل وجدت الفلسفة ، من بين جميع الموضوعات التي تؤمن مادة مقروءة للذين يعدون المطالعة حاجة وبهجة ، اكثرها تنوعا واوفرها غنى ، وأشدها كفاية • إن اليونان القديمة لتهز المرء ، ولكنها من هذه الزاوية لا تزخر بالكثير ، فبعد وقت ما ، تكون قد قرأت القليل الذي تبقى من

انتاجها ، واهم ما كتب عن هذا الانتاج • والنهضة الإيطالية مدهشة ايضاً ولكن الموضوع فيها محدود نسبياً ، والافكار التي تحويها قليلة ، وفنهـا سرعان ما يسبب لك الإملال، لانه خلال مدة طويلة قد أفرغ من قيمته الخلاقة، فلا تجد فيه سوى الرشاقة والفتنة والتناسق ، ورجال هذه النهضة يسببون لك الضجر لان نشاطهم المنوع ينحصر في نمط مغرق في الشكلية ، ولك ان تستمر في القراءة حول النهضة الإيطالية إلى الأبـد ، ولكن شغفك بها يتوقف قبل ان تفرغ من مادتها • والثورة الفرنسية موضوع آخر قد يشغل الانتباه ، وله مميزة خاصة من حيث انه ذو دلالـة واقعية •• تلك الثورة قريبة منا زمنا ، وبشيء من إعمال الخيال نستطيع ان نضع انفسنا موضع الرجال الذين اسهموا فيها ، وهم تقريبا معاصرون لنا ، وما فعلوه وما فكروا فيه يؤثران في حياتنا الحاضرة ، ولا غرو فنحن جميعا من نسل الثورة الفرنسية ، إن مادتها غزيرة والوثائق المتعلقة بها لا تحصى ، وللآن لم يقل فيها القول الفصل ، فأنت واجد دوما كل جديد وطريف عنها ، ولكنها لا تسد حاجة النفس لان الفن والادب اللذين أنتجتهما مباشرة لا يستحقان الذكر ، فتجد نفسك مدفوعا الى دراسة حياة رجالها •• وكلما اتسع ما تقرؤه ازدادت خيبتك لما فيهم من صغار وسوقية •• إن الممثلين في هذه المسرحية العظمى من تاريخ العالم كانوا للأسف غير جديرين أبداً بأدوارهم حتى إنك لتشيح بوجهك اخيرا عن الموضوع وفي نفسك شيء من الاشمئزاز الخفي •

ولكن دراسات ما وراء الطبيعة (الميتافيزياء) لاتخذلك أبـداً لانك لا تستطيع ان تنتهي منها ، وهي متنوعة بقدر تنوع نفس الإنسان ، مفعمة بالعظمة لانها لا تعالج ما هو اقل من المعرفة الكلية • انها تبحث في الكون، وفي الإله ، والخلود •• في خواص العقل الإنساني ، ونهـاية الحياة ، وغرضها ، في قوة الإنسان ، ونواحي الضعف فيه •• وإذا كانت تعجز عن الإجابة على الأسئلة التي تواجه المرء في رحلته عبر هـذا العالم المظلم الغامض ، فإنها تقنعه بأن يشفع جهله بالمزاج المرح • انها تعلّم الاتزان وتّلحّ

على الشجاعة ، وتستهوي الخيال كما تستهوي العقل ، وأعتقد انها تمـد الهاوي ، أكثر بكثير مما تمد المحترف ، بمادة لذلك الشرود المبهج اللذيذ ، الذي يستطيع المرء بواسطته ان يغطي على خموله .

ومنذ ان بدأت ، بوحي من محاضرات (كونو فيشر) ، أقرأ لشوبنهاور أنجزت قراءة كمية جيدة من مؤلفات الفلاسفة الاتباعيين .. ومع انني لم أفهم كثيرا مما أوردوه إلا أنني كنت أقرؤهم بشغف وحماسة، والوحيد الذي ضايقني باستمرار هو (هيغل) ، والغلطة غلطتي بلا ريب ، لأن تأثيره في الفكر الفلسفي خلال القرن التاسع عشر دليل أهميته ، وقد وجدته طويل النفس ، ولم ارتح الى الاحتيال الذي كان يستعين به ليبرهن على ما يدور في خلده . ولعلي تحزبت ضده بتأثير شوبنهاور الذي كان يتحدث عنه باحتقار دوما ؛أما الفلاسفة الآخرون ، أفلاطون ومن تلاه ، فقد نعمت بصحبتهم في مثل متعة مسافر يقتحم بلادا مجهولة ، ولم أقرأهم قراءة مدقق ، وإنما قرأتهم كما أقرأ الرواية مستهدفا الإثارة والبهجة (وسبق أن اعترفت أنني أقرأ الرواية للمتعة لا للتوجيه وأستميح القارىء عفوا) .لما كنت تلميذا ذا شخصية ، وجدت لذة لا حد لها فيما كانت تتيحه لي هذه المؤلفات المتنوعة من توسيع لآفاق نفسي ، واكتشفت كل رجل من خلال فلسفته ، وكنت اسمو مع النبل الذي طغى على بعضهم واتسلى بالغرابة التي تبينتها عند بعض آخر ، وشعرت بانتعاش رائع اذ كنت اتتبع أفلوطين حائراً في هربه من الوحيد الى الوحيد ، واما (ديكارت) فقد ارتاحت نفسي الى اشراق عبارته مع انني عرفت منذ ذلك الحين انه خرج من مقدماته القوية بنتائج لا يقرها العقل ، ووجدت قراءته اشبه بالسباحة في بحيرة صافية الى درجة تمكنك من رؤية قعرها ، وكان ذلك الماء البلوري منعشا على نحـو عجيب . وأتت قراءتي الأولى لسبينوزا تجربة فريدة في حياتي ، إذ ملأتني بنفس ذلك الإحساس بالجلال وقوة النشوة اللذين يخامران الناظر الى سلسلة جميلة شاهقة .

وحين جئت للفلاسفة الإنكليز ، وجدت انهم مبدعون الى جانب كونهم فلاسفة ، وربما اقبلت عليهم وفي نفسي اثر من تحامل ، فقد أُلقي في روعي حين كنت في ألمانيا انهم لا يستحقون الذكر باستثناء « هيوم » ، وان يكن « كانت » قد انكر عليه أهميته .. وقد لا يكون الفلاسفة الإنكليز مفكرين مبدعين – وهذا امر ليس لي ان احكم عليه – ولكنهم ، بلا ريب ، رجال عجيبون جدا ، وقل من يقرأ (ليفياثان Leviathan)[1] لـ « هوبس » دون أن يؤخذ بشخصيته « الجونبولية »[2] الخشنة المستقيمة ، ما من أحد يقرأ (المحاورات Dialogues) لبركلي دون ان يأسره ذلك الأسقف المريح . ومع انه قد يكون صحيحا ان (كانت) سفه نظريات هيوم إلا أنه من المستحيل – في رأيي – كتابة الفلسفة بأسلوب يفضل اسلوب هيوم في الوضوح والحضرية والاناقة . إن الفلاسفة الإنكليز جميعا ، بما فيهم (لوك Locke) أيضا ، قد كتبوا مؤلفاتهم بلغة إنكليزية ، لا أردأ منها ولا أقل نفعاً بالنسبة لطالب يريد ان يدرس الاسلوب .

وقد درجت قبل ان ابدأ بكتابة رواية ما ان اعيد قراءة (كانديد Candide) كيما ازود نفسي بالحجر السحري الذي ضمن لها الوضوح والاناقة والبداهة الذكية ، ويخطر لي انه لن يضر الفلاسفة الانكليز المحدثين، قبل ان يشرعوا في التأليف ، ان يخضعوا انفسهم الى إعادة قراءة كتاب هيوم (تساؤل في الفهم الإنساني) ، لان كتابتهم ليست ذات وضوح مطرد ،وربما كانت افكارهم اليوم ادق من افكار سابقيهم بكثير ، مما يضطرهم الى مفردات فنية من اختراعهم ، ولكنها عملية خطرة، وحين يعالجون قضايا تهمّ أي قارىء

---

(١) كلمة الليفياثان ، وتعني الوحش الاسطوري الذي يشبه التنين ، هي عنوان الكتاب الذي وضعه المفكر الانكليزي « هوبس » حول علاقة الفرد بالدولة، مبينا كيف ان السلطة تهيمن على مجموع الامة ، مثلما يبتلع « الليفياثان » كافة أسماك البحر . (المعرب)

(٢) نسبة الي (جون بول) وهي كلمة ترمز الى الرجل الانكليزي . (المعرب)

مفكر فاننا لا نجد بدا من إبداء الاسف لأنهم لا يستطيعون أن يضعوا معانيهم فى العبارة الواضحة التي يفهمها كل قارىء •• وقـد قيل لي إن الأستاذ (وايتهد) أذكى وأوسع عقلا من أي مشتغل بالفكر الفلسفي في هذه الأيام ، ولكنني أقول أسفاً : ياليته يكلف نفسه دوما مشقة وضع معناه في العبارة الواضحة ، وما أحسن القاعدة التي سار عليها « سبينوزا » في الدلالة على طبيعة الاشياء بألفاظ لا يتناقض معناها المعتاد عامة مع المعاني التي رغب ان يضفيها على هذه الالفاظ •

*
**

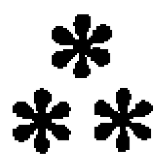
لا أرى سبباً ما يمنع الفلاسفة من ان يكونوا ادباء ، ولكن الكتابة الجيدة لا تتأتى بالغريزة وانما هي فن يتطلب دراسة مجدة ، والفيلسوف لا يخاطب زملاءه من الفلاسفة وطلابه المشتغلين في الدراسات العليا بل يخاطب كذلك الادباء والسياسيين والمفكرين ، وهم الذين يشكلون مباشرة افكار الجيل القادم ، وتستهويهم عادة الفلسفة الجذابة التي لا يصعب تمثلها ، وهذا طبيعي • ولكننا نعلم كيف سادت فلسفة نيتشه بعض أجزاء العالم ، وقليلون منا يصرّون على أن تأثيرها لم يكن هدّاماً ، وأنها لم تسيطر بسبب ما قد يكون فيها من عمق فكري ، ولكن بأسلوبها الحي وقالبها المؤثر ، والفيلسوف الذي لا يكلف نفسه مشقة إيضاح افكاره للناس يدل على انه يعتقد ان افكاره ليس لها من قيمة سوى القيمة الأكاديمية •

وكان عزاء لي ، على أي حال ، ان اكتشف ان الفلاسفة المحترفين أحيانا لا يفهم بعضهم بعضا ، ويعترف برادلي مرارا انه لايفهم مايعنيه مناقشه ، وصرح الاستاذ (وايتهيد) في أحد المواضع انه لا يستطيع ان يستوعب ما يقوله برادلي • وحين لا يستطيع ابرز الفلاسفة ان يفهموا ما يقولهزملاؤهم، فالرجل العادي معذور إذا لم يفهمهم غالبا •• ان فلسفة ما وراء الطبيعة (الميتافيزياء) صعبة بالطبع وعلينا ان نتوقع ذلك ، والرجل العادي يقرؤها وكانه يمشي على حبل مشدود دون عمود يساعده على ضبط توازنه ،ويسعده لو استطاع ان يزحف زحفا حتى يبلغ مأمنه ، فالغنيمة مثيرة حقا وتستحق المجازفة بسقطة •

ولم اقتنع بما يدعيه بعضهم هنا وهناك من ان الفلسفة ميدان الرياضيين الكبار •

ومع انني وجدت من الصعب ان اصدق ان المعرفة مادامت ، كما تقول نظرية التطور ، قد نشأت لاسباب عملية خلال النضال من اجل البقاء ، لايمكن ان يسهم في جوهرها الضروري للوجود الانساني عامة الا نخبة من الرجال حبتهم الطبيعة بمواهب نادرة ، مع ذلك كنت خليقا ان اتوقف عن متابعة دراساتي الممتعة في هذا الصدد ، لان رأسي لا يتحمل الرياضيات ، لولا انني لحسن الحظ وقعت على اعتراف لبرادلي بانه لايعرف إلا قليلا من هذا العلم المعقد • وبرادلي ليس فيلسوفا بسيطا •• ونحن نعلم ان حاسة الذوق تختلف من شخص لآخر ، ولولاها لفني الإنسان ، ويبدو من غير المقبول ان لاتستطيع التفكير بنظريات معقولة عن الكون ومكان الإنسان فيه ، وعن سر الشرومعنى الحقيقة ، ما لم تكن عالما رياضيا فيزيائياً ، تماما كما لو كنت لاتستطيع الاستمتاع بزجاجة النبيذ ما لم يكن لديك الذوق العريق الذي تستطيع معه ، دون ارتكاب خطأ ، أن تعين أعمار عشرين زجاجة مختلفة من النبيذ •فالفلسفة ليست موضوعاً محصوراً بالفلاسفة والرياضيين ، بل هي موضوع يخصنا جميعاً ؛ وصحيح ان معظم الناس يتبنون آراءهم في القضايا التي تعالجها الفلسفة بالتقليد لا بالأصالة ، ولا يعرفون ان لهم فلسفة أصلا ، وان كانت الفلسفة كامنة حتى عند الذين لا يفكرون •• إن المرأة العجوز التي كانت أول من قال : لا فائدة من البكاء على اللبن المكبوب ، إنما هي فيلسوفة على طريقتها الخاصة ، لانها لم تعنِ بذلك سوى أن الندم لا يفيد وهي فكرة فلسفية • إن الفيلسوف « الجبري » يعتقد انك لا تستطيع أن تخطو خطوة في الحياة إلا أن تكون مدفوعا بما أنت عليه في اللحظة الحاضرة ، وبأنك لست عضلات وأعصاباً وأمعاء ودماغاً فقط ولكنكأيضاً عادات وآراء وأفكار، ومهما يكن شعورك بها ضئيلا ، ومهما تبدُ متناقضة وغير معقولة ولا محايدة ، فهي موجودة دوماً وقائمة على تسيير أفعالك وردود أفعالك ، وهي تكون فلسفتك في الحياة حتى لو لم تضعها أبدا في كلمات • وربما كان من الخير أن تظل فلسفات الناس كامنة مائعة على هذا النحو • لان معظمهم لا يكادون

يملكون أفكاراً ، او أفكارا واعية على الاقل ، وكل ماعندهم نوع من الشعور الغامض ، نوع من التجربة يشبه الحس العضلي الذي اكتشفه علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) منذ أمد قريب ، وهذا الشعور يستقيه الناس عادة من الآراء الدارجة في المجتمع الذي يعيشون فيه ، وقد يدخلون عليها تعديلا طفيفاً بتأثير تجاربهم الخاصة ، وهكذا تمضي حياتهم مكتفية بهذه المجموعة المختلطة من الافكار والمشاعر التي تفي بحاجات الحياة العادية لأنها تحتوي شيئاً من حكمة العصور الغابرة • ولكنني حاولت ان اضع لنفسي نظاماً فكريا خاصاً وعملت منذ اوائل ايامي على البحث عن العناصر التي تؤدي الى هذه الغاية ، وأحببت أن أحصل على أقصى ما استطيع من المعرفة المتعلقة بالبنيان العام للكون ، واحببت ان اعلم هل علي ان احسب حساب الحياة الدنيا فقط ام الحياة الآخرة ؟ وهل أنا حر التصرف أم ان شعوري بالقدرة على تسيير حياتي وفق إرادتي ليس إلا وهماً ، واحببت ان اعلم هل للحياة أي معنى أم انني يجب أن اكافح لأعطيها معنى • وهكذا بدأت المطالعة ، والطريق ملتوٍ أمامي •



كان الدين أول موضوع استرعى انتباهي ، لانه بدا لي من الاهمية بمكان ان اقرر : هل العالم الذي أعيش فيه هو العالم الوحيد الذي أحسب حسابه أم علي ان اعتبره مجرد مكان للتجربة والتهيؤ لحياة اخرى مقبلة . وقد خصصت في روايتي (في الرباط الإنساني) فصلا لما آل اليه بطلي من فقد إيمانه ، وقرأت مسودة الطبع امرأة ذكية كانت تحبوني بعطفها وشغفها ، واخبرتني ان الفصل لم يكن وافياً ، فأعدت كتابته ، وما اظنني ادخلت عليه تحسينا ذا شأن لانه كان يصف تجربتي الخاصة ، وما أشك في ان الاسباب التي أوصلتني الى النتيجة التي انتهيت اليها لم تكن كافية .. إنها أسباب ولد جاهل .. اسباب تمت الى القلب أكثر مما تمت الى العقل ، فبعد ان مات أبواي أقمت مع عمي القس ، وقد بلغ الخمسين ولم ينجب اطفالاً ، وإني لعلى يقين ان رعاية ولد صغير ، تناط به فجأة ، لا بد من ان تكون مصدر إزعاج له . كان يقرأ الصلوات صباح مساء ، وكنا نذهب الى الكنيسة مرتين يوم الاحد الذي هو يوم عمل متواصل ، وكان عمي يقول إنه القس الوحيد الذي يعمل في أبرشيته سبعة أيام متوالية في الاسبوع ، وفي الحق كان عمي كسولاً بشكل لا يصدق ، يعتمد في عمله على الخوري والوكلاء ، وكنت سريع التأثر ، وتشربت الروح الدينية بقوة وتقبلت كل ما لقنته دون سؤال ، سواء في كنيسة عمي أو في المدرسة بعد ذلك .

على ان هناك أمراً أثر فيّ مباشرة ، اذ لم تطل اقامتي في المدرسة حتى اكتشفت نتيجة للضحك الذي كنت اتعرض له ، والإهانات التي كانت تلحق بي ، أن لعثمة لساني كانت مصاباً أليماً جداً ، وكنت قرأت في التوراة أنك تستطيع

ان تحرك الجبال بالإيمان ، واكد لي عمي انها حقيقة حرفية ، وفي الليالي دعوت الله بكل قوتي ان يزيل عاهتي وكان إيماني عظيما حتى إنني ذهبت الى النوم متأكداً تماماً انني سأتمكن من ان أتكلم كأي انسان آخر حين استفيق في الصباح . وتخيلت دهشة التلاميذ (وكان علي أن أذهب في الصباح الى المدرسة التحضيرية التي كنت طالباً فيها) حين يفاجأون بأنني تخلصت من لعثمة لساني . وأفقت في الصباح منتشياً ، وكانت صدمة حقيقية مرعبة ان اكتشفت ان لعثمتي لا تقل سوءاً عما كانت عليه من قبل .

وكبرت وذهبت الى (مدرسة الملك) وكان اساتذتها من رجال الدين ، أغبياء ، وسريعي الغضب ، فلم يصبروا على لعثمة لساني ، فإما ان يهملوني كلية وذلك ما كنت افضله ، وإما ان يحل عليّ غضبهم وكأنهم اعتقدوا ان اللعثمة ذنب ارتكبته .. ثم اكتشفت ان عمي كان انانياً لا يعنى بشيء سوى راحة نفسه ، وكان القساوسة المجاورون يقومون بزيارات الى النيابة الأسقفية، وقد حكمت احدهم محكمة المقاطعة بغرامة لأنه ترك بقراته تتضور جوعاً ، والثاني حرم من مرتبه لانه أدين بتهمة إدمان الخمر . وعلمني رجال الدين اننا نعيش في حضرة الله وان واجب الإنسان الاول هو تخليص نفسه ، ولم اتمالك نفسي إذ وجدت انه ما من احد منهم كان يمارس ما يعظ به ، وتضايقت بشدة - رغم حرارة إيماني وقتذاك - من الذهاب الى الكنيسة الذي كان يفرض عليّ في البيت وفي المدرسة ، ولما وصلت المانيا فرحت بالحرية التي خلصتني من هذا الجو ، ولكنني ذهبت مرة أو مرتين بدافع الفضول لحضور القداس الاحتفالي في الكنيسة اليسوعية في هيدلبرغ . اما عمي فلم يكن يشك في ان الكاثوليك سيستقرون في جهنم مع انه كان يعطف عليهم بشكل طبيعي (فقد كان ذا مكانة دينية مرموقة واعتادوا ان يخطّوا على جدار حديقته أثناء الانتخابات : هذه هي الطريق الى روما) . وكان يؤمن ضمناً بالعذاب الابدي ، ويكره المرتدين عن كنيسته ويستاء جداً لان الدولة تتسامح معهم ، وكان يعزي نفسه بأنهم سيحكمون بالعذاب

الابدي أيضاً ، أما السماء فكانت مخصصة للكنيسة الإنكليزية ، وقد حمدت ربي لانه أنعم علي بأن انشأ مع هذه الجماعة ، وكانت نشأة رائعة عوضتني عن كوني لم أولد إنكليزياً •

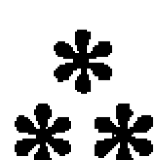
وحين ذهبت الى المانيا اكتشفت ان الألمان فخورون بكونهم المان بقدر مايفخر الإنكليز بكونهم إنكليز ، وكانوا يتحدثون عن الانكليز قاطبة بأنهم من اصحاب الحوانيت ، ولم يرتابوا أبداً انهم أعظم من الانكليز بكثير ، في الفن ، والعلم ، والفلسفة •• وقد صدمتني هذه الحقيقة في كنيسة هيدلبرغ ، ولاحظت ان التلاميذ الذين ازدحموا عند ابواب الكنيسة بدوا شديدي الايمان ، وبدت عليهم فعلاً جميع المظاهر التي تدل على انهم مؤمنون بدينهم بقدر ماكنت مؤمناً بديني ، وقد عجبت لذلك لانني لقنت طبعاً ان دينهم مزيف وديني صحيح •

واعتقد ان طبيعتي لم تسمح لشعوري الديني ان يكون قوياً ، أو لعلي في ريعان شبابي صدمت صدمة عنيفة بسبب ما رأيته من تناقض بين أصول الدين وسلوك رجال الدين الذين اتصلت بهم ، مما ادخل الشك الى نفسي ، وإلا فمن الصعب ان اصدق ان هذه الفكرة البسيطة التي خطرت لي في كنيسة هيدلبرغ كان لها مثل هذه النتائج المهمة في نفسي ، فقد غيرتني هذه الخاطرة كأنما ولدت في المانيا الجنوبية ونشأت بطبيعة الحال كاثوليكياً ، وشق علي أن أتعرض للعذاب الابدي دون ذنب ارتكبته ، وثارت نفسي لهذا الظلم ، وكانت الخطوة التالية سهلة ، وانتهيت الى أن معتقد المرء لايؤثر في مصيره قيد انملة ، والله لا يمكن ان يحكم على الناس لانهم اسبانيون او هوتنتيون[1] ، وكان من الممكن ان أتوقف عند هذا الحد ولو كنت أقل جهلاً لتبنيت أحد أشكال عبادة الله التي كانت دارجة في القرن الثامن عشر ، لكن المعتقدات التي غرست فيّ كانت تعمر صدري ، فإذا ما حاول أحدها أن

(١) الهوتنتيون : شعب عريق يسكن حول رأس الرجاء الصالح . (المعرب)

يبرز طغت عليه العناصر الاخرى ، واخيراً تهاوى ، كبيت من الورق ، ذلك البنيان المرعب الذي لم يستند الى محبة الله بل الى الخوف من جهنم •

وعلى أي حال ، كف عقلي عن الإيمان بالله ، وشعرت بنشوة حرية جديدة ، ولكننا لا نؤمن بعقولنا فقط ، وفي أعماق نفسي ظل يراودني الفزع القديم من جهنم ، وبقي انتصاري النفسي معكراً بشبح ذلك القلق الوراثي •• لقد كففت عن الإيمان بالله ومازلت في اعماقي أومن بالشيطان •



حاولت ان اتخلص من هذا الخوف حين صرت طالب طب ودخلت عالماً جديداً •• لقد قرأت عدداً ضخماً من الكتب وعلمت منها أن الانسان آلة تخضع لقوانين آلية ، وحين تتلف الآلة يبلغ الإنسان نهايته ، ورأيت النـاس يموتون في المستشفى وأكّدت° إحساساتي الفزعـة ماقرأته في الكتب ، واكتفيت بأن أومن بأن الدين وفكرة الإله اختراعان اختلقهما الجنس البشري لتسهيل سبل العيش ومثّلا في وقت من.الاوقات – ولعلي أقول حتى هذه الاوقات – قيمة من قيم بقاء الأنواع ، ولكن هذا الامر ينبغي أن يفسـر تفسيراً تاريخياً ، وهو لا يعني أي شيء واقعي • واعتبرت نفسي من الذين لا يؤمنون الا بالمحسوس ولكن ، في دمي وفي عظامي ، بقيت انظر الـى الإله كفرضية ينبغي ان يرفضها الإنسان العاقل • واذا لم يكن هناك إلـه يستطيع أن يلقيني طعماً للنيران الابدية ولم تكن هناك روح" يمكن أن تحكم بالتعرض لها ، وإذا كنت لعبـة قوى آلية ، وكان دافع الحيـاة هو القوة المسيطرة ، فكيف أستطيع أن أرى في الخير ذلك المعنى الذي لقنته فـي السابق ؟•• وبدأت اقرأ علم الاخلاق ، وخضت بضميري عدة مجلدات هائلة، وانتهيت الى ان الانسان لايستهدف سوى لذته ، وانه حين يضحي بنفسه للآخرين يتوهم انه يبحث عن شيء آخر سوى ارضاء نفسه ، ومادام المستقبل مجهولا فعلى المرء ان يتشبث بكل لذة يقدمها له حاضره ، وانتهيت الى ان الخير والشر من الاعراف التي وضعها الانسان لخدمة مآربه ، وليس للحر ان يراعيهما إلا ضمن النطاق الذي يلائم أغراضه • ووضعت ذلك كله في مايشبه (القول المأثور epigram) وكانت بي آنذاك ردة الى الأقوال المأثورة التي كانت طراز العصر ، وقلت في نفسي : « اتبـع ميولك وعين" لك على

الشرطي الواقف على الزاوية » •• وما أن بلغت الرابعة والعشرين حتى كانت لي فلسفتي الخاصة الكاملة التي استقرت على مبدأين : نسبية الاشياء، وظرفية الانسان ، وقد علمت فيما بعد ان الاول منهما لم يكن اكتشافاً بكراً، واما الثاني فربما كان عميقاً ولكنني مهما طالت بي الحياة ، فلن أتذكر ما كنت اعنيه ، مع انني لم اكتشفه إلا بكد الذهن •••

وفي إحدى المناسبات قرأت قصة استأثرت بلبّي ، وهي موجودة في أحد مجلدات أناتول فرانس (الحياة الادبية La Vie Littéraire) ، وقد مضت سنوات عديدة على عهدي بها وبقي منها في ذاكرتي مايلي : « ارتقى العرش مرة ملك شرقي شاب ، وكان تواقا الى ان يقيم العدل في الناس فأرسل الى حكماء القوم وامرهم ان يجمعوا حكمة العالم في كتب حتى يتمكن من الاطلاع عليها فيسلك سواء السبيل ، وانصرفوا ثم عادوا اليه بعد ثلاثين سنة مع قافلة من الجمال تحمل خمسة آلاف مجلد ، وقالوا له : لقد جمعنا هنا كل ما عرفته الحكماء عن التاريخ ومصير الانسان ولكن الملك كان منهمكاً في أمور الدولة لا يستطيع أن يقرأ كل تلك الكتب ، فأمرهم أن يختصروا هذه المعرفة في عدد من الكتب أصغر • وعادوا بعد خمس عشرة سنة وجمالهم تحمل خمسمئة كتاب فقط ، وقالوا : ايها الملك تجد في هذه الكتب كل ما في العالم من حكمة ، ولكن الكتب كانت كثيرة،واعاد الملك الحكماء ليختصروها ومرت السنون وعادوا بما لا يزيد عن خمسين كتاباً ، وكان الملك متعباً هرماً ولم يكن وقته يسمح بقراءة القليل من هذه الكتب فأمر الحكماء بأن يختصروا الكتب ويجمعوها في كتاب واحد يعطيه جوهر المعرفة الإنسانية حتى يعرف أخيراً ماينبغي ان يعرفه • وانصرفوا وتابعوا عملهم وعادوا بعد خمس سنوات وكانوا قد أسنّوا وهرموا ووضعوا نتيجة جهودهم في يد الملك ولكن الملك كان في ساعة الموت وليس في مقدوره أن يقرأ الكتاب الذي أحضروه » •

لقد كنت ابحث عن كتاب كهذا الكتاب ، يجيب دفعة واحدة عن جميع الاسئلة التي حيرتني حتى أسوي الامور وأنهيها على خير ما يرام ، وأنفذ

خطة حياتي دون عائق ، وقرأت وقرأت وانتقلت من الفلاسفة الاتباعيين الى المحدثين معتقداً انني ربما اجـد ضالتي عنـدهم ، ولكنني اكتشفت انهم لا يجمعون على أمر الا قليلا ، ووجدتني اقتنع بالجانب النقدي من مؤلفاتهم، ولكن حين أصل الى الجانب الإنشائي لا استطيع إلا ان ادرك انهم لاينالون موافقتي ، مع انني في الغالب لم اتبين تماماً ما هو وجه الخطأ عندهم ، ووقر في نفسي ان الفلاسفة ، بصرف النظر عن علمهم ومنطقهم وتصانيفهم ، يدينون بمعتقدات دون أخرى ، خضوعاً لأمزجتهم التي تفرض عليهم الاتجاهـات الفكرية ، وإلا فلست افهم لماذا يختلف بعضهم عن بعض بمثل هذا العمق بعد ان مضى على الفلسفة ما مضى من الزمن ، وحين قرأت — لا أذكر أين — ان (فيخته) قال إن نوع الفلسفة الذي يتبناه الإنسان يعتمد على طبيعة ذلك الإنسان ، خطر لي انني ربما كنت أبحث عن شيء غير موجود ، وبدا لـي حينذاك انه مادامت الفلسفة لاتحوي حقيقة شاملة يمكن ان يقبلها كـل إنسان ، وان كل ماتحويه حقيقة تتفق مع نفسية الفرد ، فالحل الوحيد عندي هو ان أضيّق بحثي وافتش عن فيلسوف يلائمني تفكيره ، لانني وإياه من نوع واحد من الرجال ، والاجوبة التي يمكن أن يعطيها للأسئلة التي حيرتني ينبغي ان تشفي غليلي لانها الاجوبة الوحيدة التي يمكن ان تتفق معمزاجي.

واخذت فترة من الزمن بفلسفة (الذرائعيين Pragmatists). وكنت قد اخفقت في اكتساب الفائدة التي توقعتها من الكتابات التي كتبها اساتـذة الجامعات الإنكليزية الكبرى فيفلسفةما وراء الطبيعة، وبدا لي انهم مهذبون الى درجة لاتسمح لهم بأن يوضعوا في صف الفلاسفة الكبار ، ولم استطع أن أقضي على الشك الذي انتابني في أنهم أحياناً يخفقون فيإيصال مناقشة الى نهايتها المنطقية مخافة ان يؤذوا زملاء لهم تربطهم بهم علائق اجتماعية . أما الذرائعيون فكانت تتمثل فيهم القوة والحياة ، والبارزون فيهم أحسنوا الكتابة وبسطوا القضايا التي لم أكن قادراً على تمييز رأسها من ذنبها ،ولكنني لم استطع رغم ما بذلته من جهد ان اقنع نفسي بما يقولونه من اننا نصمم

الحقيقة لتوافق حاجاتنا العملية ، ولا بد لي من القول : ان المنطلقات الاساسية التي ترتكز عليها المعرفة كلها أمر مقرر لا بد من قبوله سواء لاءم اغراضنا او لم يلائمها ، ولم ارتح الى الفكرة التي تقول إن الله يكون موجوداً إذا سكنت نفسي الى الإيمان بوجوده ، وهكذا لم يعد تعلقي بالتجريبيين شديداً ، واستطبت قراءة برغسون ولكنني وجدته غير مقنع ، ولم أجد عند بندتو كروتشي ما يمت الى ضالتي • ثم إنني اكتشفت ان برتراند راسل كاتب ممتع جداً يسهل فهمه ، ويكتب بإنكليزية جيدة ، وقرأته معجباً •

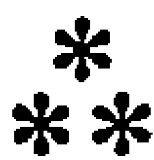
لقد رغبت كثيرا في أن أجعله المرشد الذي طالما فتشت عنه ، فهو يتمتع بحكمة دنيوية وعقل سليم ، ثم اكتشفت مع الزمن انه كان مرشداً غير متأكد تماما من الطريق ، وان فكره غير مستقر •• كان أشبه بمهندس تستشيره بشأن بناء بيت فيقنعك ان تبنيه من الآجر ، وبعد أن تقتنع بذلك ، يعود فيعرض الك أسباباً تزين لك بناءه من الحجر ، وما ان تقتنع بذلك حتى يقدم لك اسباباً بنفس القوة ليبرهن على أن أحسن مادة يجدر بك استعمالها هي الإسمنت المسلح ••• وهكذا تختلط عليك الامور • لقد كنت أبحث عن طريقة فلسفية متماسكة واضحة الحدود ، كطريقة برادلي التي يفضي كل قسم منها الى الآخر بالضرورة ، فلا يمكن تغيير اي شيء فيها دون أن ينهار البنيان كله ، وهذا ما عجز برتراند راسل عن إعطائه •

وأخيراً انتهيت الى أنني لن أجد الكتاب الوحيد الكامل المقنع الذي كنت أفتش عنه ، لان ذلك الكتاب لا يكون إلا تعبيراً عن نفسي ، وهكذا قررت أن أكتبه لنفسي بدافع من الحماسة لا التبصر ، وأخذت أدرس بجد الكتب المقررة لطلاب الدراسات العليا المرشحين لأخذ درجة علمية في الفلسفة ، واعتقد اني بذلك أبني أساساً معقولا لعملي ، وخيل الي انني سأكون أهلا لتأليف الكتاب الذي يراود ذهني بفضل دراسة الكتب الجامعية المذكورة ، وبفضل المعرفة التي اكتسبتها عن العالم خلال السنوات الاربعين التي انقضت من حياتي ، وبفضل الدراسة الجدية للإنتاج الفلسفي الذي قررت أن أكرس

له بعض السنوات • وكنت اشعر أن هذا الكتاب لن تكون له أية قيمة عند غيري سوى ما يمكن أن يعطيه من صورة متناسقة لنفس رجل متأمل (مدرك عدم وجود عالم أكثر ملاءمة) ، عاش حياة أخصب من حياة معظم الفلاسفة المحترفين ، وخاض تجارب اكثر تنوعا • وعرفت جيداً أنني غير موهوب في مجال التفكير النظري فيما وراء الطبيعة ، وصممت على أن آخذ من هنا وهناك نظريات لاتقنع عقلي فقط ، بل تستجيب الى ما أعتقد أنه أهم من العقل ، أي الى مجموع غرائزي ومشاعري وأهوائي المتأصلة •• هذه الأهواء التي تتغلغل في نفس المرء حتى ليصعب تمييزها من الغرائز • ثم أؤلف من هذه العناصر طريقة فكرية تصلح لي وتمكنني من متابعة مجرى حياتي • ولكنني كلما كنت أمعن في القراءة كان الموضوع يتعقد وكنت أزداد شعورا بجهلي • وثبطت همتي بوجه خاص المجلات الفلسفية ، حيث كنت أجد موضوعات مطولة جداً ، خيل الي في عماية جهلي انها تافهة جداً، بينما كانت ذات أهمية كبيرة ، وقد ثبت لي من اسلوب المعالجة ، ومن القياس المنطقي ، والدقة في مناقشة كل نقطة ، والاعتراضات الممكنة عليها ، ومن المصطلحات التي كان الكاتب يعرفها قبل أن يبدأ البحث ، والمصادر التي استشهد بها ، ثبت لي من كل ذلك أن الفلسفة ليست الا موضوعاً تنحصر معالجته في الخبراء فقط ، والرجل العادي لا يستطيع أن يمني نفسه بفهم لطائفها الا قليلا ، وتبين لي انني احتاج الى عشرين عاماً لتهيئة نفسي كي استطيع انجاز الكتاب الذي يراود ذهني ، فما أكاد انجزه حتى اكون ، كالملك في قصة أناتول فرانس ، على فراش الموت ، أو على أي حال لن استطيع الاستفادة من الجهد الذي بذلته •

وهكذا هجرت الفكرة ، وكل ما أود أن أعرضه من جهودي هو الملاحظات المتفرقة التالية ، ولست ادعي أنها أصيلة مبتكرة ، لا في معناها ، ولا في مبناها • إنني أشبه بمتشرد خلع على نفسه أفضل ما وصلت إليه يداه ، سروالاً من زوجة مزارع محسنة ، ومعطفاً من شبح ناطور ، وزوج من كومة

قمامة ، وقبعةً وجدها في الطريق •• انها ليست سوى خرق بالية ، ولكنه مع ذلك تكيف معها مرتاحا ، واعتقد أنها تناسبه رغم رثاثتها • فإذا مر بسيد في بزة زرقاء أنيقة ، قبعته جديدة ، وحذاؤه يلمع اعتقد ان السيد يبدو عظيماً جداً ، ولكنه ليس متأكداً أنه سيشعر بالارتياح في تلك الحلة الأنيقة المحترمة كما يشعر في خرقه الرثة •



حين قرأت (كانت) وجدت نفسي مضطراً لهجر المادية التي شغفت بها في شبابي ، وكذلك الحتمية الفيزيولوجية التي رافقتها . وما كنت اعرف وقتئذ الاعتراضات التي انصبت على فلسفة (كانت) . لقد آنست في فلسفته دفئاً انفعالياً ، ودفعتني الى تأمل هذا (الشيء بذاته) الذي لا يعرف ، وقنعت بعالم بناه الرجل من المظاهر ، وشعرت بحرية نفسية غريبة ، ولم أقبل المبدأ القائل : ان المرء ينبغي ان يتصرف على نحو قد يجعل من تصرفه قاعدة شاملة .. اذ كنت مقتنعاً تماماً بتنوع الطبيعة الانسانية ، فلم أصدق ان هذا المبدأ معقول ، واعتقدت ان ما كان حقاً عند شخص قد يكون باطلا عند آخر ، فانا مثلا كنت أحب العزلة كثيراً ، ولكنني اكتشفت ان معظم الناس لا يشاركون في هذه الرغبة ، وإذا تركتهم وحدهم فانا قاس أناني لا أكترث بهم . والإنسان لا يستطيع ان يدرس الفلاسفة المثاليين دون أن يصل الى تماس مع الانانية، لان المثالية تلوح دوماً على تخوم الأنانية، والفلاسفة يجفلون منها كما يجفل الغزال الشارد ، ولكن مناقشاتهم تقودهم دوماً اليها ، وبقدر ما استطيع أن أحكم ، اعتقد ان الفلاسفة لا ينجون من الانانية إلا لأنهم لا يتبعون مناقشاتهم حتى النهاية . وهذه النظرية قلما تخفق في إغراء القاص .. والادعاءات التي تقوم عليها تقع من عمله في الصميم .. وفيها تكامل واناقة يجعلانها جذابة جداً .. ومادمت لا استطيع ان افترض ان كل من يقرأ هذا الكتاب له إلمام بالطرق الفلسفية المختلفة فأرجو ان يسامحني القارىء المثقف إذا اوضحت معنى الأنانية solipsism باختصار : « ان الاناني لا يؤمن الا بنفسه وبتجربته ، وهو يخلق من العالم مسرحاً لفعالياته ، وهذا العالم الذي يخلقه يتألف من نفسه وافكاره ومشاعره ولا وجود لشيء

غيرها ، وكل ما هو قابل للمعرفة ، وكل حقيقة تتمخض عنها التجربة ، إنما هي فكرة في ذهنه لا وجود لها بدون ذهنه • وهو لايجد ضرورة ولا إمكانية لإقرار أي شيء خارج حدود نفسه ، والحلم والحقيقة عنده سيان ، وما الحياة إلا حلم يخلق فيه ما حوله من الاشياء ، إنه حلم متماسك مستمر ، وحين ينقطع الاناني عن حلمه ينقطع وجود العالم بما فيه من جمال وألم واسى وتنوع لا سبيل الى تصوره » • إنها نظرية كاملة ، عيبها الوحيد انهالاتصدق•

ولما شرعت في تحقيق طموحي لوضع كتاب حول هذه الامور واعتقدت انني ينبغي ان انطلق من البداية ، عملت على دراسة علم "أصول المعرفة (Epistemology) ولم أقتنع بأي من النظريات التي تفحصتها ، وظهر لي ان الرجل العادي غير المؤهل للحكم على قيمة هذه النظريات ، ربما وجد نفسه منساقاً لاختيار النظرية التي ترضي استعداداته السابقة (والرجل العادي يظل موضع احتقار الفيلسوف الا عندما يتفق ان تلتقي آراؤه مع آراء الفيلسوف ، وفي هذه الحالة تعود اليه قيمته) • واذا كان لي أن أبدي الرأي فانني أستحسن النظرية التي تقول : اننا لا نستطيع التأكد من أي شيء سوى كمية معينة من المعلومات الاساسية تسمى (المعطى the given) ، ووجود العقول الاخرى التي تتضمنها • وما تبقى من المعرفة ، حديث خرافة من صنع عقول الناس يستهدف تيسير سبل الحياة • ومن أجل التكيف في مجرى التطور مع بيئة متغيرة باستمرار ، صنع الناس صورة من قطع لملموها من هنا وهناك لانها توافق مآربهم ، وهذا هو عالم الظواهر الذي يعرفونه ، والواقع هو مجرد افتراض كأساس له ، ولو أنهم اخذوا قطعاً اخرى وجمعوها في صورة اخرى – وهذا ممكن – فإن العالم الجديد الذي ينتج عن ذلك سيكون متماسكاً وحقيقياً كالعالم الذي يخيل إلينا اننا نعرفه •

من الصعب ان تقنع اي مؤلف بعدم وجود تداخل شديد بين الجسد وبين العقل • إن تجربة فلوبير الذي قاسى من اعراض التسمم بالزرنيخ عندما

كان يكتب عن انتحار (إيما بوفاري) ليست إلا شاهداً متطرفاً لما يعانيه كل روائي ، فمعظم الكتاب يصابون بالارتجاف أو الحمى أو الصداع أو الآلام أو الدوار حين ينهمكون في الكتابة ، ويشعرون بالمقابل أنهم مدينون لحالات اعتلال اجسادهم بكثير من روائع ما ابدعوه • ولا يكاد يفوت الكتاب - إذ يعرفون ان كثيرا من انفعالاتهم العميقة وكثيرا من افكارهم التي يتوهمون انها تهبط عليهم من السماء قد تكون ناتجة عن كسل في الكبد او حاجة الى الحركة - ان ينظروا الى تجاربهم الروحية بنوع من السخرية لا ينتج منه إلا الخير ، لانهم بهذه الطريقة يتمكنون من معالجتها والتصرف بها • ومن بين النظريات المختلفة حول العلاقة بين المادة والروح التي يقدمها الفلاسفة من أجل الرجل العادي ، والتي مازالت تستأثر بقناعتي ، مفهوم سبينوزا القائل : ان المادة المفكرة والمادة الممتدة هما شيء واحد ومادة واحدة ، وبالطبع من الانسب ان نستخدم كلمة (الطاقة) للدلالة عليها • وما لم اكن قد اخطأت الفهم ، اعتقد ان برتراند رسل قد عبر بطريقته الحديثة عن فكرة لا تختلف كثيرا عن فكرة سبينوزا حين تحدث عن مادة محايدة ،تكون مادة خاما للعالمين الجسدي والعقلي ، وقد حاولت ان أكوّن لنفسي صورة ما عن هذه الحقيقة ، فتخيلت الروح على شكل نهر يشق طريقه في دغل المادة ، ولكن النهر هو الدغل ، والدغل هو النهر ، لان النهر والدغل شيء واحد • ولا يستبعد ان يتمكن علماء الحياة في المستقبل من خلق الحياة في مخابرهم ، وعندها ربما أُتيح لنا ان نعرف المزيد عن هذه الامور •

*
**

ولكن تعلق الرجل العادي بالفلسفة يتخذ طابعا عمليا ، فهو يريد ان يعرف ما قيمة الحياة ، وكيف ينبغي ان يعيش ، وأي معنى يمكن ان ينسب الى الكون • وحين يتلكأ الفلاسفة ويرفضون ان يعطوا إجابات لهذه الاسئلة ولو على سبيل التخمين ، فانما يتنصلون من مسؤولياتهم • وقضية الشر من أهم القضايا الملحة التي تواجه الرجل العادي •

ومن العجيب ان تلاحظ ان الفلاسفة يستعملون وجع الاسنان مثالا كلما تحدثوا عن الشر فيشيرون دوما ، بحق ، الى ان المرء لا يشعر بوجع الاسنان عند غيره • ويبدو ان وجع الاسنان في مثل حياتهم السهلة المحروسة ، هو الالم الوحيـد الذي يعانون منه كثيراً ، ويمكن ان يستنتج المرء ان المشكلة كلها ستوضع على الرف اثر التقدم الذي يحرزه طب الاسنان في اميركا ! وقد خطر لي في بعض الاحيان انه من المستحسن جدا ان يكلف الفلاسفة — قبل ان يمنحوا الدرجات العلمية التي تبيح لهم نقل معرفتهم الى الشباب — بقضاء سنة في الخدمة الاجتماعية بين الاحياء الفقيرة في المدن الكبيرة ، او كسب معيشتهم عن طريق العمل اليدوي ، ولو أنهم رأوا طفلا يموت من التهاب السحايا لأصبحوا خليقين ان يواجهوا المشكلات التي تخصهم بعينين من نوع جديد •

ولو لم يكن الموضوع ذا جدية ملحة لكان من الصعب ان يقرأ المرءالفصل الذي يبحث عن الشر في كتاب (المظهر والواقع Appearance and Reality) دون ابتسامة ساخرة ، إنه مهذب بشكل مرعب ، ويترك في نفسك انطباعا بأن إلحاق اية اهمية كبرى بالشر امر سيء نوعا ما ، ومع اننا لا بد ان نعترف بوجوده الا انه ليس من المعقول ان نحيطه بهذه الضجة الكبرى ، وقـد

بولغ فيه كثيراً ، على أي حال ، ومن الواضح ان هناك قسطاً من الخير فيه •

وقد رأى برادلي انه لا وجود للألم بوجه عام ، وان المطلق هو الأغنى ، لما ينطوي عليه من نشاز وتباين من كل لون •• ويقول برادلي ايضاً : كما ان « المقاومة والضغط » في الآلة يسعيان الى بلوغ نهاية تتخطاهما من بعد ، فربما كان الحال على هذا المنوال في المطلق ، ولكن على مستوى أرفع بكثير ، وان كان هذا ممكنا ، فلا بد ان يكون حقيقياً لا محالة •• ان الشر والخطأ أيضا يسعيان ضمن خطة أوسع منهما ، وهما إنما يتحققان بهذا السعي •• انهما يلعبان دوراً في تحقيق « خير » أعلى ، وبهذا المعنى يكونان خيرين دون ان يعلما ذلك •• والخلاصة ان الشر ما هو إلا من خداع حواسنا ••

وقد حاولت ان أعرف ما يقوله فلاسفة من مدارس اخرى في هذه المشكلة ، فلم اجد الكثير ، ولعل السبب هو ان المشكلة لا تحتمل الإطالة في القول ، والفلاسفة يمحضون الأهمية طبعا للموضوعات التي يستطيعون ان يتكلموا عنها كثيرا ، وفي القليل الذي ذكروه لا ارى ما يشفيني ، وربما كانت الشرور التي نعاني منها تثقفنا ، وبالتالي تجعلنا احسن من ذي قبل ، ولكن الملاحظة لا تسمح لنا بأن نعتقد ان هذه القاعدة شاملة ، وربما كانت الشجاعة والتعاطف صفتين ممتازين ، وربما كانتا لا توجدان بدون الخطر والمعاناة ، وإنه لمن الصعب ان ندرك كيف ان (صليب فيكتوريا) الذي يكافأ به جندي جازف بحياته لينقذ رجلا أعمى ، يمكن ان يعزي الرجل بفقد بصره • إن إعطاء الصدقة يظهر الإحسان ، والإحسان فضيلة ، ولكن هل هذا الخير يعوض عن الشر الذي لحق بالاعرج الذي استدعى فقره هذا الخير ؟ ان الشرور حاضرة دوما : من ألم ، ومرض ، وموت أحبائنا ، وفقر ، وجريمة ، وخطيئة ، وامل خائب •• الى آخر القائمة التي لاتنتهي • وأي تفسير لدى الفلاسفة في هذا الصدد؟ بعضهم يقول إن الشر ضروري منطقا ، لأنه يدلنا على الخير ، وبعض يقول : إن في طبيعة الكون طباقا بين الخير

والشر كلٌ منهما من الناحية الغيبية (الميتافيزيائية) ضروري للآخر • وماذا قدم علماء اللاهوت من تفسير ؟ بعضهم يقول إن الله اوجد الشر ليعاقب الناس على خطاياهم • ولكنني رأيت ولدا يموت من التهاب السحايا • وانتهيت الى حل واحد يتجاوب مع ادراكي ومع خيالي وهو مذهب تناسخ الارواح• فكلنا يعلم انه يقول إن الحياة لا تبدأ عند الولادة ولا تنتهي عند الموت ، ولكنها حلقة في سلسلة غير محددة من الحيوانات التي تقرر مصير كل منها نتيجة اعمالها في وجود سابق ، والاعمال الصالحة قد ترفع الرجل الى اعالي السماء ، والافعال الطالحة قد تنحط به الى اعماق الجحيم • وكل الحيوانات لها نهاية حيوات الآلهة ، والسعادة إنما تنشد في التخلص من دورة الولادة والإخلاد الى الحالة الثابتة التي تسمى (النرفانا Nirvana) • ووفقاً لهذه النظرية يسهل على المرء أن يتحمل الشرور التي تدهمه في حياته لشعوره انها نتيجة اخطاء ارتكبها في وجود سابق ، ويسهل عليه كذلك بذل الجهد من اجل الخير ، اذ يأمل ان يلقى الثواب الأوفى في حياة سعيدة مقبلة • وإذا كان الإنسان يتحمل آلامه مكرها اكثر مما يتحمل آلام الآخرين (لا أستطيع ان اشعر بوجع اسنانك كما يقول الفلاسفة) ، فإن آلام الآخرين تثير سخطه• ومن الممكن ان يسكن الإنسان الى آلامه، ولكن الفلاسفة وحدهم، مدفوعين بكمال المطلق ، يستطيعون ان ينظروا الى آلام الآخرين — التي تبدو غالبا غير جديرة — بعقلية متكافئة • ولو كان مذهب (الكارما[٢] Karma)صحيحا لكان حريا بنا ان ننظر لتلك الآلام بعطف ، ولكن بقوة ايضا • وعند ذلك لا يكون هناك معنى لفورات الانفعال ، وتسلب الحياة من لاغائية الالم ، وهي حجة المتشائمين التي لا جواب لها • وليس لي الا ان اشعر بالأسى لانني اجد ان هذا المذهب يستحيل تصديقه كما هو الشأن بالنسبة لفلسفة الانانية التي تحدثت عنها سابقا •

---

(١) النيرفانا في الديانة البوذية هي نشوة النفس في راحتها الابدية ..

(٢) الكارما هي الفكرة البوذية التي تقول ان الروح تلقى الجزاء في وجود مقبل . (المعرب)

ولكنني لم أُنهِ الكلام عن الشر بعد • ان المشكلة تزداد إلحاحاً حينما تصل الى أن تقرر هل الله موجود ؟ واذا كان موجودا فأية طبيعية يمكن ان تنتسب اليه ؟ وقد اتى عليّ حين قرأت فيه ، كما يفعل كل إنسان ، مؤلفات الطبيعيين التي تشغل الذهن ، وتملكتني الرهبة لتأمل المسافات الشاسعة التي تفصلنا عن النجوم ، والمسافات الزمنية الهائلة التي يقطعها الضوء حتى يصل إلينا ، وترنحت لامتداد المجرة الذي لا يمكن تصوره • واذا كنت فهمت ماقرأته فهما صحيحا ، فعلي ان افترض ان القوتين الكونيتين الجاذبية والدفع، توازنتا منذ البدء ، فبقي الكون خلال عصور لا تعد ولا تحصى في حـالة من التوازن الكامل •• وفي لحظة ما ، بعد ذلك ، اختل هذا النظام ، وعندما فقد الكون توازنه نجم عنه هذا الكون الجديد الذي يحدثنا عنه الفلكيون ، بما فيه الارض الصغيرة التي نعرفها • ولكن ، ما الذي اخل بتوازن الكون ؟ لقد رأيت نفسي منساقا حتما الى تصور الخالق ومن الذي يستطيع ان يخلق هذا العالم المدهش المترامي الهائل سوى القادر على كل شيء ؟ ولكن شرور العالم تكرهنا على أن نستنتج انه لا يمكن أن يكون القوي الخير دون حد • ان الإله ذا القوة التي لا تحد يمكن ان يلام بحق لما في العالم من شرور ، ومن السخف أن ننظر اليه باعجاب او تتجه اليه بالعبادة • ولكن العقل والقلب يثور على تصور إله لا يجمع كل الخير ، فعلينا اذن ان نقبل فرضية وجود إله لا يجمع كل القوة ، ومثل هذا الإله لا يحوي في ذاته أي تفسير لوجوده، أو لوجود العالم الذي يخلقه •

ومن الفريد أن تلاحظ، حين تقرأ الوثائق التي بنيت عليها الديانات العظمى في العالم ، الى أي مدى قرأت الاجيال المتعاقبة فيها أشياء أكثر بكثير ممـا

يوجد فيها أصلا • إن معظمنا يضيق ذرعا إذا وجه إليه ثناء منمق ، ومن الغريب ان المتدينين يظنون ان الإله يرضى عن هذا المديح الذي يكيلونه بعبودية ••

حين كنت صغيرا كان لي صديق أكبر مني يلح علي دائما ان أقيم معه في الريف ، وكان متدينا يجمع آله وخدمه كل صباح ، ويقرأ فيهم الصلوات، ولكنه شطب بقلم رصاص كل المقاطع التي تكيل المدح لله في (كتاب الصلوات العامة) • وقال : لا أرى شيئا أكثر سوقية من مدح الرجل في وجهه •• ولما كان هو سيدا راقيا ، فانه لم يستطع أن يتصور إمكانية كون الله غير راق ، فيقبل مثل هذا المديح • وفي ذلك الوقت عجبت لشذوذ صديقي ، اما الآن فاعتقد انه أظهر تفهما جيدا •

الناس عاطفيون ، الناس ضعاف ، الناس أغبياء ، الناس يستحقون الشفقة، ومع ذلك نفترض فيهم ان يحتملوا شيئا هائلا كغضب الله ! إنه أمر غريب غير وارد • إذ ليس من الصعب ان تغفر للناس خطيئاتهم ، فلو وضعت نفسك في موضعهم يسهل عليك بوجه عام ان تتبين الاسباب التي قادتهم الى الخطيئة ، وبالتالي يمكن أن تجد لهم عذرا • ان في الإنسان غريزة طبيعية تقوده الى الغضب ، ثم الى الاعمال الانتقامية إذا مالحق به الاذى ، ويصعب عليه أن يقف موقفاً محايداً اذا كان الامر يتعلق به ، ولكن شيئاً من التفكير يمكّنه من النظر إلى الموقف من الخارج ، وبالمران تصبح قدرته على غفران الاذى الذي يلحق به كقدرته على غفران الاذى الذي يلحق بالآخرين ، اما مغفرتك للاذى الذي تلحقه بالناس فذلك أمر أصعب بكثير يتطلب بالفعل قوة عقلية فريدة •• ان كل فنان يود لو يؤمن بالناس ولكن الغضب لايستبد به اذا لم يقبل الآخرون مايقدمه لهم • اما الله فلا يقف موقف المتعقل ••• إنه يلح عليك الحاحاً شديداً لتؤمن به حتى ليخيل اليك انه يحتاج الى إيمانك لكي يؤكد وجوده أمام نفسه ، وهو يعد بالثواب من يؤمن به ويهدد بالعقاب المرعب من لا يفعل ذلك ، ولست أستطيع أن أومن بإله يغضب مني

لاني لا أومن به ، ولست أومن بإله أقل تسامحاً مني ، ولست أومن بإله لا يتمتع بمزاج مرح ولا بعقل سليم ، ومن قديم أوجز بلوتارك القضية كما يلي : (لأفضلُ كثيراً ان يقول الناس إن بلوتارك لاوجود له في الماضي ولا في الحاضر على ان يقولوا إن بلوتارك رجل متقلب متغير تسهل إثارة غضبه ويعمد الى الانتقام لأقل الأسباب ويضيق ذرعاً بأتفه الامور) •

واكنماينسبه الناس الى الله من نقائص لايرضونها لانفسهم ليس برهاناً على ان الله غير موجود ، وإنما يبرهن فقط على ان الديانات التي قبلها الناس ليست إلا ممرات شقت في دغل لا سبيل إلى اختراقه ، ولذلك لا يوصل أيٌ من هذه الممرات الى قلب السر العظيم ، وما أكثر المناقشات التي حاولت ان تبرهن على وجود الله ، وأرجو القاريء أن يصبر عليّ حتى أعرضها بايجاز •• تقول إحدى هذه الحجج : إن لدى الإنسان فكرة عن كائن كامل، وما دام الكمال يتضمن الوجود فالكائن الكامل ينبغي أن يكون موجوداً•• والثانية تقول إن لكل حدث علة ، ومادام الكون موجوداً فلابد من علة له ، وهذه العلة هي الخالق •• والثالثة مستقاة من التناسق وقد وصفها (كانت) بأنها أكثر من غيرها وضوحاً وقدماً وتلاؤماً مع العقل الإنساني ، وقد عرضتها إحدى شخصيات هيوم في (المحاورات) كما يلي : « إن نظام الطبيعة وترتيبها ، والتوافق العجيب بين الغايات النهائية ، والفائدة الواضحة والقصد الواضح لكل عضو وجزء •• ان كل ذلك ينبيء بأوضح عبارة عن علة ذكية، أو مؤلف ذكي » • ولكن (كانت) تبين بما يقنع أنْ ليس هناك مايذكر لتأييد هذه الحجة اكثر من الحجتين السابقتين ، وقدم حجة اخرى عوضاً عنها ، وحجة (كانت) باختصار ، تعتمد على انه بدون إله لا يوجد ما يضمن ان لا يكون الإحساس بالواجب وهما ، وهو إحساس يفترض مسبقاً وجود النفس الحقيقية الحرة ، ولذلك يكون الإيمان بالله ضرورياً من الوجهة الاخلاقية ، وهذه الحجة برأي الجميع ، أليق بطبيعة (كانت) الودود منها بذكائه النافذ • والحجة التي تبدو لي أقوى اقناعاً من غيرها لم يعد أحد يؤيدها

اليوم وتعرف باسم البرهان المعتمد على إجماع الشعوب ، ومؤداها ان جميع الناس ، مهما تباعدت أصولهم ، كان لهم نوع من الايمان بالله ، ومن الصعب أن تتصور ان هذا الإيمان الذي نما مع الجنس البشري والذي تقبله أحكم الناس من عقلاء الشرق ، الى فلاسفة اليونان ، الى المدرسيين العظام ، ليس له أساس من الحقيقة ، وبدا الإيمان بالنسبة للكثيرين غريزياً وربما — لانستطيع الا ان نقول (ربما) لان التأكيد بعيد المنال — لاتوجد الغريزة مالم تكن هناك إمكانية لإرضائها ، وقد اظهرت التجربة ان سيطرة اعتقاد ما ، بصرف النظر عن المدى الذي يستغرقه ، ليس ضمانة لحقيقته . وهكذا يظهر ان كل الحجج التي تبرهن على وجود الله غير صالحة . ولكنك ، بالطبع لاتدحض وجود الله ، لكونك غير قادر ان تبرهن على وجوده ولا يمكن أن يتجرد الإنسان من الرهبة ومن الشعور بالخور ومن الرغبة في تحقيق الانسجام بين نفسه وبين الكون العظيم ، وهذه العناصر ، لا عبادة الطبيعة والاجداد ، ولا السحر والا الاخلاق ، هي الاصول الاولى للديانات . وليس من مبرر لان تعتقد ان ماترغبه يوجد ، ولكن يشق عليك ان تحرم من حق الايمان بما لا تستطيع ان تثبته ، وما من سبب يمنعك من الإيمان طالما كنت شاعراً ان ايمانك يفتقر الى برهان ، واظن انك لن تبحث عن براهين ولن تحتاج اليها اصلا ، يكفيك حدسك الداخلي اذا كان طبعك نشدان الراحة في محاكماتك ، ونشدان المحبة التي تقويك وتشجعك .

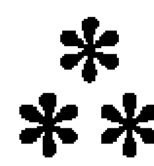
إن التصوف لا يقتضي برهاناً ولا يتطلب بالفعل اكثر من معتقد داخلي ، وهو مستقل عن العقائد لانه يجد دعماً له في جميعها ، وهو شخصي لدرجة ترضي كل عقلية . إن التصوف شعور بأن العالم الذي نعيش فيه ليس الا جزءاً من كون روحي يستقي منه أهميته ، وإحساس بإله ماثل يعيننا ويريحنا . ولقد سرد الصوفيون تجربتهم مراراً باصطلاحات متشابهة جداً حتى أنني لا أفهم كيف يستطيع الناس إنكار حقيقتها . والحق أنني خضت مرة تجربة لا استطيع ان اصفها إلا بالكلمات التي استعملها المتصوفون لوصف نشوتهم ،

فقد كنت جالساً في احـد المساجد المهجورة في القاهرة ، وفجأة ألفيتني مستبشراً كما استبشر « أغناطيوس لويولا » حين جلس على ضفة النهر في مانريزا ، وشعرت شعوراً كاسحاً بقوة الكون وأهميته ، وشعوراً داخلياً عاصفاً بالاندماج مع هذا الكون ، وكدت أحمل نفسي على القول إنني كنت في حضرة الله ، إنه بلاشك إحساس مشترك حرص الصوفيون على ألا يلحقوا به قيمة إلا إذا كان تأثيره واضحاً فيما يجره من نتائج ، وأظن انه يمكن أن يحدث بعوامل أخرى غير العامل الديني ، والقديسون انفسهم مالوا الى الاعتراف بان الفنانين قد تحدث لهم مثل هذه الحالة ، والحب ، كما نعلم ، يمكن أن يحدث حالة مماثلة تماماً ، حتى ان الصوفيين انقادوا الى استخدام عبارات المحبين لوصف رؤاهم المباركة ، ولست اعرف إن كانت الحالة التالية أكثر غموضاً من هذه الحالة التي لم ينجح علماء النفس في تفسيرها ، وذلك ان يخامرك شعور قوي بانك في وقت ما في الماضي خضت التجربة التي تكون على وشك خوضها •• إن نشوة الصوفي حقيقية تماماً ، ولكنها غير صالحة إلا لنفسه ، ويتفق الصوفيون والمتشككون على ان هناك غموضاً عظيماً يتبقى بعد نهاية كل جهودنا العقلية •

وإذ ووجهت بهذه الحقائق ، وشعرت بالرهبة إزاء عظمة الكون ، ولم اقتنع تماماً بما قاله لي الفلاسفة وما قاله القديسون ، فقد كنت ارجع أحياناً الى ما قبل محمد ، وعيسى ، وبوذا ، وآلهة اليونان ، ويهوه ، وبعل ، لأفزع الى براهما والأوبانيشاد • إن تلك الروح ، إن كان لي أن أدعوها روحاً ، وهي التي خلقت نفسها ، واستقلت عن كل وجود آخر ، مع ان كل ما هو موجود موجود" فيها ، فهي المصدر الوحيد للحياة في كل تلك الحيوات •• إن تلك الروح لها على الاقل من العظمة ما يشفي الخيال •

على انني شغلت بالالفاظ مدة طويلة ، تبيح لي ان ارتاب بما قلت ، وحين أعيد النظر فيما فرغت من كتابته تواً ، لا أستطيع إلا أن أراه هزيل المعنى••

إن الشيء الوحيد الذي يذكر في الديانة قبل كل شيء هو الحقيقة الموضوعية• والإله الوحيد ذو الشأن هو كائن شخصي ورفيع وخير ، ووجوده أكيـد بمقدار ماهو حاصل اثنين مع اثنين اربعة ••• إنني لم استطع ان اخترق السر ، وسأظل أومن بالظواهر ، والحصيلة العملية لهذا الإيمان بالظواهر هي ان تتصرف كما لو كان الله غير موجود •



ليس الإيمان بالله أساسياً للإيمان بالخلود ، ولكن يصعب الفصل بينهما . وحتى في ذلك الشكل الغامض لاستمرار الحياة ، المعتمد على فكرة تحلل وعي الإنسان إذ ينفصل عن الجسد ، في الوعي العام ، فإنك لا تستطيع ان ترفض إطلاق اسم « الإله » على هذا الوعي العام الا إذا أنكرنا وجود جدوى أو قيمة فنية له .. ومن الناحية العملية نعلم ان الفكرتين ارتبطتا معا ارتباطاً وثيقاً أدى الى الاعتقاد دوماً بأن الحياة بعد الموت هي أقوى أداة تمكن الإله من التصرف في شؤون الجنس البشري ، وهي تقدم للإله الرحيم السعادة الناجمة عن إثابة الخيِّرين ، وللإله المنتقم الرضى الناجم عن معاقبة الأشرار . وإن الحجج التي تثبت الخلود بسيطة جدا ولكنها تظل بغير شأن ، بل بلا معنى ، إذا لم يسبقها تقبل فكرة وجود الله .. على أنني سأحاول تعداد هذه الحجج فيما يلي :

تقوم إحداها على أساس اعتبار الحياة غير كاملة ، فنحن ظامئون دوما لإرواء نفوسنا ، ولكن قوة الظروف وقصور مقدرتنا يخلفان فينا إحساساً بالخيبة يترك للحياة المقبلة أن تصلحه ، وهكذا كان (غوته) يعتقد ان هناك عملا كثيرا بانتظاره رغم أنه أنتج إنتاجا غزيرا في حياته .

وهناك حجة قريبة من هذه الحجة مبنية على الرغبة ، فإذا كنا نتصور الخلود ونرغب فيه ، أفلا يدل ذلك على أنه موجود ؟ ان اشواقنا للخلود لا تفهم إلا إذا كان إرواؤها ممكناً .

وترتكز حجة ثالثة على ما يحل بالإنسان من سخط وألم وحيرة حين ينظر الى فقدان الإنصاف والمساواة في هذا العالم . إن الاشرار يزدهرون كالشجرة

المخضرّة ، والعدالة تستدعي وجود حياة أخرى يعاقب فيها المذنب ويثاب المحسن ، ولا سبيل الى احتمال الشر إلا إذا عوض عنه بالخير في المستقبل البعيد ، (والله نفسه بحاجة الى الخلود ليدل الإنسان على الطرق المؤدية اليه) .

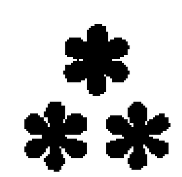
وبعد ذلك تأتي الحجة المثالية القائلة : الوعي لا يفنى بالموت ، لان فناء الوعي لا يمكن إدراكه ما دام الوعي وحده يستطيع ان يدرك فناء الوعي . وتذهب الحجة الى أن القيم لا توجد الا في العقل ، وتشير الى أن ثمة عقلا علوياً يدرك هذه القيم إدراكا كاملا .

وإذا كان الله هو المحبة فالناس قيم له ولا يعقل ان يتاح الفناء لما هو قيمة عند الله ، وعند هذه النقطة يرد الاعتراض التالي : تدل التجربة ، ولا سيما تجربة الفلاسفة ، ان هناك عدداً كبيراً من الناس لا شأن لهم ، والخلود فكرة هائلة جدا لا يليق بها أن ترتبط بالناس العاديين ، الذين هم أقل شأناً من أن يستحقوا العقاب الأبدي أو النعيم الدائم ، وهكذا أقدم الفلاسفة على الاعتقاد بأن أولئك الذين يمتلكون إمكانية الارتواء الروحي سوف يتمتعون باستمرار للحياة يتوقف حين يبلغون الكمال الذي في وسعهم أن يستوعبوه ومن ثم يؤولون الى موت مريح ، أما الذين لا يمتلكون مثل هذه الإمكانيات فسوف ينالهم الفناء على الفور بيد رحيمة . ولكن حين نأتي الى تحديد الصفات التي تؤهل القلة المختارة لنعمة هذا الاستمرار الحياتي المحدود ، يفاجئنا ان نكتشف ان الذين تتوافر فيهم هذه الصفات ، ما عدا الفلاسفة ، قليلون جداً . وعلى أي حال ، لا نستطيع إلا أن نتساءل كيف سيقضي الفلاسفة وقتهم حين تكون فضائلهم قد نالت ثوابها المستحق ؟ إننا نسأل هذا السؤال لأننا نفترض ان الاسئلة التي شغلتهم أثناء إقامتهم على الارض ينبغي ان تكون قد لاقت الاجوبة الشافية . وليس من حل إلا ان نفترض انهم سيأخذون دروساً في (البيانو) من بتهوفن ، او يتعلمون الرسم بالالوان

المائية تحت إشراف (ميشيل أنجيـلو) ، وسوف يجدهما الفلاسفة معلمين حادّي المزاج ، اللهم إلا إذا تغيرت طبيعتهما •

وهناك محك جيد يكشف عن قوة الحجج التي تبني عليها معتقدك ، وهو أن تسأل نفسك : هل تقدم على تصرف عملي ذي أهمية بناء عـلى أسباب توازي في قوتها تلك الحجج ؟ هل تقدم مثلا على شراء دار معتمداً على الوصف دون ان تكلف محاميا بفحص وثائق ملكيتها ومهندسا بفحص مجاريها ؟ !ان حجج الخلود التي تجدها ضعيفة إذا فندتها واحدة واحدة ، ليست اكثر إقناعا اذا أخذتها جملة ، إنها مضللة كإعلان ينشره بائع الدار في الصحف اليومية ، وهي ــ في رأيي على الأقل ــ غير مقنعة ، ولست أدري كيف يستمر الوعي بعد ان يمّحي أساسه الجسدي ، وإني متأكد تماما من تلاحم جسمي وروحي حتى انني لا أعتقد أن استمرار وعيي بمعزل عن جسمي سيكون بمعنى من المعاني استمراراً لنفسي •

وحتى لو اقتنعنا بحقيقة الرأي الذي يقول باستمرار وعي الإنسان في الوعي العام بعد الحياة ، فليس في ذلك إلا عزاء بسيط ، وأما ان نكتفي بالتسليم بأن الإنسان يستمر باستمرار قوى روحية هو الذي ولدها فذلك ليس إلا خداعاً لأنفسنا بكلمات بليدة •• ان الاستمرار الوحيد الذي أعترف بقيمته هو استمرار الفرد كاملا •



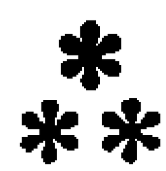
فإذا تركنا جانبا قضيتي وجود الله وإمكانية استمرار الحياة بعد الموت لإنهما أعقد من ان يصل المرء فيهما الى قرار يؤثر في سلوكه ، بقي علينا ان نقرر معنى الحياة وفائدتها . وإذا كان الموت نهاية كل شيء ، وإذا كنت لا آمل في ثواب مقبل ، ولا اخشى شراً ، وجب ان اسأل نفسي لم جئت الدنيا ، وكيف ينبغي ان اشق طريقي في ظروفها ؟ والجواب على احد هذين السؤالين واضح ولكنه كريه ، فلا يحب معظم الناس ان يواجهوه : ليس للحياة سبب وليس للحياة معنى وما نحن إلا سكان لفترة قصيرة في كوكب صغير يدور حول نجم صغير هو بدوره جزء من واحـدة من المجموعات الشمسية التي لا تحصى . وربما كـان كوكبنا هو الوحيد الـذي يصح لاستمرار الحياة ، وربما في جهات اخرى من الكون استطاعت كواكب اخرى ان تشكل بيئة مناسبة لتلك المادة التي نفترض ان الناس خلقوا منها مع مرور الزمن . وإذا كان الفلكي ينبىء بالحقيقة فلا بد ان يصل هـذا الكوكب الى حالة لا يمكن للاحياء ان يستمروا فيها ، ومن ثم يبلغ الكون ، بعد الاحقاب الطوال تلك ، المرحلة النهائية من التوازن التي يتوقف عندهـا حدوث أي شيء ، وستكرّ دهور ودهور قبل ان يختفي هذا الإنسان ، فهل من الممكن اذ ذاك ان نفترض ان هذا الإنسان الذي وجد يوماً ما له أي شأن ؟ إنه فصل في تاريخ الكون ليس له دلالة ، شأنه في ذلك شأن الفصل الذي يروي قصص الوحوش الهائلة الغريبة التي سكنت ارض العصور البـدائية .

وعليَّ أن أسأل نفسي إذن عن علاقة هذا الامر بي ، وكيف لي أن أتصرف في هذه الظروف إذا أردت أن أستخدم حياتي على أحسن وجه ، وأن أحصل

منها على أقصى ما تستطيع إعطاءه •• وهنا لست أنا الذي يتكلم ، ولكنها صبواتي التي يوجد مثلها عند كل إنسان ، تصر على تأكيـد وجودي •• إنها الانانية التي نرثها جميعا من تلك الطاقة المترامية في البعد التي سببت بدء الحياة في أعماق الماضي المجهول • إنها الحاجة الى تأكيد الذات التي توجد في كل حي وتبقيه حيا ، إنها جوهر الإنسان نفسه ، وإرواؤها هو إرواء النفس الذي وصفه سبينوزا بأنه أسمى ما يمكن أن نطمح اليه (لأنه ما من أحد يجهد في تأكيد حياته من أجل أية غاية) • ولنفترض ان الوعي وُهِب للإنسان كوسيلة تمكنه من التصرف ببيئته ، وانه على مدى عصور طويلة لم يصل الى تطور اسمى من ذلك الذي يحتاجه الإنسان ليعالج المشكلات العملية للحياة • ولكن يبدو أن الوعي نما الى درجة تخطى الحاجات العملية ، ومع نشوء الخيال ، وسّع الإنسان بيئته لتحتوي ما هو غير مرئي • ونحن نعلم بأية أجوبة جابه الإنسان الأسئلة التي ألقتها نفسه حينذاك • لقد كانت الطاقة المضطرمة في ذاته من القوة بحيث لم يقبل أن يخامره أي شك في أهميته ، وكانت أنانيته شاملة جداً ، فلم يستطع أن يتصور إمكان انطفائه • وكثير من الناس ما زالوا قانعين بتلك الاجوبة يعطون الحياة معنى ، ويصفون العبث الإنساني بأنه راحة ••

إن أكثر الناس لا يفكرون إلا قليلا ، ويقبلون وجودهم في الحيـاة عبيدا عميا للكفاح الذي يدفعهم ذات اليمين وذات الشمال ، ليرووا دوافعهم الطبيعية ، وعندما يخبو فيهم ذلك الكفاح ، فإنهم ينطفئون كما تنطفىء الشمعة • ان حياة هؤلاء الناس حياة غريزية صافية ، ولعل في ذلك أعظم حكمة • ولكن إذا كان وعيك قد ازداد نمواً حتى أثار عليك عدداً من الاسئلة الملحة من نوع خاص ، وإذا كنت تعتقد بخطل الاجوبة القديمة ، فماذا أنت فاعل ؟ وأية أجوبة تعطي ؟ لقد أعطى رجلان من أحكم أهل الارض اجابتيهما على واحد على الاقل من هذين السؤالين ، فأتى الجوابان بعد تدقيق النظر كأنما يعنيان شيئاً واحداً ؛ على انني لست متـأكدا تماماً من شـدة تطابقهما ، فقد قال

أرسطو إن غاية النشاط البشري هي العمل الصحيح، وقال غوته إن العيش هو سر الحياة • واحسب ان غوته يعني ان الانسان يبلغ ذروة حياته حين يتوصل الى ادراك ذاته ، وكان قليل الاحترام للحياة اذ تسيطر عليها الاهواء العابرة والغرائز التي لا ضابط لها • ولكن صعوبة إدراك الذات ـ وهي التي تعني الوصول بكل ملكة من ملكاتك الى قمة الكمال بحيث تنتزع من الحيـاة أقصى ما تقدر عليه من سرور وجمال وعاطفة وشغف ـ هذه الصعوبة تكمن في ان مطالب الآخرين تعرقل فعاليتك باستمرار ، فالأخلاقيون وقد أخذوا بصواب النظرية ولكنهم أشفقوا من نتائجها ، سودوا صفحات كثيرة ليثبتوا ان الإنسان يتوصل الى ادراك ذاته إدراكا كاملا بالتضحية وإنكار الذات ، وهذا بالتأكيد ما لم يقصده غوته وهو لا يبدو صحيحا أيضا • أما أن هناك بهجة فريدة في التضحية بالنفس فذلك ليس ينكره إلا قليلون ، ثم إن التضحية بالنفس لها من القيمة في إدراك الذات بقدر ما تقدم حقلا جديدا للنشاط ، وفرصة لتطوير جانب من النفس جديد ، ولكنك إذا رمت إدراك الذات في حدود عدم تداخل محاولتك مع محاولات الآخرين لإدراك الهـدف نفسه فإنك لا تستطيع أن تقطع شوطا بعيدا •• ومثل هذا الهدف يتطلب قدرا من اللامبالاة وانغماسا في الذات ، مما يؤذي الآخرين ، وغالبا ما يأتي على الهدف نفسه ، ولعلنا نعلم جميعا ان الكثيرين ممن قدر لهـم أن يحتكوا بغوته استشاطوا غضبا بسبب أنانيته الجامدة •



قد يبدو من الغرور ان أرفض السير على هدى رجال يفوقونني كثيراً بحكمتهم،ولكنك،على الرغم من الشبه القوي الذي يجمع الناس، لن تجد اثنين يتشابهان تشابها تاما (بصمات أصابعنا أكبر دليل على ذلك) ، ولم أرَ ما يمنعني من اختيار طريقي ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وحاولت أن أضع لنفسي تصميما خاصا ، وأحسب ان هذا هو ما يمكن أن يوصف بإدراك الذات ممزوجا بإحساس حيوي من السخرية يقلب السيء الى أحسن ما يكون •• على ان هناك مسألة تعرض لي الآن ، سبق أن أجلتها حين عالجت مثل هذا الموضوع في أول الكتاب ، الا انه لم يعد في مقدوري أن أتجنبها ، وبالتالي لا بد لي من الإذعان لها ، وهي شعوري بأنني في مواضع كثيرة من الكتاب اعتبرت حرية الإرادة أمراً مفروغاً منه وتحدثت كما لو ان لي القدرة على أن أصوغ مقاصدي واوجه أعمالي وفق ما يحلو لي ، وفي مواضع اخرى تكلمت كما لو كنت أقبل بالحتمية • ومثل هذا الخلط يصبح مدعاة للأسف لو كنت اكتب مؤلفا فلسفيا وهذا ما لا أدعيه • ولكن كيف ينتظر مني ، وأنا من الهواة ، أن احل هذه المشكلة التي لما يكف الفلاسفة عن المجادلة بشأنها •

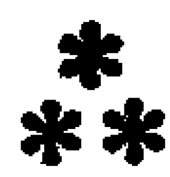
لقد كان من الاصوب أن أترك المسألة وشأنها لولا انها من القضايا التي يضطر كاتب الرواية الى معالجتها بوجه خاص لأنه يجد نفسه مضطرا ، بسبب قرائه ، الى أن يكون بنيانه متماسكاً ، وقد سبق لي أن اشرت في الصفحات الاولى من هذا الكتاب الى ان الجمهور لا يرغب أبدا في تقبل الدوافع الفطرية على المسرح ، والدافع الفطري هو حافز على العمل لا يشعر به المرء • انه مشابه للحدس الذي هو حكم تبنيه دون أن تشعر بالأسس التي استندت

اليها ، ومع ان الدافع الفطري له مبرراته الا ان الجمهور يرفض قبوله بسبب غموض هذه المبررات • وقراء الرواية ونظارة المسرحية يصرون على معرفة الاسباب الكامنة وراء التصرفات ، ولا يعترفون بإمكان حدوث الاعمال مالم تقدم بين يديها أسباب مقنعة ، فكل شخص يجب أن يتصرف وفق نفسية معينة ، أي انه يجب أن يعمل ما يتوقعه الناس منه حسب معرفتهم لـه • وللمؤلف أن يستعمل الدهاء ليقنعهم بقبول المصادفات والحوادث العارضة التي يسلمون بها في الحياة الواقعية دون أدنى تفكير ، انهـم حتميون ، والكاتب الذي يتصدى لانحيازهم العنيد هذا ، انما يعرض نفسه للضياع •

ولكنني حين ألقي نظرة على حياتي ، لا أستطيع الا أن الاحظ ان كثيرا من الامور التي أثرت تأثيرا اصيلا فيها مردها الى الظروف من حولي ، حتى ليصعب أن تنسب لغير المصادفة المحض • ان الحتمية تنبؤنا بأن الاختيـار تابع لخط المقاومة الصغرى أو الدافع الأقوى ، ولست شاعراً انني اتبعت دائماً خط المقاومة الصغرى ، واذا كنت اتبعت الدافع الأقوى فان ذلك الدافع كان فكرة من نفسي نميتها بالتدريج ، وهنا يرد بشكل رائع مثال الشطرنج ، رغم انه بال مهترىء •• ان القطع في حوزتي ، وعليّ أن اقبل الطريقة التي تتحرك بها كل قطعة ، وعليَّ أن اقبل حركات الشخص الذي ألعب معه ، ولكن يبدو لي انني أملك القدرة على ان احرك القطع من جهتي بملء الحرية وفقاً لما أرغب ، وما لا أرغب •• ووفقاً للهدف النهائي الذي وضعته نصب عيني •• ويبدو انني بين حين وآخر استطعت أن أقوم بمجهود لم يكن كله حتمياً ، فإذا اعتبرنا ذلك وهما فهو وهم له جدواه ، فالتحركات التي قمت بها كانت خاطئة غالبا ، وأنا موقن من ذلك الآن ، ولكنها اتجهت بطريقة أو بأخرى الى الغاية المنشودة • ووددت لو انني لم أرتكب أغلاطاً كبرى ، ولكنني لست آسفاً لما حدث ولا أتمنى الآن أن ابطل تلك الاغلاط •

ولست أسَفِّهُ الرأي الذي يقول ، ان كل ما في الكون يجتمع ليسبب كل ما نقوم به من أعمال ، بما في ذلك طبعاً الآراء والرغبات • ولن تستطيع

أن تقرر ان العمل الذي حدث مجرد من أية حتمية إلا حين تجزم الرأي حول وجود أو عدم وجود حوادث محتمة تماما وهي التي سماها الدكتور (برود) الاحداث الاصلية العارضة .. وقديماً أوضح « هيوم » انه لا توجد علاقة داخلية بين العلة والأثر يقوى العقل على إدراكها ، ومنذ أمد قريب ألقى مبدأ (عدم الحتمية Principle of Indeterminacy) ـ بما أظهـره من حوادث لا يمكن أن نعيّن أسبابها في الظاهر ـ الريبة في الجدوى الشاملة لتلك القوانين التي بـُني عليها العلم حتى الآن ، ويبدو ان الحظ ينبغي أن يركن اليه ثانية ، ولكن إذا لم نكن مقيدين بمبدأ العلة والاثر ، فلعل حريتنا تبعا لذلك ليست وهما ، وقد تشبث القساوسة والعمداء بهذه الفكرة الجديدة كأنما هي ذيل الشيطان الذي أملوا أن يجروا به الشيطان القديم الى الوجود مرة ثانية ، وانتشر نتيجة لذلك ابتهاج عظيم في قصور حكام الكنيسة ، ان لم نقل في بلاطات السماء ، وربما غـُنـّيت على الفور (صـلاة الشكر The Deum) ؛ ويحسن بنا أن نذكر ان اعظم عالمين في عصرنا ، ينظران بارتياب الى مبدأ (هايزنبيرغ) ، فقد صرح (بلانك) بأن الأبحاث المقبلة ستصل الى حد إلغـاء الشذوذ عن القـاعدة ، ووصف أينشتاين الأبحاث الفلسفية التي بنيت على مبدأ هايزنبيرغ بأنها (أدب) ، وأخشى أن تكون هذه الكلمة بديلا مهذبا لكلمة (هراء) . وعلماء الطبيعة أنفسهم يخبروننا ان الفيزياء تحرز تقدما سريعا حتى ان المرء لا يستطيع أن يحافظ على سويته العلمية إذا لم يتابع بدقة أبحاث المجلات الفيزيائية ، ومن التسرع بالتأكيد أن نبني نظرية على اسس يقدمها علم غير مستقر كالفيزياء ، وقد صرح «شرودنجر» نفسه بأنه يستحيل في الوقت الحاضر التوصل الى حكم شامل نهـائي في هذا الصدد ، أما الرجل العادي فله ملء الحق في أن يجلس على السياج ، ولعله يكون ذا بصيرة إذا ابقى رجليه متدلـّيتين الى ناحية الحتمية .



إن قوة الحياة مليئة بالعافية ، والبهجة التي ترافقها توازي كل الآلام والمشقات التي تواجه الإنسان • إنها تجعل الحياة جديرة بأن تعاش لأنها تعمل في داخل الإنسان وتضيء بلهيبها الساطع ظروف كل فرد حتى تبدو له محتملة ، مهما كانت في الاصل متجهمة • وكثير من التشاؤم ينشأ عن تخيل ما نشعره لو كنا في ظروف الآخرين ، وهذا (من بين أمور كثيرة) ما يجعل الروايات غير حقيقية ، لأن القاص يبني عالما عاما من عالمه الخاص ويمنح الشخصيات التي أبدعها من الحساسية وقوة التفكير والمقدرة العاطفية ما هو خاص به ، ومعظم الناس محدودو الخيال ولا يقاسون من الظروف التي تبدو غير محتملة عند واسعي الخيال • إن الافتقار الى العزلة ، مثلا ، يخيفنا نحن الذين نقدرها حق قدرها ، ولكن الفقراء لا يشاركوننا هذا الشعور — وهم يكرهون العزلة ويشعرون بالأمان مع الجماعة ، ولم يفت أحداً ممن عاشرهم أن يلاحظ انهم قليلا ما يحسدون الميسورين ، وتأويل ذلك انهم لا يشعرون بالحاجة الى كثير من الاشياء التي تبدو لغيرهم اساسية ، وهذا من حظ الميسورين ، لأن الاعمى وحده هو الذي لا يعترف ان حياة الطبقات الفقيرة في المدن الكبرى ليست إلا بؤسا وفوضى • ومن الصعب أن يقنع المرء نفسه بأن على الناس ألا يعملوا ، وبأن العمل أمر قابض للنفس ، وبأن عليهم أن يعيشوا دوما مع زوجاتهم وأطفالهم على حافة المجاعة ، فلا تحط مطامحهم بعد ذلك الا على الفقر المدقع •• واذا كانت الثورة تكفل إصلاح هذه الأوضاع فمرحبا بالثورة ولتكن على عجل• إنما حين نرى القسوة التي يعامل بها الناس بعضهم بعضا في أقطار اعتدنا أن نسميها متمدنة ، يصبح من التهور أن نعتقد انهم اليوم أحسن مما كانوا في الماضي ، ومع ذلك لا اخال انه من

الغباء الاعتقاد بأن العالم الحاضر بوجه عام يصلح للعيش أكثر مما كان في الماضي الذي يصوره لنا التاريخ ، وان حالة الاغلبية العظمى من الناس ، على تردّيها ، ليست أسوأ مما كانت عليه قبلا ، ويأمل الإنسان بحق أن يمّحي الكثير من نواحي البؤس التي يعاني منها الإنسان بفضل زيادة المعرفة وهجر كثير من الخرافات القاسية والأعراف المهترئة ، ونمو مشاعر العطف والمودة . ولا بد أن تستمر شرور كثيرة ، فنحن ألاعيب بيد الطبيعة ، وسوف تظل الزلازل تحدث الخراب والدمار ، والجفاف يتلف المحصولات ، والفيضانات المفاجئة تدمر المنشآت التي بناها الإنسان بأناة ، وحماقات الإنسان ستظل تدمر الامم بالحروب . وسيظل يولد اناس لا يصلحون للحياة ، فإذا هي عبء عليهم .. وما دام هناك أقوياء وضعاف ، فسوف يظل الضعاف تحت وطأتهم .. وما دام الناس مصابين بلعنة حب التملك ، وأحسبها لن تبارحهم أبدا ، فسوف يحاولون جهدهم أن ينتزعوا ما يملكه الضعاف .. وطالما بقيت فيهم غريزة إثبات الذات ، فسوف يمارسونها على حساب سعادة الآخرين . وباختصار ، ما دام الإنسان إنسانا ، فيجب أن يتهيأ لمواجهة كل شر يستطيع الصمود له .

ولست أري من تفسير للشر سوى انه جزء ضروري من نظام الكون ، والتعامي عنه عمل طفولي ، والنواح عليـه عمل لا يجدي .. وقد وصف سبينوزا الشفقة بأنها نسائية ، وكان لهذه الصفة صوت أجش على شفتي تلك الروح الناعمـة الرقيقة ، وأحسبه قصد بذلك ان إحساسك العنيف بما لا تستطيع أن تبدله ، ما هو إلا إتلاف للعاطفة .

وما أنا من المتشائمين ، ولا يحق لي عقلا أن أكون منهم ، لأنني كنت محظوظا في حياتي ، وقد عجبت كثيراً لحظي الحسن ، وأعتقد ان كثيراً من الرجال الذين هم أحق مني لم يحظوا بمثل ما حظيت به من حياة سعيدة ، وكان من السهل أن تخيب آمالي على صخور الحوادث التي انتابت غيري من ذوي الكفايات المساوية لي ، أو التي تفضلني ، وإذا قدر لأحد منهم أن

يقرأ هذه الصفحات ، فليعلم انني لا أفاخر فأنسب الى مزاياي ما نلته في حياتي، بل أنسب ذلك الى سلسلة من الظروف غير العادية لا أجد لها إيضاحا ، وقد سرني أن أعيش على ما فيّ من نقائص عقلية وجسمية ، وما أود أن أكرر حياتي ثانية لأنني لا أرى لذلك طعما ، ولا أرغب أن أعود الى معاناة ماعانيتهمنآلام، ذلك أنه من بين أغلاط طبيعتي أنني عانيت من آلامي أكثر مما سررت بأفراحي، لكنني لا امانع في أن أعيد الحياة ثانية اذا تخلصت من نقائصي الجسدية ، ووُهبت جسدا أقوى ، وعقلا أرجح .. إن السنوات التي تمتد أمامنا الآن يبدو أنها ستكون ممتعة ، والشبان اليوم يدخلون الحياة بتسهيلات لم تتح لأبناء جيلي قبلا ، فهم يقاسون منتقاليد أخفوطأة ، ويدركون قيمة الشباب. وحين كنت في العشرين كان عالمي من متوسطي العمر ، وكان علينا أن نجتاز الشباب بأقصى سرعة لكي نبلغ مرحلة النضج . ان شباب اليوم ينالون تهيئة أفضل لمواجهة الحياة فيتلك الطبقة الوسطى التي أنتمي إليها على الاقل، ويلقنون أشياء كثيرة مفيدة لهم كانعلينا أننلتقطها بأنفسنا كلبقدر طاقته ... والعلاقة بين الجنسين اليوم سوية أكثر من ذي قبل فقد تعلمت الشابات كيف يكن رفيقات للشبان ، وقد شهد جيلي حركة تحرير المرأة وكان عليه أن يواجه المشكلات التي نجمت عن ذلك : فالنسوة تخلين عن عملهن السابق في تربية الجيل الجديد وخدمته وعن حياتهن السابقة المنفصلة عن حياة الرجال باهتماماتها الخاصة ، وأخذن يحاولن الاشتراك في شؤون الرجال وهن غير مؤهلات لذلك ، وعملن على الاحتفاظ بالاعتبار الذي كان من حقهن حين كن قانعات بمرتبة دون مرتبة الرجال ، وأصررن ، الى ذلك ، على حقهن .. حقهن الجديد المكتسب في المشاركة بنواحي النشاط التي اختص بها الرجال ، والتي لا يعرفن عنها سوى ما يؤهلهن لأن يجعلن من نفوسهن مصدر إزعاج ، فقد انقطعن عن أعمال البيت قبل أن يتعلمن اصول الزمالة والاختلاط . وليس من منظر أمتع عند سيد مسن من منظر فتاة اليوم بجدارتها وثقتها بنفسها ومقدرتها على إدارة المكتب ، ولعب كرة المضرب ،

والاهتمام الذكي بالقضايا العامة ، وتذوق الفنون ، ومواجهة الحياة بقدم ثابتة وعين نافذة متفهمة •

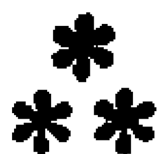
وما أبعدني عن ارتداء مسوح الواعظ ولكنني أسمح لنفسي أن أقول : إن الشبان الذين يعملون في المسرح اليوم ينبغي أن يحسبوا حساب التغييرات الاقتصادية التي سوف تبدل أحوال المدنية • وفي رأيي انهم لن يعرفوا الحياة السهلة الآمنة التي جعلت كثيراً ممن كانوا في أوج شبابهم قبل الحرب ينظرون الى تلك السنوات نظرة الجيل الذي أعقب الثورة الفرنسية الى نظام الحكم القديم (Ancien Régime) وكذلك لن يعرفوا حلاوة الحياة • فنحن نعيش على شفا ثورات عظام ، ولست أشك في ان الطبقات الشعبية (البروليتاريا) ، مع ازدياد وعيها لحقوقها ، ستمسك بزمام السلطة في قطر بعد آخر ، وما زال يستبد بي العجب لأن الطبقات الحاكمة اليوم تنوي الاستمرار في كفاحها ضد هذه القوى الهائلة ، بدلا من أن تبذل كل جهد لتدريب الكتل الشعبية على مهمات الحكم المقبلة ، لعلها ، حين تأزف ساعتها ، تتفادى بعض ما حل من قسوة بالطبقات الحاكمة في روسيا ، وقديماً اخبر دزرائيلي هذه الطبقات ما ينبغي أن تفعله • أما أنا فعليّ أن أقول بصراحة إنني أود لو تدوم الاوضاع الراهنة حتى ينتهي أجلي ، ولكننا نعيش في زمن سريع التغير ، وربما قدر لي أن أرى دول الغرب تخضع لحكم الشيوعية • وقد أخبرني روسي منفي انه حين فقد أملاكه وثروته استسلم لليأس ، ولكنه في مدى اسبوعين استعاد هدوءه ولم يلتفت بعد ذلك الى الخسارة الفادحة التي حلت به ، ولست أعتقد انني متعلق بأملاكي المختلفة بحيث اندم طويلا على فقدها ، وإذا قدر لمثل هذه الظروف أن تحيق بعالمي ، فسوف ابادر الى محاولة التكيف مع الاوضاع الجديدة ، واذا وجدت الحياة غير مقبولة فلا أظن ان شجاعتي ستخونني حين أعزم على ترك مسرح لم أعد قادراً على تأدية دوري فيه بما يرضيني ، وإني لأعجب كيف يذعر الناس من ذكر الانتحار ، فمن الهراء أن نتحدث عنه بجبن ، وإني لأقرّ الرجل الذي يضع حداً لحياته

بملء إرادته حين لا تقدم له الحياة إلا الآلام والمصائب .. أو لم يقل (بلني Pliny) : إن قوة الموت ، حين تشاؤها ، هي أفضل ما وهب الله للإنسان وسط كل مآسي الحياة ؟ . وبعيداً عن رأي الذين يعتبرون الانتحار خطيئة — باعتباره ينتهك قانوناً مقــدساً — أعتقد ان سبب السخط الذي يثيره الانتحار عند كثير من الناس هو كونه يسفّه قوة الحياة ، ويلقي ظلا مرعباً من الشك على قدرة غريزة البقاء على حفظ البقاء ، حين يحيلها الى لا شيء ، وهي أقوى غرائز الانسان .

وبإنجاز هذا الكتاب ، أكون قد قدمت موجزاً كافياً للنمط الذي صممته لحياتي ، وإذا امتد بي العمر فسأعمل على تأليف كتب اخرى أسلي بها نفسي، وآمل أن أسلي بها القراء أيضاً ، وإن كنت أعتقد انها لن تضيف شيئاً أساسيا إلى نمط حياتي هذا ، فالدار مبنية سلفاً ، وربما لحقتها بعض التحسينات ، من شرفة تطل على مناظر جميلة الى رواق مشجر يردّ حرارة الصيف ، وربما أدركني الموت قبل أن أفعل ذلك .. ولكن الدار قد شيدت ولن يضيرني أن يبدأ الهادمون عملهم فيها بعد يوم واحد من دفني .

إن الشيخوخة التي أواجهها لاتضايقني . وقد قرأت في مقالة كتبها أحد الاصدقاء ، ان اورنس العرب قد مات أثناء قيادة دراجته النارية وهي التي تعود أن يقودها بسرعة جنونية ، مترقباً أن تنتهي حياته بحادث قبل أن يفقد سيطرته على قواه ، وبذلك يوفر على نفسه مهانة الشيخوخة .. ولو صح ذلك لكان آية ضعف شديد في تلك الشخصية الغريبة المسرحية نوعاً ما ، لأنه يدل على افتقار الى الحس السليم ما دام النموذج الكامل للحياة لا بد أن يحوي مرحلة الشيخوخة الى جانب الشباب والكهولة .. ان جمال الصباح وألق الظهر بديعان ، والسخيف هو الذي يسدل الستائر في أثرهما ليهرب من هدوء المساء ، والشيخوخة لها مسراتها التي لا تقل عن مسرات الشباب أثراً ، وان كانت تختلف عنها .. ألم يخبر الفلاسفة اننا عبيد انفعالاتنا ؟ .. فهل التحرر من سلطانها عمــل بسيط ؟ والاحمق الــذي يظل أحمق في

شيخوخته ، ألم يكن كذلك في شبابه ؟ إن الشبان يرتعدون من ذكر الشيخوخة ، لأنهم يعتقدون انهم حين يبلغونها سيحتفظون بصبوتهم الى الاشياء التي تكسب شبابهم دفقاً وغنى ، وهذا خطأ فادح •• ان الرجل الهرم لا يستطيع أن يتسلق الالب ، أو ينقض على فتاة رشيقة في السرير ، وصحيح انه لا يقوى على إثارة الشهوة في الجنس الآخر ، ولكنه مقابل ذلك يستريح من آلام حب لا يلقى تجاوباً ، وغيرة تؤرقه وتعذبه ، ويتخلص من سموم الحسد التي تفتك بالشباب نتيجة رغائبهم المتأججة ، وهذه هي المعوضات السلبية للشيخوخة •• ولكن هناك تعويضاً ايجابياً يتجلى في وفرة الوقت عند الشيخ ، وهي حقيقة قد تبدو متناقضة للوهلة الاولى • وفي شبابي عجبت كثيراً حين قرأت ماذكره بلوتارك من ان (كاتو) الاكبر بدأ يتعلم اليونانيه في سن الثمانين ، والآن زال العجب • إن الشيخ يتصدى لأعمال ينفر منها الشباب لأنها تستغرق وقتا طويلا ، ثم إن الذوق يتحسن مع الكبر فيستمتع الشيخ بالفن والادب بعيداً عن انحراف الذوق الشخصي الذي يفسد أحكام الشاب ، ويكون إرضاء الذوق غاية مقصودة لذاتها مجردة من نوازع الانانية البشرية • ويشعر الشيخ بحرية نفسية فتبتهج روحه في اللحظة الحاضرة دون أن تتشبث ببقائها ، ولا غرو فالخطة بلغت نهايتها •• لقد تمنى غوته استمرار الحياة بعد الموت لكي يدرك بعض جوانب من نفسه شعر ان وقته في الحياة لم يتح له تعمقها ، أوليس هو القائل : إن من أراد أن ينجز أمراً ينبغي أن يقيد نفسه ؟•• وحين تقرأ حياته لابد أن تصدمك طريقته في إضاعة وقته على مقاصد تافهة ، ولو انه قيد نفسه بعناية أكثر فربما كان استطاع أن ينمي كل ما يمت الى فرديته الخاصة ، وبالتالي لم ير حاجة الى حياة جديدة ••



يقول سبينوزا ، ان الحر لايفكر في شيء أقل مما يفكر في الموت • الحق أنه ليس من الضروري ان يلح المرء على التفكير به ، ولكن من السخف، كما يفعل الكثيرون النفور من أي تأمل فيه ، ويحسن بالمرء أن يجزم الرأي بشأنه • وإنه لمن المستحيل أن يعرف المرء ، إلا في ساعة الموت هل يخيفه الموت أم لا • وقد حاولت مراراً أن أتخيل مشاعري لو ان طبيبا أخبرني انني أعاني من داء عضال ، وان أيامي في الحياة قليلة ، ووضعت هذه المشاعر على ألسنة شخصياتي المختلفة ، حتى صرت أشعر بأن الناحية المسرحية غلبت عليها ، بحيث لا أستطيع الجزم بأنها المشاعر نفسها التي سوف أحس بها فعلا ، ولست أعتقد أن لي قبضة غريزية قوية على الحياة ، فقد عانيت من عدة أمراض ، وعرفت مرة واحدة في حياتي انني كنت قاب قوسين من الموت ، ثم انهكني التعب حتى فقدت القدرة على الخوف وصار منتهى أملي أن أخلص من الصراع على نحو ما • إن الموت محتم ولا شأن للأسلوب الذي يواجه به ، ولا يلام الإنسان في رأيي إذا تمنى أن لا يشعر بقدومه ، وان يسعفه الحظ ليقضي نحبه بدون ألم •

وقد دأبت طوال حياتي على ان أعيش للمستقبل حتى غدوت الآن — على قصر ما تبقى من مستقبلي — غير قادر على ترك هذه العادة ، ومازال ذهني ينظر الى الامام بنوع من الارتياح الى إكمال النموذج الذي صممنه لحياتي خلال السنوات المقبلة • وأحيانا تمر بي لحظات أنحرق شوقاً فيها الى لقاء الموت ، وتستبد بي الرغبة الى ان أطير اليه كما يطير المحب الى ذراعي حبيبه ، إنه يسبب لي الهزة الحماسية نفسها التي كانت تبعثها في الحياة أيام الشباب ، ويسكرني التفكير به لانني أتصور انه يوفر لي الحرية المطلقة النهائية ؛ على انني أرغب في أن تستمر حياتي مادام الاطباء قادرين

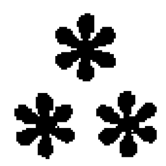
على إبقائي في صحة معقولة ، فأنا أتمتع بمشاهدة العالم ، ويلذ لي أن أتابع ما يحدث فيه ، وإذ انقضاء آجال كثيرة سار أصحابها في المضمار نفسه الذي كتب لي في الحياة ، يمنحني غذاء مستمراً للتأمل ولتأكيد نظريات كونتها منذ أمد طويل • ثم إنني أتألم لفراق أصدقائي ، ولا أستطيع أن أتخلى عن مسؤوليتي تجاه مصلحة بعض الذين أرشدتهم وحمستهم ، وإن كنت أحسب انه قد آن لهم ، بعد أن طال اتكالهم عليّ ، أن ينالوا حريتهم مهما تكن النتيجة • وأنا قانع ان الفراغ الذي سأخلفه في الحياة بعد أن كان لي فيها مكانة معينة لمدة طويلة ، لابد أن يملأ بسرعة ، ثم ان النموذج الذي وضعته لنفسي ينبغي أن يبلغ تمامه ، حتى اذا ماوصل الى غاية لايمكن إضافة مزيد إليها دون إتلافه ، تكون ساعة رحيل الفنان قد أزفت •

ولكن إذا خطر لاحد أن يسألني الآن عن معنى النموذج أو جدواه ، فليس لي إلا أن أجيبه بكلمة « لا » • انه مجرد شيء أضفيته على الحياة التي لا معنى لها لانني روائي ، فقد شكلت حياتي وفقا لتصميم معين له بداءة ، ووسط ، ونهاية ، كما كنت أُركّب من حياة الذين قابلتهم هنا وهناك رواية ، أو اقصوصة ، أو تمثيلية ، وكان في هذا التصميم ارضاء لنفسي ، وسلوى ، وسداد لما شُبِّهَ لي أنه حاجة عضوية •• إننا نتاج طبائعنا وبيئاتنا وأنا لم أضع لنفسي النموذج الافضل ، ولا النموذج الذي وددت أن يكون، بل وضعت مجرد نموذج يمكن تطبيقه ، وهناك نماذج أفضل من نموذجي • ولست أصدق انني مجرد متأثر بالوهم الذي يلازم المتأدبين فيحسبون ان أفضل نموذج على الاطلاق هو نموذج الفلاح الذي يحرث أرضه ، ويحصد محصوله ، ويستمتع بجهده كما يستمتع بفراغه ، ويحب ، ويتزوج ، وينجب، ويموت • والحق انني حين اطلعت على حياة الفلاحين في تلك الاراضي الخصبة التي تمنح تربتها الخير الوفير دون جهد مضن ، والتي تبدو فيها مسرات الفرد وآلامه شيئاً في طبيعة الجنس البشري ، خيل إليّ ان الحياة الكاملة يمكن إدراكها تماما هناك ، حيث تسير الحياة من بداءتها الى نهايتها في خط ثابت مستقيم ، كما في القصة الجيدة •

تدفع الإنسان أنانيته الى رفض الاعتراف بأن الحياة لامعنى لها ، وحين يفاجا بأنه لم يعد قادراً على الإيمان بقوة اسمى يمكن ان يتملق نفسه بخدمة غاياتها ، يسارع إلى إضفاء الاهمية على الحياة ، ببناء قيم معينة ، وراء تلك القيم التي تحوط مصالحه الآنية • وقد اختارت حكمة الاجيال ثلاثا من هذه القيم ووضعتها في الصدارة ، فإذا استهدفها الإنسان لذاتها استطاع أن يضفي على الحياة معنى ما ، وبالرغم من ان المرء يصعب أن يرتاب في انها ذات منفعة حياتية (بيولوجية) إلا أنها قيم تتسم بمظهر سطحي يوحي بتجردها فيتوهم الإنسان انه يستطيع ان يفزع إليها هربا من العبودية البشرية •• إن النبل الكامن في هذه القيم يقوّي إحساس الانسان المتأرجح بأهميته الروحية ، ويظهر ان نشدانها يبرر له الجهود التي يبذلها ، مهما تكن النتجة ، وهي أشبه بواحات في بيداء الوجود المترامية ، يقنع الانسان نفسه ، طالما انه لا يعرف نهاية أخرى لرحلته في هذه الدنيا ، بأنها على أي حال تستحق أن يسعى المرء اليها ، حيث يجد عندها الراحة والحل لمشكلته •• وهذه القيم هي الحق والجمال والخير •

وفي رأيي ان الحق يحتل مكانه في هذه القاعة لاسباب بلاغية ، ومن عادة الانسان أن يكسو الحق بصفات أخلاقية كالشجاعة والشرف والاستقلال الروحي ، وهذه الصفات تبدو غالبا في إصراره على « الحق » وإن كانت لا تمت إليه فعلا بأية صلة ، ولكن الإنسان يجد فيها فرصة كبرى لتأكيد الذات ، فيقدم على أية تضحية تتطلبها ، فيكون اهتمامه إذاً منصباً على نفسه ، لا على الحق ، وإذا كان الحق قيمة فذلك لانه حق ، لا لأن قوله شجاعة •• ولكن الحق مجموعة من الأحكام ، ولا يمكن أن نفترض ان قيمته تكمن في الاحكام

التي يتضمنها لا في ذاته ، فالجسر الذي يصل مدينتين كبيرتين هو أهم من الجسر الذي يصل حقلين مجدبين • واذا كان الحق من القيم الاساسية فمن الغريب أن لا يوجد من يعرف ماهيته ، ومازال الفلاسفة يختصمون حول معناه ، وأنصار المذاهب المتنافسة يسخر بعضهم من بعض ، وفي مثل هذه الظروف يحسن بالرجل العادي أن يتركهم لشأنهم ويقنع نفسه بالحق كما يعرفه الناس العاديون • وهو عندهم أمر بسيط جدا ، مجرد تأكيد لموجودات معينة ، وسرد صريح للوقائع ، وإذا كان هذا قيمة فلنقرّ بأن لاشيء مجحود مثلها • ان الكتب التي تبحث في الاخلاق تعطي قوائم طويلة عن الاسس التي يمكن أن يستند اليها الحق شرعاً ، وليت مؤلفي هذه الكتب وفروا على أنفسهم هذا العناء ، فقد قررت حكمة الاجيال منذ زمن بعيد انه (لايستحسن أن تقال كل الحقائق) • والإنسان ضحى دائماً بالحق على مذبح غروره وراحته ومصلحته ، وهو لا يعيش في ضوء الحق بل في ضوء الإيهام •• ومثالية الإنسان ، كما يخيل إلي دوما هي مجرد جهده لإضفاء ميزة الحق على الحوادث التي ابتدعها إرضاء لغرور نفسه •



— ٧٦ —

أما « الجمال » فهو في حال أفضل .. وقد دأبت على الاعتقاد خلال سنوات عدة بأن الجمال وحده هو الذي يسبغ أهمية على الحياة ، وان الهدف الوحيد الذي يجب أن تضعه الاجيال المتعاقبة على سطح الارض نصب اعينها ، هو إنجاب فنان بين فترة وأخرى ، وكنت متأكدا ان العمل الفني هو تاج فعاليات الإنسان والمبرر النهائي لكل البؤس ولكل العناء الذي لا نهاية له ، ولكل الجهود الخائبة في دنيا الإنسان . وخيل إلي انه لا بأس أن تكون ملايين مغمورة من البشر ، ولدت ، وعانت ، وماتت ، في سبيل ان يتمكن ميشيل انجلو من رسم أشكال معينة على سقف كنيسة « سيستين » ، وفي سبيل أن يتمكن شكسبير من كتابة بعض الاحاديث ، وكيتس من نظم بعض القصائد . ومع انني عدلت هذه الآراء المتطرفة فيما بعد ، وذلك بتصنيف الحياة الجميلة مع منجزات الفن التي تعطي وحدها معنى الحياة ، ظل الجمال هو القيمة الاولى عندي . إلا انني هجرت هذه الآراء كلها من زمن بعيد .

واكتشفت بادىء ذي بدء ان الجمال توقف كامل ، وحين فكرت في موقفي من الاشياء الجميلة وجدت انه يتلخص في الحملقة والإعجاب ، وكانت هذه الأشياء تعطيني انفعالا بديعا ، ولكنني لم أستطع الاحتفاظ به ولا استعادته ، وانتهت أجمل الأشياء بالعالم إلى إملالي ، ولاحظت أنني حظيت بارتواء أطول ، أمام الاعمال الفنية المبتدئة ، لانها لم تبلغ بعد ذروة النجاح ، وبذلك فسحت المجال لنشاط خيالي . اما في الاعمال الفنية العظمى فقد حسبت لكل شيء حسابه ، إذ لا مجال فيها للزيادة ، وقد تعبت من مجرد التأمل السلبي ، وخيل إلي ان الجمال كذروة القمة في الجبل ، إذا ما بلغتها لا يبقى أمامك إلا ان تعود ادراجك ، والكمال لا يخلو من البلادة ، ومن

مهازل الحياة أننا جميعاً نصبو إلى بلوغه بينما يحسن بنا أن لا نستكمل أسبابه تماما •

وأحسب أننا نعني بالجمال ذلك الشيء الروحي أو المادي ، وغالبا المادي، الذي يرضي حاسة الجمال عندنا ، وهذا الكلام يفيدك عن الجمال بقدر ما يفيدك عن الماء قولك إنه مبلول • وقد قرأت كتبا كثيرة لأكتشف ان ما تقوله المراجع لايفيد إلا إيضاحا بسيطا ، وعرفت معرفة وثيقة عددا كبيرا من المهتمين بالفنون ، وأخشى انني لم أتعلم منهم ولا من الكتب شيئاً مجدياً جدا في هذا الصدد ، ومن أعجب الاحكام التي انتهيت اليها ان الاحكام الجمالية ليست ثابتة •• إن المتاحف تعج باشياء اعتبرها مثقفو جيل من الاجيال جميلة ، ولكنها تبدو لنا اليوم عديمة القيمة ، وشاهدت في حياتي الجمال يتبخر من القصائد واللوحات التي كانت جميلة الى عهد غير بعيد ، كما يذوب الجليد تحت شمس الصباح • ومهما بلغ بنا الغرور ، يجب أن لا نعتقد بأن احكامنا نهائية ، فإن ما نعتبره جميلا قد يكون قبيحا في جيل آخر ، ومـا نحتقره اليوم قد يرفعه جيل ما الى مرتبة الشرف •• والخلاصة ان الجمال نسبي في حدود حاجات الجيل ، ومن العقم أن نطبق على الاشياء التي نعتبرها جميلة مقاييس جمالية مطلقة • وإذا كان الجمال إحدى القيم التي تعطي الحياة أهمية فهو شيء يتغير أبدا ، وبذلك لا يمكن تحليله لاننا لا نكاد تتذوق الجمال الذي شعر به أجدادنا إلا بمقدار مانستطيع أن نستنشق عبير الورود التـي استنشقوهـا •

وقد حاولت أن أعرف من الذين كتبوا في علم الجمال ما هي تلك الخاصية في الطبيعة البشرية التي تمكننا من أن نحس بانفعال الجمال ، وما هو هذا الانفعال بالضبط •• لقد اعتاد الناس أن يتحدثوا عن الغريزة الجمالية ، والاصطلاح يعني ان للجمال مكانا بين الدوافع الرئيسية للانسان كالجوع والجنس ، وان له صفة نوعية ترضي ميل الفلاسفة الى الوحدة • وهكذا يكون الجمـال منبثقاً من غريزة للتعبير وفيـض من الحيوية وإحساس صوفي

بالمطلق ، وخلاف ذلك مما لا أعرفه •• أما أنا فوددت لو أقول إنه ليس غريزة أبدا ، ولكنه حالة جسمية عقلية مبنية من جهة على بعض الغرائز القوية ،ومن جهه أخرى مختلطة بالطبائع الانسانية الناتجة عن عملية النمو ، وبالظروف العامة للحياة الإنسانية • أما أن الجمال ذو صلة وثيقة جدا بالغريزةالجنسية، فذلك ظاهر في إجماع الناس على الاعتراف بأن الذين يتمتعون بحس جمالي أعمق من المعتاد ، متطرفون جنسياً الى درجة مرضية غالبا • وقد يكون في التركيب « العقلي الجسدي » للإنسان شيء يجعل بعض الأصوات والأنغام والالوان جذابة بنوع خاص ، وبذلك يمكن التحدث عن السبب الجسدي في إدراك الجمال • ولكننا نعتبر الاشياء جميلة أيضا لأنها تذكرنا بموضوعات أو أناس وأماكن سبق أن أجبناها ، أو أسبغ عليها مرور الزمن قيمة عاطفية عندنا • ونحن نجد الأشياء جميلة لأننا نتعرف عليها ، والعكس صحيح أيضا إذ نجد بعض الأشياء جميلة لأنها تفجؤنا بجدتها ، وهذا كله يعني أن الترابط ، إما بالتشابه ، أو بالتباين ، يدخل في انفعال الجمال بشكل رئيسي ، ولا أعرف بين المفكرين من درس تأثير الزمن في خلق الجمال ، فنحن لا ندرك جمال الاشياء كلما تعمقنا في معرفتها وحسب ، بل يزيد من جمالها عندنا ابتهاج الاجيال المتتالية بها ، وأحسب أن هذا الأمر يعلل ظاهرة إجماع الناس اليوم على جمال بعض الآثار التي لم تحظ بانتباه عظيم وقت ظهورها ، وإنني لاشعر ان قصائد (كيتس) أجمل اليوم ، مما كانت يوم نظمها ، فقد أغنتها انفعالات كل أولئك الذين وجدوا السلوى والقوة في حلاوتها • وهكذا نجد ان انفعال الجمال ليس أمرا بسيطا نوعيا ، بل هو شيء معقد مكون من عناصر مختلفة ومتباينة في الاغلب ، وليس من حق عالم الجمال أن يقول إنه لايجدر بك أن تتأثر بلوحة أو لحن لأنهما يملآن نفسك بإثارة غرامية ، أو يسيلان دموعك بتذكيرك مشهداً مر عليه الزمن ، أو يسموان بك الى إشراق صوفي بما فيهما من ارتباطات •• ان هذا من حقك أنت ، وهذه النواحي جزء لايتجزأ من انفعال الجمال ، شأنها شأن الإعجاب المجرد بالتوازن والتركيب •

ماهو بالضبط رد فعل الإنسان أمام العمل الفني العظيم ؟ وما هو شعوره حين ينظر مثلا الى (لوحة الدفن) لتيتيان فياللوفر، او يستمع الى (الخماسية) في اوبرا « مايستر سنجر » ؟ إنني أعـرف شعوري ، فهو إثارة تمنحنـي إحساسا بالانتعاش عقليا ، ولكنه ممزوج بالحس ، وتمنحني شعورا بالرضى يخيل إلي أنني أميز فيه قوة دافعة وتحرراً من الروابط التي توثق الإنسان ، وفي الوقت نفسه تخامر نفسي رقة مفعمة بالتعاطف الإنساني ، وأشعر براحة وسكينة وسمو روحي •• وبالفعل ، حدث في بعض المناسبات انني كنت أتأمل بعض اللوحات أو التماثيل ، أو استمع إلى موسيقى معينة ، فيثور في نفسي انفعال عميق لا استطيع ان أصفه إلا بالكلمات نفسها التي يستعملها الصوفيون لوصف اتحادهم مع الله ، ولهذا السبب قلت دوماً إن ذلك الشعور بالاتحاد مع حقيقة كبرى ليس وقفا على المتدينين فقط ، ويمكن بلوغه بطرق أخرى غير الصوم والصلاة (ولكنني ساءلت نفسي مافائدة هذا الانفعال ؟) إنه بالطبع متعة وبهجة في حد ذاته ، وهذا حسن ، ولكن ماذا فيه حتى يكون ارفع من اللذات الاخرى ؟ ارفع منها الى حد ان اعتباره بين اللذات يعنـي الحط من شأنه ؟•• وبعد ، هل كان (جيرمي بنتام) سخيفا جدا حين قال : إن أنواع السعادة متساوية ؟ وإذا كانت كمية السعادة متساوية ، فلعبة (غرز الدبابيس) تعطي لذة كلذة الشعر !•• وقد اعطى الصوفيون جوابا غير ملتو فقالوا : إن الإشراق لا قيمة له ما لم يمد الشخصية بالقوة ، ويزيد من قدرة الإنسان على العمل الصحيح ، فقيمته إذاً كامنة في الاعمال •

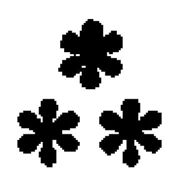
وقد أتاح لي القدر أن أعيش مع عدد كبير من الناس يتمتعون بحاسة تذوق الجمال ، ولست أقصد المبدعين ، وهناك فرق كبير في رأيي بين الذين يبدعون الفن وبين الذين يتمتعون به ، فالمبدعون إنما يقومون بعملية الخلق بسبب ذلك الحافز الداخلي الذي يحملهم على عرض مافي أنفسهم ، وإذا توافر الجمال فيما يخلقونه فما ذاك إلا مصادفة نـادراً ما تكون من بـين أهدافهم •• إن هدفهم هو إراحة أنفسهم من ذلك العبء الذي يثقل عليهم ،

ويستعملون لذلك وسائل تسهل لهم طبيعتهم استخدامها ، كالقلم ، والالوان، والصلصال •• وإنما أقصد الآن من جعلوا همهم الاول في الحياة تأمل الفن وتذوقه ، ولم أرَ في هؤلاء مايستحق الإعجاب ، فهم مغرورون راضون عن أنفسهم ، ينظرون باحتقار الى الذين يقومون بأعمالهم المتواضعة التي رماهم بها القدر ، بينما هم أعجز الناس عن تولي مهام الحياة العملية ، ولأنهم قرؤوا عدداً ضخماً من الكتب ، وشهدوا عدداً مثله من اللوحات ، فهم يظنون أنفسهم أعلى درجة من غيرهم ، ويفزعون الى الفن ليهربوا من واقع الحياة •• ومن خلال احتقارهم السخيف للامور العادية ، ينكرون قيمة الفعاليات الاساسية في الحياة الإنسانية •• إنهم ليسوا بأفضل من مدمني المخدرات ، بل أسوأ منهم ، لان مدمن المخدرات مهما يكن أمره ، لا يترفع عن الناس ولا ينظر اليهم من عل •

إن قيمة الفن تكمن في أثره ، كما هو شأن الطريقة الصوفية ، واذا لم يستطع الفن ان يعطي سوى اللذة ، مهما كانت هذه اللذة روحية خالصة ، فليس يترتب عليه شيء ذو بال ، بل لا يكون في نتائجه أهم من تناول اثنتي عشرة محارة ونصف لتر من (الموتتراشيه) ••• وإذا كان الفن عزاء فلا بأس بذلك ، مادام العالم يعج بالشرور المحتمة ، ويحسن بالمرء أن يكون له تراث يتفرغ اليه من حين لآخر ، لا بقصد الهرب من الواقع ، بل ليمد نفسه بقوة جديدة تعينه على الصمود ، لان الفن ، إذا جاز ان يعد من بين القيم الكبرى في الحياة ، فيجب أن يعلم الناس التواضع والاعتدال والحكمة والحلم •• إن قيمة الفن ليست الجمال ، بل العمل الصحيح •

ومادام الجمال قيمة كبرى من قيم الحياة ، فمن الصعب أن نصدق ان الحاسة الجمالية التي تمكننا من تذوق الجمال وقف على طبقة معينة ، ومن المستحيل ان نعتقد بأن شكلا من أشكال الإدراك الحسي تحتكره النخبة يمكن أن يعد ضرورة للحياة الإنسانية ، ومع ذلك فإن هذا هو ما يدعيه علم الجمال •• وعليّ أن أعترف بأنني كنت أرتاح ارتياحاً شديداً للاعتقاد

بأن تذوق الفن وقف على القلة المختارة ، وذلك أيام الشباب الغر ، أيام كان الفن عندي تاج الجهد الانساني ومبرر الوجود (وكان يشمل جمال الطبيعة أيضاً لانني كنت ، ومازلت ، أميل كثيرا الى التأكيد بأن جمال الطبيعة نشأ على يد الإنسان كما نشأت اللوحات والسيمفونيات) ، ولكنني سرعان ما أضربت عن هذه الافكار ، فالفن لا يمكن أن يكون إقطاعا لفئة معينة ، وأنا أميل الى الاعتقاد بأن الاثر الفني الذي لا يتذوقه الا أشخاص تلقوا تدريباً خاصاً ليس بشيء ، شأنه في ذلك شأن الفئة التي تتذوقه ، ولا يكون الفن عظيماً مرموقاً الا اذا أمكن أن يتذوقه جميع الناس ، والفن الذي يخص عصبة دون غيرها ليس إلا لهوا ، ولست أدري لم يصار الى التمييز بين الفن القديم والفن الحديث ، فالفن واحد وهو حي ، ومحاولة تقسيم حياة الفن بناءً على ارتباطات تاريخية أو ثقافية أو أثرية ضرب من اللغو ، وليس يغير من واقع الحال شيئاً أن يكون التمثال منحوتا بيد يوناني قديم أو فرنسي محدث، والمهم أولاً وآخراً أن يبعث فينا الهزة الجمالية ، وان تحركنا هذه الهزة الى العمل والإنتاج • وإذا كان لتأثير الفن أن يتعدى إلانة النفوس وإرضاءها ، فعليه أن يقوي الشخصية ويزيد من قدرتها على العمل الصحيح • وما أقل ما أحب الوعظ ، ولكنني لا أستطيع إلا أن أقبله هنا ، ذلك ان العمل الفني يقاس بما يعطيه من ثمار ، وإذا كانت ثماره غير صالحة فهو معدوم القيمة ، ومن الحقائق الشاذة التي تفرضها طبيعة الاشياء ولا اجد لها تفسيرا ان الفنان يمارس تأثيره التوجيهي إذا لم يستهدفه عامداً ، وتكون موعظته أبلغ أثراً اذا لم يشعر انه يقف موقف الواعظ ، فالنحل ينتج الشمع لأغراضه الخاصة دون أن يشعر ان الإنسان يستخدمه لمنافع مختلفة •



وهكذا إذن يستحيل أن ننسب الى كل من الحق والجمال قيمة ذاتية ..
فماذا عن « الخير » ؟ .. أود قبل ان أتكلم عنه ان القي نظرة على الحب ،
لان هناك فلاسفة اعتقدوا انه يجمع كل الناس فاعتبروه اسمى القيم الإنسانية،
واتفقت الافلاطونية والمسيحية على إعطائه أهمية صوفية . ثم ان الأبعاد
المختلفة لكلمة (الحب) تضفي عليه انفعالا يجعله أشد إثارة من الخير الواضح
الدي يبدو إزاءه بليداً نوعاً ما . وللحب معنيان ، احدهما الحب الصافي
البسيط ، وأعني به الحب الجنسي ، والثاني « الحب العطف » ، وأحسب
ان افلاطون نفسه لم يميز بينهما تمييزاً دقيقاً ، ويخيل الي انه ينسب النشوة
والإحساس بالقوة والشعور بانتعاش الحيوية — وهي الامور التي ترافق
الحب الجنسي — ينسبها الى النوع الثاني من الحب الـذي يسميه الحب
السماوي ، والذي أفضل أن أسميه « الحب العطف » ، وبهذا يعديه أفلاطون
برذيلة الحب الارضي التي لا يمكن أن تستأصل شأفتها ، فالحب يمضي
والحب يموت ، والمأساة الكبرى في الحياة لا تكمن في فناء الناس بل في
توقفهم عن الحب ، فإذا ما توقف عن حبك من تحبه فذلك شر عظيم من
شرور الحياة لا سبيل الى تفاديه ، وحين اكتشف (لاروشفوكو) أن بين
كل محبين اثنين واحداً يحب ، والآخر يدع نفسه تتلقى الحب ، فقد جعل
من هذا الواقع الشاذ أمثولة من شأنها ان تمنع الإنسان الى الابد من إحراز
السعادة الكاملة في الحب ، ومهما تنكر الناس للحقيقة وتهجموا عليها ، فليس
من شك في ان الحب يعتمد على إفرازات معينة في الغدد الجنسية ، وعند
الاغلبية العظمى من الناس لا تستمر هذه الغدد في الاستجابة للمؤثر نفسه
الى ما لا نهاية ، ولكنها تذوي مع كرّ السنين .. ولكن الناس يتهربون من

مواجهة هذه الحقيقة ، ويشترونها بالنفاق، ويخدعون أنفسهم بأنهم يستطيعون أن يتقبلوا انطفاء الحب راضين ، لانه يؤول الى ما يسمونه بالمودة الصادقة المتينة، كأنما المودة تمت بصلة الى الحب.. إن المودة تنتج عن العادة واتفاق الاهتمامات والتلاؤم والرغبة في المصلحة ، وهي راحة لاانتعاش . ونحن مخلوقات طبعت على التغير ، والتغير هو الجو الذي تتنفس فيه ، فهل يعقل ان تخرج الغريزة عن هذه القاعدة وهي تلك التي تحتل المرتبة الثانية في القوة بين جميع الغرائز ؟.. لسنا الآن الاشخاص انفسهم الذين كانوا في العام الماضي ، وكذلك احباؤنا ، وما اسعدنا اذ نستطيع مع تغيرنا ان نحب الاشخاص الذين تغيروا .. إننا في معظم الاحوال نبذل مع تغيرنا جهودا عاطفية يائسة لكي نحب في شخص مختلف ، الشخص الذي أحببناه سابقاً ، وماذاك إلا لان قوة الحب تبدو حين تأسرنا قوية جداً حتى لنقتنع أنها خالدة أبداً ، فإذا ما أخذت تتلاشى شعرنا بالخجل ، وأخذنا بغباء نلوم أنفسنا لضعفنا ، بينما يجدر بنا ان نقبل هذا التغيير في عاطفتنا كأثر من آثار طبيعتنا الإنسانية ، ولكن تجربة الجنس البشري أدت به الى ان يلفع الحب بمشاعر مختلطة ، فكان عند بعضهم موضع الشك ، ونال عند بعضهم من اللعن ما ناله من الثناء عند الآخرين ، وقد دأبت النفس الإنسانية في صراعها من أجل الحرية على ان تعتبر الاستسلام النفسي الذي يتطلبه الحب ، باستثناء فترات محدودة ، سقطة تنال من الكرامة ، والسعادة الناجمة عن الحب قد تكون أعظم سعادة يمكن أن يتوصل اليها الإنسان ، ولكنها نادراً ماتكون صافية ، وهي أشبه بقصة تنتهي بخاتمة محزنة ، وما أكثر الذين نقموا على قوة الحب ودعوا ربهم غاضبين أن ينجيهم من عبئه .. لقد تعلق الناس بقيوده ولكنهم كرهوها لأنهم يعرفون أنها قيود ، والحب ليس أعمى دائما ، وما أقل الأشياء التي تسبب بؤساً أشد مما ينتجعن الحب العنيف لإنسان تعرف انه لايستحق الحب.

ولكن « الحب العطف » لا يتصف بسرعة التقلب التي هي النقيصة المستعصية في الحب ، على انه في الحقيقة لا يخلو دائما من الدافع الجنسي ، وهو

أشبه بالرقص ، إذ يرقص المرء فتلذ له الحركة الإيقاعية ، وليس من الضروري ان يرغب في الذهاب إلى الفراش مع شريكه ، رغم ان الذهاب عمل ممتع إذا لم يصحبه مايسبب الاشمئزاز • وتتصعد الغريزة الجنسية في « الحب العطف» ولكنها تسبغ على الانفعال شيئا من دفئها وطاقتها الحيوية •• ان هذا الحب أجمل جانب من جوانب الخير ، وهو يسبغ البهاء على الصفات الصلبة التي تؤلفه ، ويقلل من صعوبة ممارسة تلك الفضائل الصغرى كضبط النفس وكبح جماحها والصبر والنظام والاعتدال ، وهي العناصر السلبية وغير المنعشة التي تدخل في تكوين الخير •• إن الخير هو القيمة الوحيدة التي لها من المظاهر في هذا العالم ما يوحي بأنها تستحق ان تكون غاية لذاتها ، أما الفضيلة فانها تعوض عن نفسها بنفسها ، ويخجلني ان أتوصل أخيراً الى نتيجة مبتذلة كهذه • ولقد كانت غريزتي حرية أن تدفعني — في سبيل إحراز التأثير — إلى إنهاء كتابي ببعض التصريحات المذهلة المحيرة ، أو بفظاظة ساخرة يضحك لها قرائي ويعتبرونها صفة مميزة • وما أقل ما تبقّى عندي لأقوله مما لا يمكن التماسه في الكتب أو سماعه على المنابر ، ولقد جشمت نفسي مشقة مسيرة متطاولة لأنتهي الى اكتشاف ما يعرفه كل إنسان من قبل!! •

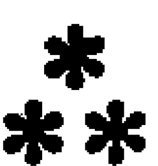
إن حاسة الاحترام ضامرة عندي ، وفي العالم منه كمية اكبر بكثير مما يطاق ، وهو ينسب الى موضوعات كثيرة — غير جديرة به ، ولا يتعدى غالباً لولاء التقليدي الذي نقدمه لاشياء لانرغب ان يربطنا بها اهتمام فعال ، واحسن ولاء يمكن أن نقدمه لشخصيات الماضي العظيمة ، كدانتي وتيتيان وشكسبير وسبينوزا ، هو ان لانعاملهم باحترام بل نمحضهم الألفة نفسها التي نحسن بها لو كانوا معاصرين لنا ، وبذلك نمنحهم اقصى ما نستطيع من تقدير ، لان الألفة اعتراف بأنهم احياء يسعون بيننا •

على انني حين وقعت بين حين وآخر على الخير الحقيقي ، شعرت بالاحترام يدب في قلبي طبيعيا ، ويبدو انه لم ينتقص من احترامي هذا كون أهل الخير ،

احيانا ، في درجة من الذكاء ادنى قليلا مما وددته لهم ، واذكر انني في أيام طفولتي التعيسة تعودت ان احلم ليلة إثر ليلة ان حياتي في المدرسة كـانت أضغاث أحلام ، وانني سأستيقظ منها لأرى نفسي ثانية في البيت مع أمي التي سبب لي موتها جرحاً مضت عليه الآن خمسون سنة ولما يلتئم تماماً • ومنذ زمن بعيد لم يعد يراودني ذلك الحلم ، ولكنني لم أفقد تماماً الإحساس بأن الحياة التي أعيشها سراب اختلط فيه الحلم بالواقع ، الا انني حتى أثناء ممارسة دوري في الحياة ، كنت استطيع ان انظر من مسافة بعيدة ، واتبينها بالرغم من السراب الذي كانته •

وكلما قلبت النظر في حياتي ، بما فيها من نجاح ، وإخفاق ، وأغلاط لا نهاية لها ، وخداع ، ووصول ، وافراح ، واتراح •• خيل الي انها تفتقر الى الواقعية ، وانها مجرد ظلال وأنها غير مادية ، وقد يرجع ذلك الى ان قلبي الذي لم يصب الراحة في أي مكان ظل مسرحاً لاشواق الى الله والى الخلود عميقة موروثة لم يستطع عقلي أن يجاريها •• وفي غمرة افتقاري الى الافضل زيّن لي أحيانا ان اتظاهر امام نفسي بأن ما رأيته من خير عند كثير من الذين صادفتهم في دروب الحياة ، كان له نصيب من الواقع • ولعل الخير ليس سبباً من أسباب الحياة ولا تفسيراً لها ، ولكنه نوع من التبرير •• انه ليس تحديا ولارداً ، ولكنه نوع من تأكيد استقلالنا في هذا العالم الجامد بشروره المحتمة التي تحيق بنا من المهد الى اللحد ، إنه الرجع الذي يرد به المزاح على عبث القدر المأساوي • وخلافاً للجمال يمكن للخير أن يكون كاملا دون إملال ، وهو أعظم من الحب لان يد الزمن لاتعبث ببهجته • ولكن الخير يظهر فـي العمل الصحيح ، ومنذا الذي يستطيع ان يحدد العمل الصحيح في هذا العالم الذي لا معنى له ؟•• وليس الخير عملا يستهدف السعادة ، ولكن إذا تنجت عنه السعادة فبها ونعمت • وقد ألح أفلاطون ، كما نعلم ، على إنسانه الحكيم أن يهجر هدوء حياة التأمل الى ضجيج الحياة العملية ، ومن ثم يضع داعي الواجب فوق رغبة السعادة • ولعلنا جميعا اتفق لنا في بعض المناسبات أن

تتبنى اتجاها لاننا نعتقد أنه صحيح ، مع اننا متأكدون انه لن يتمخض عن سعادة في الحال او في المستقبل ، فأين إذن العمل الصحيح .. أما عندي فأحسن جواب أعرفه هو الجواب الذي جاء على لسان (فري لوي دوليون Fray Luis de Leon) ، وإن اتّباعه في رأيي ليس من الصعوبة بحيث يتخاذل أمامه الضعف الإنساني عجزاً عن بلوغ شأوه ، وبه أستطيع أن أنهي هذا الكتاب .. يقول دوليون : وما جمال الحيـــاة إلا أن يتصرف كل امرىء بانسجام مع طبيعته وعمله .





كتب المؤلف

— **الوافي في الأدب العربي الحديث** ، (بالاشتراك مع د. جودت الركابي والأستاذ إسماعيل عبد الكريم) ، دمشق ، ١٩٦٣ .

— **العالم الثالث** ، بيتر وورسلي (مترجم عن الإنكليزية ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٨ .

— **في انتظار غودو** (مراجعة الترجمة) ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٨ .

— **الثورة الفلسطينية ... إلى اين ؟** دمشق ، ١٩٧١ .

— **في التجربة الثورية الفلسطينية** ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٢ .

— **الأدب الأوربي : تطوره ونشاة مذاهبه** ، مكتبة اطلس ، دمشق ، ١٩٧٢ .

— **نظرية الأدب** ، لرينيه ولك وأوستن وارن (مراجعة الترجمة) المجلس الأعلى للآداب ، دمشق ، ١٩٧٢ .

THE SUMMING UP

by

SUMMERSET MAUGHAM

Translated into Arabic by

HUSSAM AL - KHATEEB, Ph. D.

Chairman of the Department of Arabic , Damascus University.

